

د. لويس عوض

اقراء

حلم الشرق والغرب





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر



د. لويس عوض

رحلة الشرق والغرب

اقرأ ٣٥٤

دار المعارف بمصر

أقرا ٣٥٤ - يونيو سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الباب الأول

رحلتى الروسية

الفصل الأول

١٠ أيام في يوجوسلافيا عتبة أوروبا الاشتراكية

كان قدراً أن أكون آخر من زار روسيا من الأدباء المصريين المعروفين . وقد بدأ الروس يستقبلون في بلادهم أدباء مصر منذ سنة ١٩٥٥ ، وكان المرحوم الدكتور محمد مندور رئيس أول وفد من الأدباء المصريين يزور الاتحاد السوفيتي . منذ ذلك التاريخ سافرت وفود وفود بدعوة من اتحاد الكتاب في روسيا ، وعقدت مؤتمرات ومؤتمرات في الاتحاد السوفيتي ، وكانت تأتي الأنباء بين الحين والحين أن اتحاد الكتاب قد وجه إلى دعوة بالاسم ، ثم يشبث أن هذا غير صحيح ، أو أن الدعوة لم تصلني ، وكنت أحس إحساساً واضحاً بأن في ثقافتى فجوة عميقة. كنت كالكثيرين أعرف الكثير عن الأدب الروسى من بوشكين إلى جوركى عبر تولستوى ودوستويفسكى وجوجل وتورجنيف وتشيفوف ، وكنت كالكثيرين أحاول أن أعرف شيئاً عن الأدب الروسى منذ الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ من يسنين إلى يفتوشنكو عبر ما ياكوفسكى وباسترنك وإهرينبورج . . إلخ . .

وكنت أعرف الكثير عن الفكر الماركسى والنظام الشيوعى نظرياً

وعملياً ، ما لهما وما عليهما ، من قراءتي في ماركس وإنجلز ولينين وبلشخانوف وبوخارين وروزا لكسمبورج وستالين وتروتسكى وماكس إيسمان وسيدنى وبياتريس ويب وشارل بتلهاييم ، ثم ما استجد من اجتهادات في الثلاثينيات (هولدين وبرنال وهوجبن) والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فقد كنت دائماً ولا أزال من هواة الفكر الاجتماعى والسياسى . وكنت أقرأ المعارضين والمنقحين والمراجعين والمنحرفين بنفس الحماس من كاوتسكى إلى جيمس بيرنهام ومن سيلاوف وكيسلر إلى جورج أورويل . وما زلت أقرأ اجتهادات لوكاتش وجارودى والتوسير بنفس الحماس . ولكن ليس من رأى كمن سمع . ولهذا كنت دائماً أحس بأن أى حكم يطلق على المجتمع الاشتراكى السوفيتى أو الفكرة الاشتراكية السوفيتية هو بغير قيمة حقيقية ما لم ير المرء كل هذه الأفكار وتطبيقاتها على الطبيعة .

ومنذ عام زارنى فى « الأهرام » الرفيق سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » ودعانى لزيارة روسيا على نفقة مجلته ، فأبدت له تحفظى من قبول الضيافة وأضفت : « لكل شئ أوان ، وأنا لست متعجلاً ، ولكن عندى يقيناً بأنى سأزور الاتحاد السوفيتى فى يوم من الأيام . . على كل حال قبل أن أموت » ، فضحك الرجل السمين لتوجسسى ضحكة سميئة .

ولم أكن أعلم أن هذا اليوم قريب . وقد جاء اليوم فجأة ودون ترتيب . فقد زارنى فى مكتبى بالأهرام منذ شهرين أو ثلاثة مسيو بتكوفيتش المستشار الثقافى للسفارة اليوجوسلافية وتفضل بدعوتى لزيارة بلاده بمناسبة

حاول مهرجان الفنون السنوى فى دبروفنيك خلال يوليو وأغسطس ١٩٧٠
 فقبلت الدعوة شاكراً دون تردد . ثم عجبت لقبولى الفورى برغم أنى ،
 بمسمى الصراحة ، لم أكن متحمساً بصفة خاصة للتجربة اليوجوسلافية فى
 الاشتراكية ، ولم أكن بصفة خاصة من هواة الثقافة اليوجوسلافية ، ولم
 يكن فى يوجوسلافيا — بلداً أو شعباً — شىء يلهب خيالى أو يسحر
 وجدانى حتى يلهينى عن مبدأ رفض كل ضيافة . وبعد أن استعرضت
 الموقف فى هدوء زال عجبى . . لقد كنت دائماً أنحاشى الأغنياء وأتوجس
 من الأقوياء ولا أقبل جميلاً إلا ممن هم فى طبقى . ولم يكن فى اليوجوسلاف
 شىء يخيفنى كعصرى ، فمعن شعبان صغيران ناميان ، وإذا كان لهم
 فضل الحداثة فلنا أيضاً فضل القدم . ووافقنى الأستاذ هيكلى على أن
 تكون رحلتى اليوجوسلافية بداية مناسبة لرحلتى الروسية على نفقة الأهرام .
 وما دمتنا مع الاشتراكيين فلننظر إلى الاشتراكية فى كل مكان ،
 لا أقول فلندرس وإنما أقول فلننظر فكل هذا لا يمكن أن يدرس فى شهر
 واحد . وقررت أن أبدأ بيوجوسلافيا ثم أدخل إلى روسيا ثم أزور بولندا
 ثم أعرج على ألمانيا الشرقية ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا ثم أعود .

وفى ١٥ يوليو وجدتنى فى مطار بلجراد أنتظر من ينتظرنى . فقد
 كان من المقرر أن ينتظرنى فى المطار مرافق موفد من وزارة الثقافة
 اليوجوسلافية أو من الإدارة المنظمة لمهرجان دوبروفنيك ، ولكن أحداً
 لم يظهر ، قيل فيما بعد لأن شركة الطيران العربية المتحدة أجلت موعد
 سفر طائرته ٢٤ ساعة . وكنت أتميز غيظاً وأضطرب قلقاً . أكلّم الناس

بالانجليزية فلا يفهمون". وأجرب الفرنسية فلا يفهمون ، ووجدت نفسى فجأة فى عالم غريب لا أعرف فيه أحداً أو شيئاً أو عنواناً، وجميع أدوات الإرسال والاستقبال بيّى وبين العالم محطلة فيها خلا لغة الإشارة . وأخيراً وضعت نفسى فى تاكسى وقلت « هوتيل » ففهم السائق وحملنى إلى هوتيل سلافيا . وما إن وضعت حقائبى حتى انطلقت بتاكسى آخر إلى السفارة المصرية ببلجراد لأستعين بها على المجهول اليوجوسلافى ، أى لتصلنى السفارة بوزارة الثقافة اليوجوسلافية أو بمنظمى مهرجان دوبروفنيك فوجدت سفارتنا خاوية على عروشها تحفها السقاييل والملاط وصفائح البوية من كل جهة ومن داخل الحجرات والدهاليز والقاعات ، فقد كانت بها « عمرة » شاملة ولم أجد بها إلا سكرتيرة يوجوسلافية شابة تعرف الإنجليزية ولا تريد أن تحرك ساكناً . وعرفت أن أمور السفارة تصرف مؤقتاً من بيت السفير . فعدت إلى الفندق وبحثت بين أوراقى عن خيط يصلنى بالعالم الخارجى فوجدت رقم تليفون الزميل فريد كامل مراسل ا.ش.ا. فى بلجراد .

وخف إلى فريد كامل على عجل ، وفى أقل من ساعة خرجت من هذه الورطة الغريبة . فى أقل من ساعة خف إلى المرافق المترجم المعين لمساعدتى واتفقنا على برنامج الرحلة .

وخرجت أتجول فى مدينة بلجراد فوجدتها مدينة جديدة نظيفة باهتة، بلا شخصية ، بها بعض العماثر الأثرية القليلة ، ولكن طابعها العام حديث ، وأبرز ما فيها عساكر المرور الذين ينظمون المرور فى

ميادينها الفسيحة كأن كلا منهم يقود أوركسترا من السيارات ، كذلك أبرز ما فيها أن يوم العمل بها يبدأ في الساعة السابعة صباحاً فإذا نظرت من نافذتك بالفندق في السادسة صباحاً رأيت الشوارع مكتظة بالسيارات وبالمارة ، كل يسعى لعمله وكأنك في الساعة التاسعة في أحد ميادين القاهرة الكبرى . وسرعان ما أدركت برغم عوائق اللغة أنى وسط شعب معقد التكوين ، لأنه متعدد القوميات ، متعدد اللغات ، متعدد الثقافات ، متعدد الأبجديات ، متعدد الأديان ، ففى يوجوسلافيا ٢٠ مليون نسمة ينقسمون إلى ستة شعوب مختلفة يضمها إطار سياسى واحد ، وهذه الشعوب هى الصرب (نحو ٨ ملايين) والكروات (نحو ٤,٥ ملايين) وسكان سلوفينيا (نحو ١,٧ مليون) والبوسنة والهرسك (نحو ٣,٥ ملايين) ومونتنيغرو أى الجبل الأسود (نحو نصف مليون) ومقدونيا (نحو ١,٥ مليون) . وهناك قومية إسلامية قوامها نحو مليون مسلم إلى جانب المسلمين المندرجين تحت القوميات الأخرى . هذا بالإضافة إلى الأقليات القومية الأخرى التى تعيش فى يوجوسلافيا كالأتراك (نحو ربع مليون) ، والمجر (نحو نصف مليون) ، والغجر (نحو ٤٠ ألفاً) والألبان وغيرهم وهم يمثلون نحو عشر سكان البلاد ، وقد سمعت أن الغجر فى يوجوسلافيا قد رفعوا شعار : « يا غجر العالم اتحدوا » وأنهم يطالبون بوطان قومى للغجر وبجمهورية غجرية داخل الإطار السياسى اليوجوسلافى . والقوميات الرئيسية فى يوجوسلافيا تعيش فى جمهوريات شبه مستقلة داخل إطار الجمهورية اليوجوسلافية التى يرأسها الرئيس تيتو . فإذا عرفت

أن يوجوسلافيا في مجموعها لم تولد كدولة إلا عام ١٩١٨ بموجب معاهدة فرساي التي قننت تجميع كل هذه الأشتات في دولة واحدة ، ذهلت أن تجد هذه الدولة الملتفة التي كانت مقسمة بين تركيا واليونان والنمسا والمجر تسعى نحو وجود سياسى واحد ونحو هدف قومى واحد . وفي اعتقادى أنها لم تنجح في تحقيق هذه الوحدة السياسية إلا بفضل اعترافها بالشخصيات القومية المختلفة وبالتقافات القومية المختلفة التي يتألف منها الاتحاد . فلو أن الكروات حاولوا طمس ثقافة الصرب أو أن الصرب حاولوا طمس ثقافة المقدونيين . . إلخ . لتمزقت يوجوسلافيا وتفسخت قبلما تقوم لها قائمة .

ولأن يوجوسلافيا دولة جديدة فعاصمتها بلجراد عاصمة جديدة أيضاً . . واسم يوجوسلافيا اسم حديث لا معنى له إلا « بلاد السلاف الجنوبيين » تمييزاً لهم من سلاف الشمال ممن تجدهم في روسيا وغيرها ، فالعنصر الغالب في يوجوسلافيا إذن هو الجنس السلافى ، ومن هنا كان اليوجوسلاف بوجه عام ثقال العظام كالروس ولكن بيئتهم الجبلية جعلتهم أكثر خشونة وغلظة وأقل وسامة وأطول ألواحاً من الروس ومن كافة السلافيين في تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وقبلما تجد بينهم رجلاً أو امرأة يتميز بالدقة أو الرشاقة في التكوين الجسمانى ، ولكن الجميلات من نسائهم جمعن بين الجمال والجسم الرياضى الذى لم تتلفه المدنية بعد . وإحساسى أن تكوينهم الجسمانى الجبلى ينعكس أيضاً في سلوكهم وسيرهم وحركتهم بوجه عام .

أما بلجراد نفسها ، فرغم أنها عاصمة جديدة ، صغيرة التعداد نسبيًا (نحو مليون نسمة) ، فيقال لك إنها مدينة عمرها ألفا عام أو يزيد ، ومعناها « المدينة » [جراد] البيضاء [بيو] أو إن شئت أن تقربها للعربية فهي « المدينة البيضاء » والأبيض والأبلى شيء واحد . وعرفت من آثار بلجراد أن أساس هذه المدينة وضع في القرن الرابع ق.م. أيام فتح قبائل الكلت لهذه المنطقة من البلقان وكان اسمها يومئذ سنجدان ، أى قلعة السنج ، كما أن لندن معناها قلعة اللون ، فكلمة « دون » تعنى قلعة أو حصناً في لغة قبائل الكلت ، فهي إذن بدأت كتحصينات حربية ، وقد أدرك الترك قيمتها العسكرية فيما بعد وأنشأوا فيها تحصينات تعرف حتى الآن باسم كلاميوجدان ، وهى كلمة تركية يقول من رأيهم من المصريين أنها تحريف لعبارة « قلعة الميدان » العربية أما مرافق اليوجوسلافى فيصر على أن الكلمة تركية صميمة معناها الحرفى « معسكر القتال » أو كما نقول نحن « ميدان القتال » ، والله أعلم . وعلى كل فإخواننا المصريون قد تعودوا منذ سنوات قريبة أن يروا العرب ولغتهم وراء كل أكمة وخلف كل شجرة من بلاد الصنوبر إلى بلاد البنجوين . وقد حدثتني السيدة المشرفة على مهرجان دوبروفنيك ، قالت إن شاباً مصرياً فسر لها أصل اسم دوبروفنيك بأنه مادامت « دوبرو » فى اللغة اليوجوسلافية معناها « الغابات » وما دام العرب قد عرفوا « البندقية » فاسم دوبروفنيك إذن مأخوذ من العربية ، ومعناها إذن « بندقية الغابات » [بدلا من مدينة البندقية البحرية] ، فضحكت وقلت لها : ربما ،

ولكن إذا كان هذا اشتقاق اسم بلدتك ، فالرومان المتأخرون أو الايطاليون الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى العرب ليعلموهم أن بلدتهم فينيسيا كان اسمها فنديكيا ، فقد كان هذا اسمها اللاتيني قبل أن يخرج العرب إلى الأمصار برّاً وبحراً . وعلى كل فلا داعي للخجل ، فهذه الفهولة المصرية قد لمست نظيراً لها في الفهولة اليوجوسلافية .

كنت قد طلبت لقاء أديبهم الكبير ايفو اندريتش وسواه من الأدباء المعروفين ، فوجدته في مصحة ووجدت أكثرهم في الأرياف وعلى الشواطئ وفي خارج البلاد . قال محدثي — وهو المقابل اليوجوسلافي للدكتور مجدى وهبة في إدارة العلاقات الثقافية الخارجية — إن ايفو اندريتش يسبب لنا حرجاً شديداً . فتذ أن ماتت زوجته منذ سنوات وهو في حالة كآبة مستمرة ، وقد زهد في الكتابة والحياة ، يدخل المصحات بمعدل مرتين سنوياً وتأتينا الدعوات له من اليابان أو السويد أو غيرها ، فيجيب بأنه قبلها ، وحين يحين موعد رحلته نبحث عنه في كل مكان فنجده معتكفا في مصحة عازفاً عن لقاء الناس . لقد قال لى مرة إنه منذ وفاة زوجته لا يعرف لماذا يعيش . لقد كف عن الكتابة تماماً . أجبت : لقد لاحظت عليه شيئاً من ذلك . فقد عرفته في القاهرة أيام أن استقبله الدكتور ثروت عكاشة ، ثم تركنا فجأة وطار إلى يوجوسلافيا . قال إنه مريض ، ولكن يبدو أن نوبة الكآبة أدركته .

وركزت على دراسة حالة المسرح في يوجوسلافيا لعلى أجد في تجربتهم المسرحية شيئاً يمكن أن ننتفع منه في مصر ، فتعرفت على المخرج

الناقد الموهوب تشيريلوف وفي أكثر من لقاء حصلت منه على صورة دقيقة للحياة الفنية في يوجوسلافيا .

عرفت منه أن في يوجوسلافيا نحو خمسين مسرحاً محترفاً ، كلها تابعة للدولة ، وليس لديهم مسرح خاص واحد ، وكل هذه المسارح معانة من الدولة ولكن المهيمن على المسارح في يوجوسلافيا ليس وزارة الثقافة وإنما المجالس البلدية في كل 'جمهورية من جمهوريات يوجوسلافيا الفيدرالية الشعبية . أما في بلجراد نفسها ففيها سبعة مسارح هي :

١ - المسرح القومي وعمره ١٠٠ عام ، وهو ليس مختصاً بالدراما وحدها وإنما يضم فرقة للتمثيل المسرحي وفرقة للأوبرا وفرقة للباليه ، وله حالياً مسرحان ، أو خشبتان ، ويبني له الآن مسرح ثالث ، وهو يقدم سنوياً نحو سبع مسرحيات جديدة وثلاث أوبرات جديدة بالإضافة إلى الإعادات [الريبراتور] ، أما فرقته المسرحية فأعضاؤها نحو خمسين ممثلاً وممثلة .

٢ - مسرح الدراما اليوجوسلافية ، وقد تأسس في ١٩٤٨ وله خشبتان في بلجراد ، مسرح يتسع لسبعمئة متفرج ومسرح يتسع لأربعمائة ، وفرقته المسرحية تضم ٧٢ ممثلاً وممثلة يقدمون على الخشبتين بين ١٠ مسرحيات و ١٢ مسرحية جديدة سنوياً .

٣ - المسرح الحديث أو المعاصر وله خشبتان ، وهو يقدم الأوبريتات والكوميديا الموسيقية كما يقدم العروض الدرامية ، وحصيلته السنوية من ١٠ إلى ١٢ عرضاً جديداً على الخشبتين وبه نحو ١٠٠ فنان وفنانة منهم ٧٠ للتمثيل المسرحي و ٣٠ للغناء .

٤ - مسرح الأتلييه ٢١٢ وقد أنشئ عام ١٩٥٦ ويضم ٢٢ ممثلاً وممثلة وله خشبتان الكبرى سعتها ٤٠٠ متفرج والأخرى صغيرة كمسرح الجيب .

٥ - مسرح الأطفال [إتلييه بوشكويوسا] .

٦ - المسرح الشعري وهو مخصص للدراما الشعرية والقراءات .

٧ - مسرح الدراما القومية وهو مخصص لعرض إنتاج الأدباء اليوجوسلافيين وتنمية المواهب الجديدة .

أما بالنسبة لتكاليف إنتاج المسرحيات فقد عرفت من المخرج الناقد الشاعر تشيرياوف [وهو أيضاً مدير مسرح أتلييه ٢١٢] ان متوسط الحد الأقصى وتكاليف أكبر عرض عرفه المسرح اليوجوسلافي هي ٣٠٠ ألف دينار يوجوسلافي أى ما يساوى نحو عشرة آلاف جنيه مصرى بخلاف مرتبات الممثلين والإدارة ، وإن إنتاج مسرحية من مسرحيات شكسبير يكلف ما بين ٧٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ جنيه خارج مرتبات الممثلين والإدارة (أى بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف دينار) ، وأن متوسط الحد الأدنى لتكاليف المسرحيات البسيطة هو ٥٠ ألف دينار أى نحو ١٧٠٠ جنيه . أما المسرحيات العادية فينفق عليها نحو ٥٠٠٠ جنيه (١٥٠ ألف دينار) خلاف مرتبات الممثلين والإدارة . وقد ذكر لى تشيرياوف أن « فى انتظار جودو » وما هو فى حكمها قد كلفتهم ١٠٠ ألف دينار (أى نحو ٣٣٠٠ جنيه) .

كل هذا النشاط المسرحى يشرف عليه فى بلجراد هيئة تسمى « مجلس

الشؤون الثقافية » . وكل المسارح يعينها المجلس البلدى باستثناء المسرح القومى الذى يعينه مجلس بلدية بلجراد كما تعينه جمهورية الصرب .

أما الاعانة التى تتلقاها المسارح فى يوجوسلافيا فليست رقماً أصم كل سنة كميزانية الإنتاج والخدمات المسرحية فى هيئة المسرح عندنا ولكنها مرتبطة بحجم جمهور المسرح الذى يدخل طرفاً فى تحديد الإعانة . فالمجلس البلدى يدفع لكل مسرح إعانة مساوية لدخله من شباك التذاكر طوال العام ، فإذا كان متوسط ثمن التذكرة المباعة فعلاً ١٠ دنانير وعدد رواد المسرح ١٠٠ ألف شخص دفعت البلدية إعانة قدرها مليون دينار وتشجيعاً للتأليف المسرحى القومى ترفع الإعانة بنسبة ٥٠ ٪ بالنسبة لعرض أعمال المؤلفين اليوجوسلافيين ، كما تدفع البلدية إعانة ابتدائية إضافية قدرها ٥٠٠٠ دينار (نحو ١٧٠ جنيه) عن كل مسرحية جديدة تخرج لمؤلف يوجوسلافى بشرط أن يستمر عرضها عشر حفلات ، وهو مبلغ رمزى ، ولكنهم يعتبرونه حافزاً لإنتاج المؤلفات المسرحية القومية إلى جانب الخمسين فى المائة الإضافية التى تدفع فوق الإعانة المساوية لحصيلة شباك التذاكر . ولكن لكى لا تتسابق الفرق فى بلجراد على استرضاء الجمهور بعرض المسرحيات الرخيصة طمعاً فى شباك تذاكر ضخم وإعانة حكومية ضخمة ، ينحصر المجلس البلدى سنوياً إعانة قدرها مليون دينار (نحو ٣٣ ألف جنيه) بصفة جوائز لأحسن أعمال مسرحية تعرض من حيث القيمة الفنية خلال العام بناء على قرار هيئة تحكيم بصرف النظر عن عدد الرواد لكل مسرحية ، وهذا المبلغ قد يعطى

كجائزة واحدة أو جائزتين أو ثلاث جوائز وقد يصل العدد إلى عشر جوائز .
 أما حق المؤلف المسرحي فيحدد على الوجه التالي : ١٠ آلاف دينار
 (نحو ٣٣٠ جنيتها) مكافأة يضاف إليها ١٢٪ من حصيلة شباك التذاكر
 عن كل حفلة يعرض فيها أعماله سواء في موسمه الأول أو في الإعادات .
 والدولة تنتظر مقابل هذه الإعانات من كل مسرح إنتاجاً كمياً
 متوسطه خمس إلى ست مسرحيات جديدة كل عام بالإضافة إلى ما بين
 ١٥ إلى ٢٠ إعادة من مسرحيات الريبوتوار . والمقصود بالمسرحيات
 الجديدة لا المسرحيات الحديثة التأليف ولكن المسرحيات التي لم يسبق
 تقديمها على هذا المسرح بالذات ولو كانت من اليونان أو من شكسبير
 أو راسين أو من المحدثين .

والممثلون يتقاضون في يوجوسلافيا بوجه عام نفس المرتبات التي
 يتقاضاها المخرجون ويعاملون نفس المعاملة المالية من جميع الوجوه ، إلا في
 جمهورية سلوفينيا ، وهي أرقى جمهوريات يوجوسلافيا من الناحية الفنية
 والحضارية ، فإن مرتبات الممثلين فيها تقل عن مرتبات المخرجين بنسبة
 ٢٠ ٪ ، والمخرج الضيف يتقاضى في يوجوسلافيا ما بين ٥٠٠٠ و ١٠,٠٠٠
 دينار على كل مسرحية يخرجها بحسب مكانته أي ما بين نحو ١٧٠ جنيتها
 و ٣٣٠ جنيتها ، وجدول المرتبات محدد كالاتي : ١٠٠٠ دينار شهرياً
 للفنان المبتدئ (ممثلاً كان أو مخرجاً) أي نحو ٣٣ جنيتها و ٢٠٠٠ دينار
 (٦٦ جنيتها) للفنان المتوسط و ٣٠٠٠ دينار (١٠٠ جنية) للفنان الكبير
 وهذه المرتبات تعادل على وجه التقريب ما يتقاضاه أساتذة الجامعات

في يوجوسلافيا ، ولكن للفنانين عادة دخل إضافي من التليفزيون يعادل ضعف دخلهم من عملهم الأصلي ، وقد يصل إلى ثلاثة أمثاله . وجدول مرتبات فناني التليفزيون مطابق لجدول مرتبات فناني المسرح . أما المخرج السينمائي فيتقاضى ١٠٠ ألف دينار عن كل فيلم يخرج (نحو ٣٣٠٠ جنيه) تدخل فيها مكافأة الحوار .

ومقابل المرتب الذي يتقاضاه يشترط على المخرج أن يخرج مسرحيتين سنوياً في مسرحه على وجه الإلزام ويجوز له أن يتجاوز هذا النصاب بالإخراج للمسارح الأخرى أو في مسرحه بمكافأة مستقلة .

وميزانية المسرح القومي ٤ ملايين دينار سنوياً أى نحو ١٣٣ ألف جنيه تمثل إيرادات الشباك منها ٢٠ ٪ وتمثل إعانة البلدية منها ٨٠ ٪ . أما مسرح الاتلييه ٢١٢ فيزيائيته السنوية مليون دينار فقط (نحو ٣٣ ألف جنيه) ٣٠ ٪ منها من إيرود الشباك و ٧٠ ٪ من إعانة المجلس البلدى ، هذا بالرغم من أن المسرح القومي به ١١٠٠ كرسي بينما مسرح الاتلييه به ٤٠٠ كرسي (متوسط المسارح الأخرى نحو ٥٠٠ كرسي) . .

وهذه الإعانة التي تصل إلى ٨٠ ٪ من ميزانية بعض المسارح ناتجة من أن مرتبات الفنانين والاداريين والفنيين والإضاءة والصيانة إلخ مع نفقات الإنتاج المسرحي تساوى أربعة أمثال دخل الشباك . ولكن تشير ياوف أوضح لى أنه بوجه عام تغطي الإعانة المرتبات ويغطي إيراد الشباك نفقات الإنتاج . وميزانية كل مسرح تنفق بنسبة ١ للفنانين : ٢ لغير الفنانين (الاداريين والفنيين إلخ . .) وهذا في رأيه هو العرف

المستقر في أوروبا كلها منذ مائة عام في مسارح الريبورتوار ، أما في مسارح البولفار (التجارية) فالفنانون ليسوا موظفين ولكن يعملون بالقطعة . . وكل زيادة في حصيلة الشباك في المسارح اليوجوسلافية تنول للمسرح ويمكن إنفاقها في نهاية كل عام ، إما على الفنانين كحوافز وإما على مزيد من الإنتاج المسرحي بحسب ما يقرره مجلس إدارة المسرح . أما متوسط ثمن التذكرة فهو ١٠ دنانير (نحو ٣٣ قرشا) . وأرخص تذكرة ثمنها ديناران (سبعة قروش) وأعلى تذكرة ثمنها ٢٥ ديناراً (٨٥ قرشاً) بلاضريبة ملاء . ولكل مسرح في بلجراد مجموعة من المخرجين مرتبطين به يتراوح عددها بين ٢ و ٤ مخرجين ، وكل مسرح له استقلاله الذاتي ويديره مجلس إدارة وعلى رأسه مدير المسرح ، وهذا المدير قد يكون فناناً أو إدارياً أو سياسياً ، بحسب ما يقرره مجلس التعيينات ، والأغلب في يوجوسلافيا أن مديري المسارح من الأدباء ، ولا سيما في المسرح القومي الذي بلغت نسبة مديريه من كتاب المسرح أو النقاد خلال مائة عام ٩٠ ٪ ، أما مجلس إدارة المسرح فيتكون ثلثاه من رجال الفن والإدارة التابعين للمسرح وثلثه من ممثلي البلدية دافعة الإعانة ، ولكل مسرح مستشار أدبي ، أما وظيفة المدير فهي بالإعلان ، وهي لمدة ثلاث سنوات .

ونسبة المترجمات إلى المؤلفات في مسارح بلجراد هي ٥٠ ٪ للمترجمات و ٥٠ ٪ للمؤلفات ، وهو عرف مستقر دون أن يكون عليه نص . أما المؤلفات فتحصل المسارح عليها إما بالتكليف المباشر وإما بفحص المؤلفات المعروضة عليها ، وهي عادة تعرض عند اختيارها على الخشبة

التجريبية الصغيرة قبل أن تعرض على المسرح الكبير . والمسرح القومى يتبع نفس المنهج . ولكن تشير ياوف لم يخف عنى امتعاضه من مستوى التأليف المسرحى القومى فى بلاده .

أما الجهة المنوطة . راقية المسارح المعانة من حيث سلامة الإنفاق فهى البلدية ، ويمكن للبلدية أن تتدخل لإيقاف عرض مسرحية إذا ألبت المسرحية إحدى قوميات يوجوسلافيا على قومياتها الأخرى أو إذا هاجمت دولة صديقة . وفيما عدا هذا فليس هناك رقابة على المسرح وإيقاف المسرحيات لا يكون إلا بحكم محكمة ، ولم يحدث أبداً أن صادرت المحاكم مسرحية ما، ولكن حدث منذ ١٨ سنة أن أوقفت مسرحية «مرقص اللصوص» بلجان أنوى بقرار وزارى بحجة الانحلال أيام الاستالينية ثم لم تتكرر هذه السابقة . ومع ذلك فقد أوقفت مسرحية واحدة أيام استحكام الخلاف بين تيتو وستالين فى ١٩٤٨ وهى مسرحية « عندما يزهر القرع » لأنها عرضت بالبوليس اليوجوسلافى واتهمته بالنازية لاعتقاله عدداً من الشيوعيين الستالينيين فى يوجوسلافيا . . والذى أوقف المسرحية هو إدارة المسرح الذى كان يعرضها ، أوقفها بسبب الحملة التى شنتها الصحافة عليها ، أما الحكومة فلم تتدخل .

هذه صورة المسرح اليوجوسلافى كما استخلصتها من حديث الناقد المخرج تشير ياوف ، وقد أوردتها بتفاصيلها عسى أن ينتفع بها المسئولون ورجال المسرح عندنا . وأهم الحقائق فى هذه الصورة بالنسبة لوزارة الثقافة ووزارة الخزانة معاً هى أن الدولة فى يوجوسلافيا تعين المسارح

بنسبة ٨٠٪ من ميزانيتها ، وأن مرتبات الفنانين تمثل ٥٠٪ من مرتبات الإداريين والفنيين وعمال المسرح ، وأن إعانة الدولة للمسارح مبرورة بعدد روادها . وقد توخيت أثناء إقامتي في روسيا وفي ألمانيا الشرقية أن أجري دراسة مشابهة لحالة المسرح من الناحية التنظيمية هنا وهناك ، فربما ساعدتنا هذه الدراسة المقارنة على إعادة تنظيم حياتنا المسرحية داخل البناء الاشتراكي .



الفصل الثانى

التجربة اليوجوسلافية

سليبات وإيجابيات

دخلت يوجوسلافيا وخرجت منها دون أن أحس أنى فى بلد اشتراكى ، فلا اشتراكية تقترن عادة فى أذهان الناس بالمير وقراطية والإحساس بالحكومة (التى يسمونها خطأ بالدولة) فى كل خطوة يخطوها الإنسان ، وبكثرة القيود والممنوعات واللوائح والقوانين ، وبالعين المراقبة التى تتجول فى محافظتك لتعرف كم دولاراً تحمل وفى عقلك لتعرف فيم تفكر وكيف تحس ، وبكثرة الشعارات والكليشيات فى الكلام وفى وحدة المصبات من صور الزعماء والتوجيهات العامة . فلما نزلت يوجوسلافيا لم أحس بشىء من هذا بل أحسست على نقيض ذلك بأنى فى مجمع مفتوح لا يكاد يختلف كثيراً عما ألفته فى بعض بلاد الغرب التى زرتها . ومع ذلك فى يوجوسلافيا بلد اشتراكى أو شبه اشتراكى ، فيه كل المصانع والمتاجر والفنادق والعمائر والشركات وكافة وسائل الإنتاج والخدمات الكبيرة مؤمنة ، والملكية الزراعية فيه محدودة بحدود ومقيدة بقيود (بحد أقصى نحو ٢٠ فداناً للفرد الواحد) . وانتهيت إلى أن يوجوسلافيا بلد شبه اشتراكى بعد أن عرفت أن اقتصادها

اقتصاد مختلط فيه مكان للقطاع الخاص والنشاط الفردي ، ففي استطاعتك أن تملك مصنعاً أو متجرّاً أو عمارة أو فندقاً أو مشروعاً مادمت تديره بنفسك ولا تستخدم فيه أكثر من كذا عامل وتنفذ أحكام القانون والضمان الاجتماعي بشأنهم .

والزائر لا يجد من يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه ويتمعن في أوراقه أكثر من اللازم أو يسأله لماذا جئت وأين تقيم ومتى تمضي . وربما لم يجد الزائر كثيراً من أصول الاتيكيت وآداب السلوك التي تثقف بها الناس في حضارة الغرب عبر مئات من السنين ، ولكنه يجد ما يطلبه أو يحتاج إليه منفذاً بلا تراخ ، في بداوة ولكن بلا تراخ ، في بساطة وبلا احتفال ولكن بلا تراخ ، فكل الناس تعمل بجد من الساعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر (منها ساعة للغداء) رغم أنهم جميعاً موظفون في القطاع العام . وحين يصبح الجرسون أو عامل المصعد أو موظف الشركة ق.ع. يجب أن تتوجس خوفاً من آثار الاشتراكية . ولكن لا . في يوجوسلافيا كل مافي الدولاب يتحرك بلا تراخ . التليفونات تعمل بدقة . التلغرافات ، المواصلات ، الطائرات ، البنوك ، الحفريات ، الكهرباء ، المطاعم ، المتاجر ، الشوارع ، تعمل بدقة رغم أنها ق.ع. وبكرامة أيضاً . لا أحد ينتظر البقشيش . إن جدت به فكلمة شكر وإن لم تجد فلا أحد ينتظر منك شيئاً . وأهم من هذا وذاك فأنت لا تحس بوجود « الحكومة » « في أية خطوة نخطوها . عشرة أيام لم أسمع فيها كلمة « بعدين » أو « غدا » أو « عند الأفندي الثاني » أو « المختص غير موجود »

رغم أنها كانت من أيام يوليو في قيظ دونه فيظ القاهرة ، كل يؤدي عمله وكأنه رئيس نفسه . لا أحد يعطل عملاً بحجة الرجوع إلى الرؤساء ، رغم أنهم لا شك يرجعون ، ولكن مكالمة تليفونية تكفي لحل الإشكال في دقيقة . لقد نجحت الاشتراكية في يوجوسلافيا لأنك لا تحس بوجودها وهذا ما يسمونه التسيير الذاتي .

ومع ذلك فربما كانت هذه نظرة من الخارج ، فإذا اقتربت من الصورة قليلاً بدأت تتكشف لك عورات كتلك التي تركتها في مصر . ذهبت لأشتري بعض قطع غيار سيارة فباع لي المحل جزءاً منها بعد حديث طويل متقطع بينه وبين مترجمي لم أفهم منه حرفاً ، ولكني أحسست من لغة النظرات ومن تغيير درجات الصوت وكأنني أشتري ممنوعات أو مهربات . ثم أحالنا الرجل إلى الأجناس الرئيسي الذي يستورد قطع غيار أو بل لحساب الدولة فوجدت الطوابير التي تركتها في مصر والباعة ، يقولون للزبائن « مافيش » « مش موجود » « بعد شهرين » . وقالت نظرات البائعين لنا « مش موجود » قبل أن يفتح أحد فيه ، فلما فتح صاحبي فيه جاءه الجواب « مش موجود » . وأحسست أني في مصر . فحيث يتجاوز القطاع الخاص مع القطاع العام تنسرب السلع من العام إلى الخاص وتباع بسعر السوق السوداء ، وتكون بصورة آلية عصابات من الموظفين العموميين ، إداريين وفنيين ، للاتجار في سلع القطاع العام أو الارشاء فيها والسمسرة عليها مع التجار . وتصورت هذا المرض ضارباً في كل السلع الاستهلاكية المستوردة وفي كل السلع ذات الندرة ،

ربما كان هذا ثمن « تبسيط » الاشتراكية ، ثمن إلغاء البيروقراطية وحضور الدولة المستعمر : نهب القطاع الخاص للقطاع العام وخلق طبقة من السماسرة بدرجة مدير عام ، وبدخل صاحب كازينوفى شارع الهرم . شيان أحلاهما مر . فما العمل ؟ يبدو أن طريق الاشتراكية طویل كطريق الديمقراطية . وكما انتظرت لإنجلترا أو فرنسا مئات السنين قبل أن تتجاوز فيهما الأخلاق الديمقراطية وبعض المبادئ العامة التي ذهبت لمذهب المقدسات ، يجب أن تنتظر بعض البلاد قرناً كاملاً قبل أن يتجاوز فيها الإنسان الاشتراكي .

وفي يوجوسلافيا حركة قومية لجمع الدولار والعملات الصعبة بوجه عام ، تتجلى في انفتاح البلاد للسياح والخدمات السياحية التي بلغ حجم إيراداتها في العام الماضي (١٩٦٩) ٣٢٠ مليون دولار وارتفاع حجم الصادرات إلى نحو ١٥ بليون (ألف مليون) دولار (أى ثلاثة أمثال قيمة صادرات مصر) ، ٨٢٪ من المنتجات الصناعية و ١٨٪ من المنتجات الزراعية . ومع ذلك فهذه الأرقام ليست شيئاً مذكوراً في التجارة العالمية لأن صادرات يوجوسلافيا لا تمثل أكثر من ١٪ من التجارة العالمية . وقد كانت تجارة يوجوسلافيا الخارجية بعد الحرب مباشرة تقوم أساساً (بنسبة ٨٠ ٪) على اتفاقيات الدفع بالمقايضة مع دول الكتلة الشرقية ولكنها منذ ١٩٤٨ أى منذ اختلقت مع الاتحاد السوفييتي أخذت نحو التصدير بالعملات الحرة حتى استردت استقلالها الاقتصادي عن الكتلة الشرقية ، وقد سمعت أنها عدلت منذ يوليو الماضي عن التعامل — على الأقل في بعض

القطاعات - بالجنه الحسابى وهو التعبير المصرفى لنظام المقايضة وقررت ألا تتعامل إلا بالعملات الحرة . وما تعجز يوجوسلافيا عن تحصيله من الدولارات عن طريق التصدير تحاول أن تستكملة عن طريق الخدمات السياحية . فحامل الدولار هناك ملك .

ويكفى أن تذكر أن إيرادات السياحة من العملة الأجنبية تعادل نحو ربع أو خمس إيرادات يوجوسلافيا من صادراتها لتعرف مكانة السياحة فى تلك البلاد . وفى يوجوسلافيا الآن نحو نصف مليون سرير لا استقبال السياح فى الفنادق والبنسيونات والبيوت الخاصة ، وبها مطاعم يمكن أن تطعم مليوناً ونصف مليون شخص فى وقت واحد . وفى كل مكان محلات تجارية مخصصة للبيع بالعملات الحرة بأسعار مغرية لا صطياد الدولارات من السياح ، وعلى ساحل الأدرياتيك مستعمرات عراة ، قيل إنها لتنشيط السياحة ! (لا شك قد كتب عليها : ممنوع اللمس !) . وقد كان من نتائج ذلك كله أن مركز الدينار اليوجوسلافى قد قوى حتى كاد أن يصبح فى ثبات العملات الحرة .

وحين جاء وقت الرحيل إلى دوبروفنيك للاشتراك فى مهرجانها الحادى والعشرين تصفحت الكتالوج فوجدتهم يقدمون باليوجوسلافية مسرحيات « يوليوس قيصر » لشكسبير و « أوديب ملكاً » لسوفوكليس و « طرطوف » لموليير وثلاث مسرحيات يوجوسلافية هى « العشاق » مؤلف مجهول و « العم مارويا » لدرجيتش و « البخيل » لدرجيتش كذلك و « ثلاثية دوبروفنيك » لفوينوفيتش ، وهى أسماء لا تعنى شيئاً للقارىء

العربي لأننا لا نعرف شيئاً عن الأدب اليوجوسلافي . أما في باب الموسيقى والغناء والباليه فقد كان البرنامج أكثر خصوبة فقد كانوا يقدمون : « صلاة المساء للقديسة العذراء » لاونتفيردي ، وكوكيتيل من سكارلاتي وبيتهوفن وبروكوفيف وليست و « جان دارك على المحرقة » لونييجر وأوبرا « فيديليو » لبيتهوفن و « بحيرة البجع » لتشايكوفسكي و « الخليقة » لهايدن و « المسيح » لماندل و « روميو وجولييت » لبرليوز وكوكيتيلات من باخ وفيفا لمدى وبريتن وفورشاك وروسييني وشوبرت وشتراوس . إلخ . الخ . ثم جملة فرق للرقص الشعبي اليوجوسلافي .

وفي مطار دوبرفنيك تكررت نفس المهزلة التي جرت في مطار بلجراد أكد لي مرافقي في بلجراد أنني بمجرد نزولي من الطائرة في دوبرفنيك سأجد فيها مرافقاً آخر في انتظاري يلأزمي خلال المهرجان . ولم أجد أحداً في المطار .

وفكرت في العودة من حيث جئت ولكنني ضغطت على نفسي وقررت أن أعتمد على نفسي ولو بلغة الإشارة . وبعد أن بلغت المدينة نزلت في فندق بشارع الماريشال تيتو ثم اتجهت إلى مكتب المهرجان . قالت لي إحدى المنظمات معذرة : « لقد انتظرتك ساعتين هذا الصباح في المطار . يبدو أن خطأ ما حدث » . فلم أعاق . وحين خرجت مع مرافقي لأتعرّف على المدينة قال المرافق معذراً : « قيل لنا إنك ستصل بطائرة بعد الظهر ولهذا لم أنتظرك في المطار » .

ولم أعلق ، ولكنني تحققت من أن هؤلاء القوم يحلون الأخطاء بالفهاوة

بدلاً من المواجهة — شىء مألوف لنا فى مصر — وهو أمر يندر أن تجده فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، حتى بين طبقات أقل استنارة وأقل شأناً، قلت لمسئول يوجوسلافى : يبدو أنكم لستم خيراً منا فى الفوضى وقلة التنظيم . فأجاب : ربما، ولكنى أعتقد أن هذه الفوضى مقصودة ، ومقصود كل ما صادفت من متاعب وكذلك أوكاندات الدرجة الثانية التى حجزوها لك واختفاء المرافقين أكثر اليوم بحجة المشغولية . لقد كانت تعليمات إدارة المهرجان أن تستقبل كما يستقبل ايفانادريتش فى مصر . هذه الفوضى رتبها مدير يهودى يوجوسلافى فى العلاقات الثقافية اسمه اوتودينتس للإساءة بين البلدين . لقد فعل نفس الشىء مع الفنان سيف وانلى حين نزل يوجوسلافيا ، وهو يرتب كل شىء من خلال الغير فلا تستطيع أن تؤاخذ شخصياً . حتى عدم ترتيب لقاءات بينك وبين كبار الكتاب مقصود ومدرس ، فقد كان كثيرون منهم على بعد خطوتين منك فى بلجراد وفى دوبروفنيك . حتى مستوى المرافقين : كان ينبغى أن يخصصوا لصحبتك أحد الأدباء المعروفين لا مجرد موظفين .

فليكن . هذه إذن دوبروفنيك عروس الأدرياتيكا الثانية بعد فينسيا ، وأجمل بلد فى يوجوسلافيا . وأخذ مرافقى الشاب يشرح لى تاريخ المدينة . قلت : أعرفه . لقد كان اسمها راجوزا أيام اليونان والرومان . قرأت عنها فى كتاب جيبون عن « تصدع الإمبراطورية الرومانية وانهارها » فقد زارها الإمبراطور القاسى المتعالى دقلديانوس ، الذى تنازل عن عرشه فى أوج مجده ، ثم حكمها بيزنطة ، وفى العصور الوسطى حكمها البندقية

سم الحجر ، وأخيراً حكمها الباب العالي حتى ١٨٠٨ حين استولى عليها نابليون وضمها إلى الليريا ، وبعد سقوط نابليون في ١٨١٤ آلت هذه المدينة التاريخية إلى حكم الإمبراطورية النمساوية طوال القرن التاسع عشر وبعض القرن العشرين حتى ولدت جمهورية يوجوسلافيا . وقد كانت دوبروفنيك أو راجوزا القديمة طوال العصور الوسطى « جمهورية » أو مدينة دولة على غرار المدن التجارية الشهيرة في ذلك الزمان كالبندقية وفلورنسا وفيرارا وفيرونا ، واحتفظت بكيانها الجمهوري سواء في عهود استقلالها أو تبعيتها . ولكن دوبروفنيك كانت أكثر من جمهورية أو دولة تجارية ، فهي موقع حربي خطير ، أو مجموعة من الحصون والاستحكامات البحرية أقيمت تحت جبل محصن على مساحة لا تتجاوز خمسة كيلومترات مربعة . والمدينة ذاتها بنيت داخل هذه الاستحكامات والحصون .

وحيث مر دقلديانوس ذو المذابح الكثيرة ، العبد الذي أصبح إمبراطوراً للرومان ونقل عاصمة إمبراطوريتهم إلى المشرق ، وقفت ساهماً أستعرض ما قرأته في جيبون عن هذه الشخصية الممغزة في تاريخ الرومان وهو الذي روى عنه الرواة أنه استعلى ليهر وأنه كان أول من استحدث في بلاط الرومان فخامة ملوك الشرق ، فاشتهر بطياله الموشاة بالذهب والفضة وبنعاله المرصعة بكريم الجواهر ، وكان المثول بين يديه يزداد مشقة مع الأيام ، بعد أن ملأ بلاطه بالحجاب وبطقوس البروتوكول وملأ شعاب قصره بالحرس الإمبراطوري ومقاصير حريمه بالحصيان

الرايضين كالفهود ، فإن مثل بين يديه واحد من رعيته مهما علا قدره أُلزم بالسجود أمام حضرته وكأنه في حضرة إله . ثم ترك دقلديانوس كل ذلك المجد العظيم باختياره واعتزل العرش والملا وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن جلس إحدى وعشرين سنة ، فلم يعرف له التاريخ صنوا غير الإمبراطور شرلكان . وكان في معتكفه يتأمل جرائمه العديدة ويردد نادماً أو شبه نادم : « ما أكثر ما يحدث أن يلتقي أربعة أو خمسة وزراء في المصلحة فيتفقوا على خداع مليكهم ! فلأنه يعيش في عزلة عن البشر بحكم هيئته الرفيعة ، تراهم يخفون عنه الحقيقة ، فهو لا يرى إلا بعيونهم ولا يسمع إلا أضاليلهم . ولذا فهو يمنح أسمى الوظائف لأهل الرذيلة والضعف ، وهو ينكل بأشرف رعاياه وأعظمهم استحقاقاً . وهكذا يتردى أكرم الملوكة وأرجحهم عقلاً بسبب فساد بلاطهم وأشعبية حاشيتهم » .

وسألت صاحبي عن زاردوبروفنيك من الأدباء والفنانين في عصرها الحديث ، أى منذ بدأ مهرجانها السنوى في ١٩٥٠ ، فأجهد ذاكرته كثيراً ولم يذكر لى إلا هربرت فون كارايان وباربيروللى وماريو روسى وإيزاك شتيرن ثم كتية لا بأس بها من فنانى الصف الثانى . أما الفرق الموسيقية العالمية فلم يذكر لى منها إلا أوركسترا برلين السيمفونى وفيلهارمونية هوسكو . ولم أكن أسأل صاحبي ومنظمى المهرجان هذه الأسئلة اعتباطاً ، فقد لاحظت رغم النشاط الفنى والأدبى الشديد كل ليلة أن مئات الآلاف من الزوار الوافدين من أطراف الأرض المتجولين نهائراً وليلاً في أودية المصطافين

قد أعطوا للمكان شخصية المصيف وطبعوا كل شيء بطابع السياح .
لقد أحسست في لحظات أن كل هذا « التياترو » المنصوب وسط الآثار
باسم مهرجان الفنون ليس إلا وسيلة لتنشيط السياحة ، وهو طبعاً
وسيلة نبيلة لغرض مشروع ، مثل حكاية مهرجان بعلبك ، وتمنيت
أن يكون للإسكندرية والأقصر ، مثل هذا المهرجان السنوى صيفاً
وشتاء . غير أن نوعية ضيوف المهرجان والمشاركين فيه يجب أن تعد رأياً فيه
وحكماً عليه من الفنانين والأدباء . بقعة من أجمل ما سوت يد الطبيعة
كان يمكن أن تكون عكاظ العالم ، ومع ذلك تحولت إلى كان أو نيس
أوميامي فلوريدا .

وعرضاً عرفت أن حدثاً جليلاً جرى في دوبروفنيك . قالوا لي إن أول
اجتماع عقده أدباء العالم المناهضة النازية عقده نادى القلم الدولى في
دوبروفنيك عام ١٩٣٤ ، وكان هـ. ج. ويلز بين الأدباء المشتركين .
قالوها باستخفاف وكأنها لا تعنى شيئاً ، أو كأن النازية التى حصدت
في بلادهم مليون قتيل غدت في أرض تيتو المناضل العظيم شيئاً من
أشياء الماضي البعيد لم تبق منه حتى الذكريات . وأنا ممن يعتقدون أن
النازية لم تمت ولن تموت حثيثاً ، لأن لها أرواحاً سبعة وأقعة سبعة ولذا
ينبغي أن نضع وروداً لا تذبل على كل شاهد لضحاياها أينما نزلت
دماؤهم عبرة وادكاراً .

قلت : أليكم سجل أو محاضر أو ثبت من أى نوع كان يدون



هذا الحادث الخطير ؟ قالوا : لا شئ لدينا . قالت : من حضر هذا المؤتمر وماذا قالوا ؟ هل مشى هنا أراجون أو توماس مان أو شباب الأدب الإنجليزي الحديث في الثلاثينيات ، أودن وسبندر وكريستوفر ايشروود ، وكل من زار بصوت راعد في وجه البربرية النازية قبل أن تكون النازية شيئاً مذكور ؟ قالوا لا علم لنا بشئ من هذا . مدينة كان على صدرها وسام شرف عظيم فخلعته وألقت به في سلال المهملات . قلت وأنى لى أن أجمع هذه الوثائق المنسية ؟ قال مرافقى : أستاذى الذى علمنى الأدب المقارن في جامعة زغرب ، واسمه هرجيشيتش ، كان حاضراً في المؤتمر وربما أعطاك بعض الخيوط . وطلبنا هرجيشيتش العجوز في زغرب بالتليفون وكلمته وكأنى أكلم شعباً من وراء القرون . ووعدنى الرجل أن يرسل لى على عنواني « بالأهرام » خطاباً بذكرياته عن كل ما كان . ولا زلت أنتظر الخطاب .

وأخذت أنتردد كل مساء على حفلات المهرجان ، وكان درساً لى أن أراقب المايسترو اليوجوسلافي الكبير لافروفون ماشاشيتش وهو يجرى حتى الثانية صباحاً تدريبات أوبرا « فيديليو » لبيتموفن في حيوية ابن الثلاثين رغم أنه قارب السبعين . وكان بلا جدوى أن أشهد المسرحيات باليوجوسلافية بلهلى باللغة فاكتفيت « بطراطوف » مولير . وأنصت لقراءات بالألمانية من أدب بريخت في الدعوة للسلام قدمتها هيلين فايجل ، أرملة بريخت ، واثنان من ممثلى مسرح « البزليز انساميل » ، وتواعدت معها على لقاء في برلين ، وركزت على عروض الرقص الفولكورى

اليوجوسلافى الذى قدمته فرقة « تانتز » . وكنت قد رأيتها فى نيويورك ثم فى القاهرة من بعد فوجدت أنها لم تضاف جديداً .

وحين التقيت بتوماليوف مدير فرقة « تانتز » للترتص الشعبى اليوجوسلافى - وهى تقابل فرقة رضا عندنا - وجدها مناسبة لأن أناقشه فى المبادئ التى تقوم عليها حركة الفولكلور فى يوجوسلافيا ولا سيما أنه من كبار المنظمين والمستغلين لهذه الحركة فى بلاده وخارج بلاده . فقد سبق أن شاهدت عروض فرقة « تانتز » مرتين . مرة فى نيويورك سنة ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ لا أذكر بالتحديد فى قاعة كارنيجى الشهيرة التى كان الأمريكيون لا يعطونها عادة إلا للحفلات « الكلاسيك » ثم تنازوا وأعطوها للمطربة الفرنسية الكبيرة إيديت بياف ثم للفرقة « تانتز » هذه . وكان للفرقة دوى شديد . ثم مرة منذ سنتين فى أوبرا القاهرة ، وكان انطباعى واحداً فى الحالين : إن هذا اللون من الفن الشعبى سوف يدخل حتماً فى طريق مسدود لأنه محدود فى تقاليده . محدود فى إمكانياته الفنية ، مالم يتم التلاحم الحقيقى بين العبقرية الفردية وروح الجماعة . ولا أستبعد أن بعض الروس يتوهمون أن هذا حدث بالفعل فى بلادهم : ولكنى بعد أن رأيت عروض فرقة موسييف للرقص الشعبى خرجت بنفس الانطباع ، وثيقنت من أن حركة الرقص الفلكورى فى العالم ، أى تحويل التعبير التلقائى الجماعى عن النفس إلى فن موضوعى يعرض على الغير ، لا يزال وليداً يجهو ، وبالذات لأنه وليد يجهو فهو على الصراخ والضجيج .

وعرفت من توما ليوف أن الرقص الفولكلورى اليوجوسلافى بدأ
 كحركة استعراضية منظمة فى ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة كاتجاه لإحياء
 التاريخ والجغرافيا عند السلافيين الجنوبيين ، وخرج منه كوكبيل من
 القومية التى تتمثل فى تمجيد الروح السلافية الجنوبية ومن الاشتراكية
 التى تتمثل فى تمجيد التعبير الشعبى الجماعى فى فن الرقص . وقد كان
 هناك بعض الحتمية فى هذه الحركة لأن يوجوسلافيا كما اعترف ليوف بلد
 صغير حديث لا يملك نراثاً كلاسيكياً كبيراً يمكن استلهامه . ولذلك
 كان استلهام الفنون الشعبية هو البديل الطبيعى لاستلهام التراث . ونظراً
 لتعدد القوميات داخل يوجوسلافيا لم يكن بد من أن تحتفى حركة الرقص
 الشعبى بالرقص الشعبى فى مختلف القوميات اليوجوسلافية . وقد كان
 السؤال الطبيعى فى هذا المجال : ألا يؤدي التعدد فى التعبير الفنى الإقليمى
 كتعدد اللغات والثقافات ، إلى إنباء القومية اليوجوسلافية ، لأنه يؤكد
 الفوارق فى الثقافة والتعبير الفنى بين المبتدئين مثلاً والهرب والكروات
 إلخ . . ولكن توما ليوف أجاب على هذا بقوله : إن الشخصية السلافية
 تجمعنا جميعاً واختلاف الإيقاع لا يضر بل ينفع لأنه يزيد معرفتنا المتدفقة
 بالصربى والكرواتي بآبناء البوسنة والهرسك ويزيد احترام هذه الثقافات
 بعضها للبعض الآخر . إنما الضرر فى اضطهاد إحدى الثقافات القومية
 لغيرها من الثقافات القومية . قامت : المشكلة عندى هى أن الكلاسيكية قد
 تكون مرضاً طبعياً والفولكلور قد يكون مرضاً قومياً ، فتمجيد التراث قد
 يقترن أحياناً بتمجيد « الصفوة » القادرة عليه المنتجة والمستهلكة له ،

وتمجيد « روح الجماعة » قد يؤدي إلى تقديس الجنس في ذاته وتأليه قدراته الفطرية بنقض النظر عن مستواه الحضارى . واعترف ليوف بذلك ، ولكن حجبته كانت أن الكلاسيكية تقتل التناقضية والحساسية الطبيعية وتنهى بفقدان الشخصية باسم العالمية وباسم الحفاظ على تراث الإنسانية . وهو يعترف حقاً بأن التعبير الشعبى خليط من النبل ومن الانحطاط ومن الحكمة الفطرية ومن الجهالات الفطرية ومن التعبير العميق ومن السفاسف والسخافات ، ولكن الأمل عنده هو فى العبقرية الفردية عند الكوريوجراف (مصمم الرقص ومبدعه) أو عند الموسيقار الذى يستلهم الوجدان الشعبى ويصنفى تهره من تراثه ويصوغ منه فنّاً عظيماً ، فسقراط يونانى ولكن ليس كل اليونان سقراطاً . ونهبت توماليوف أنه بهذا الكلام يعود إلى المأزق الذى حاول أن يخرج منه . فإن الاعتماد على عبقرية المبدع الفرد سوف تخرج الفولكلور عن فولكلوريته وتلذيب روح الجماعة فى روح الفرد وتسعى بنا إلى كلاسيكية جديدة هى فى حقيقتها من صنع الصفوة لا من صنع الشعب . واعترف ليوف بذلك ولكنه أجاب : الأمل إذن هو أن يصبح الشعب نفسه موضوعاً لعبقرية المبدع الفرد ، وأن يصبح الشعب بطل هذه الكلاسيكية الجديدة بدلا من الأبطال الأفراد .

كان كل هذا الكلام كلاماً جميلاً فى حدود المناقشة النظرية ، ولكن ملاحظتى عليه فى التطبيق هى أنه رغم مرور ٣٥ سنة على هذه الاندفاع نحو تمجيد الرقص الفولكلورى وتحويله إلى فن استهلاكى بعد أن

كان مجرد فن تعبيرى ، فإن الرقص الفولكلورى قد تجدد ولم يتجدد سواء فى يوجوسلافيا أو فى غيرها من البلاد لأن شيئاً ما فى روح الجماعة قد هزم المبدع الفرد ، فلعبة السيف المقدونية لا تزال بعد ثلاثين عاماً هى لعبة السيف المقدونية وطقوس الفرح الجماعى فى احتفالات الحصاد أو فى احتفالات الزواج لم تتغير على المسرح كثيراً رغم مرور السنين لأنها لم تتغير فى الحياة ، وكل ما حدث هو أن الرقص الفولكلورى اليوجوسلافى قد غدا سلعة سياحية عظيمة تصدرها يوجوسلافيا إلى عوالم العالم فى أزيائه الوطنية أو تستقدم العالم لرؤيته فى دوبروفنيك ، وحيث السياحة يوضع الفن فى خدمة الدولار .

أربعة أيام قضيتها فى دوبروفنيك، أخذت فيها شيئاً من جمال الفن وشيئاً من جمال الطبيعة، وعدت أدراجى إلى بلجراد لأتأهب لرحلتى الروسية .



الفصل الثالث

مأساة يوجوسلافية

وملهاة روسية

حدثني سفيرنا في بلجراه ، يحيى عبد القادر ، قال : « لا تحكم على اليوجوسلافيين بما تراه في بلجراه وحدها ، فأكثر السكان هنا من الصرب ، ولكل قومية يوجوسلافية مستواها الحضارى الذى يميزها عن غيرها ، فأرقى اليوجوسلاف هم أهل سلوفينيا فى الشمال ، ويليهم فى الرقى أهل كرواتيا ويليهم أهل صربيا . . إلخ ، ومن أكثرهم تخلفا أهل البوسنة والهرسك ومقدونيا والجبل الأسود . وربما كان الألبان فى المؤخرة . قاعدة عامة تحكم التقدم والتخلف بين قوميات يوجوسلافيا : المناطق التى حكمتها الإمبراطورية النمساوية أو المجر هى المناطق المتقدمة ، والمناطق التى حكمتها الإمبراطورية العثمانية هى المناطق المتخلفة ، وكأما كانت التبعية للترك أقوى وأطول كان التخلف أعمق وأوضح » .

وبعد العشاء انصرفت أفكر فى تاريخ هذا الشعب الغريب ، سلاف الجنوب ، الذى فقد استقلاله وسقطت كل معاقله فى يد الترك قبل^٦

عام ١٤٠٠ ولم يجمع أشاتاته الممزقة ويسترد وحدته إلا منذ ١٩١٨ .
 وكلما استفسرت أو تطلعت في وجوه الناس وتأملت حديثهم وساوكتهم
 تأكدت من معنى واحد وهو أن جذوة الوطنية ظلت متقدة فيهم تحت
 الرمد طوال هذه المأساة التي استغرقت خمسة قرون . وحين جاءني
 ملحمتهم الوطنية واسمها « ماركو » ، وهي موال قصصى نظمها شاعر
 مجهول في نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وترجمته لى بالإنجليزية الشاعرة
 الكرواتية فيسناكريميوتيتش ، أحسست بروح الشعب اليوجوسلافي
 تتجول حزينة وقوية من وراء القرون ، على لسان المنشد ذى الربابة
 يتجول بين القرى فى الجبال والوديان يذكر بنى قومه بقصة ضياعهم
 العظيم بعد مجدهم العظيم .

فقد كانت لهم دولة كبرى قبل أن ينجى الترك ، دولة تضم أكثر البلقان ،
 تساليا وابيروس وألبانيا ومقدونيا والصرب والبوسنة . وكان لهم إمبراطور عظيم
 حكيم اسمه دوشان ، كان قيصر زمانه ومشرع عصره وأوانه . فاما توفى
 الملك دوشان لم يكن ولده الأمير الشاب أوروش قد بلغ الثامنة عشرة
 بعد . وتنازع إخوته الثلاثة فيمن يخلفه فى عرشه ، فطعنوا فى نسب الأمير
 الصغير أوروش ، وادعى كل الحق لنفسه :

أربع خيام التقت

على سهل كوسوفو الجميل

يجوار كنيسة سانودريا البيضاء :

فى الخيمة الأولى كان الملك فوكاشين
وفى الخيمة الثانية كان السلطان أوجليشا
وفى الخيمة الثالثة كان الدوق جويكو
أما الرابعة فكانت خيمة الأمير الصغير اوروش .
أربعة ملوك اقتتلوا على المملكة كل يريد الفتك بأخيه
بخنجر ذهبى يطعنه .

لا يعرفون من صاحب الصولجان .

كان الأمير الصغير يسمع ويتعجب لأنه ولى العهد الشرعى .
وفى الخفاء أوفد كل رسوله الخاص إلى مدينة بريرين . حيث يقيم البطريق ،
ليفتى لهم من منهم صاحب الصولجان . وكان البطريق شيخاً صالحاً عارفاً
بالأنساب وبكتب القدماء ، وبأغ الرسل الأربعة المدينة فى الصباح .
وجدوا البطريق يقيم القداس فى الكنيسة . فلم يترجوا بل اقتحموا
بخیلهم حرم الكنيسة وضربوا البطريق بالسياط وأمره أن يصحبهم
إلى كوسوفوليحسم الأمر وفقاً لأوصية الملك الراحل دوشان . وجرت دموع
البطريق على خديه واستمهلهم حتى يفرغ من واجبه نخور به . وحين
فرغ من الصلاة تقدم نحوهم قائلاً إنه لم يسأل الملك دوشان وهو
يناوله الأسرار المقدسة على فراش الموت لمن يكون الملك من
بعده ، ولكن سأله ماذا كانت ذنوبه ومعاصيه عند الله . وأوفدهم
البطريق إلى مدينة بريابوب حيث قلعة الأمير البطل ماركوذى البأس
العظيم ، تابع الملك الأمين الذى لا يقول إلا الحق ولا يخاف إلا الله ،

رغم أنه ابن أحد الملوك المتنازعين ، وهو الملك فوكاشين ليدعوه إلى كوسوفو فيحسم الأمر بين الملوك الأربعة . ويتجه الرسل الأربعة إلى مدينة بريايوب ويعرفون الأمير ماركو بمساعدهم ، وحين يطاع الأمير ماركو أمه الجلييلة بفروسيا على ماجرى وما يجرى تهيب الأم الجلييلة بولدها قائلة :

أى ماركو ، يا ولد أمك الوحيد !
إياك أن تجعل جرحى لعنة عليك
ولكن يابنى لا تنطق بكلمة ضلال
لا تستمع لحق الأبوة ولا لحق العمومة
بل لصوت العدل ، عدل الله رب الحق .
إياك يا ولدى أن تفقد روحك
فأخير أن يفقد المرء رأسه من أن يجر على روحه الخطيئة .

وينخرج الأمير ماركو على صهوة جواده إلى كوسوفو حاملا كتاب أنساب الملوك وحين يقترب من الخيام الأربع يراه أبوه الملك فوكاشين ، فيتهلل الأب فرحاً حاسباً أن ولده قد جاء لينحاز له ويسلمه تاج المملكة . ولكن الأمير ماركو يتخطى خيمة أبيه دون أن يلتفت إليه . وحين يمر ماركو على عميه ، يحاول كل منهما إفساد ضميره ، ولكن ماركو يزور عنهما حتى يبلغ خيمة الأمير الصغير أورش ولى العهد ابن الملك الراحل دوشان ويقضى اليوم فى خيمته . وفى اليوم التالى - يوم التحكيم - يجتمع الأمراء والنبلاء والفرسان ويتوجهون للصلاة فى الكنيسة ثم يخرجون المأدبة العظيمة ويشربون البيراندى فى انتظار القرار الأخير . ويقف

ماركو بينهم خطيباً وفي يده كتاب الأنساب ، ويؤنب أباه وعميه على جشعهم العظيم ، فلكل منهم ولايته وهو يذاع في ما في يده الغير . وياتي عليهم لعنته أن تصير ديارهم خراباً يباباً جزاء لهم على جشعهم ، ويعلن أن التاج تاج الأمير أورووش ، بحق النسب المقدس .

وعندما سمع ذلك الملك فوكاشين

ذهب واقفاً على قدميه

واستل خنجره الذهبي

ليطعن ولده ماركو حتى الموت

وجرى ماركو ليعاشي أباه

لأنه لا يحق يا رفيقي

أن يقتل ابن مع أبيه

واندفع ماركو إلى الكنيسة وأبوه يطارده شاهراً خنجره . وسمع ماركو نداء من الكنيسة يقول : « ادخل الحرم أيها الأمير ماركو ! لسوف تهلك اليوم ، تهلك بيد أبيك ، تهلك في سبيل العدل ، عادل رب الحق » وانفتحت أبواب الكنيسة ، ودخل ماركو ، وانغلقت من ورائه الأبواب . وهجم الملك فوكاشين على الباب وطعنه بخنجره ، فإذا دماء انهمرت من الواحه مدراً . وأدرك الأب أنه قتل ولده ، فذهب ينوح في ندم ، ولكن صوتاً جاءه من الداخل يقول : « اسمع أيها الملك فوكاشين ! أنت ما قتلت ولداً ولكنك قتلت ملاك الله ! »

وهكذا حلت اللعنة على هذه المملكة العظيمة فصارت خراباً يباباً

غزتها جحافل الترك في كل مكان وأشاعت فيها النار والدمار . وفي ١٣٨٩ على سهول كوسوفو سقط زهرة فرسان الصرب ونبلاتها ، سقطوا عن بكرة أبيهم . وفي هذه المعركة الفاصلة سقط أيضاً السلطان مراد الأول ، وكان أورووش آخر ملوك الصرب الذين فقدوا استقلالهم أكثر من خمسة قرون جزاء لهم على انقسامهم وتمزقهم .

وهكذا كانت مأساة أمة محاربة محبة للحرية كما دونتها أشعار الشعراء الجهاديين . قصة اختلط فيها الرمز بالحقيقة والخيال بالتاريخ ، وعبر خمسة قرون غناها الشعراء الجوالون البسطاء على أنغام الرابطة فأذكوا بها حب الوطن في قلوب الصربيين . والدرس الذي تعلمه جميع اليوجوسلاف هو أن التفرق لا جزاء له إلا العبودية والضياع والآن ننتقل من المأساة اليوجوسلافية إلى الملهة الروسية .

* * *

قبل أن أبدأ رحلتي الروسية بأسبوعين أو ثلاثة أبرق الرفيق كوميساروف الملحق الثقافي للسفارة السوفيتية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية بموسكو يطلب لي تأشيرة دخول للاتحاد السوفيتي راجياً إرسال الإذن بالتأشيرة إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة حتى ١٥ يوليو أو إرساله إلى السفارة السوفيتية بلجراد في الأيام العشرة التالية وفقاً لبرنامج رحلتي .

ولم يرد الإذن بالتأشيرة الروسية حتى تاريخ سفرى من القاهرة . وما إن نزلت بلجراد حتى اتصلت بالسفارة السوفيتية هناك لأستفسر

عن التأشيرة فعرفت أنها لم ترد بـ«د» . وتعرفت على الرفيق أنا تولى ستيبانيوك
قنصل روسيا في بلجراد ، فوجده رجلًا ربة ذكيا مرحاً متدفقا لبقا
يشبه في خلقته وفي طباعه الروائي الإنجليزى الكبير لورانس داريل
صاحب « رباعية الإسكندرية » فكأنهما توأمان . وسخا ستيبانيوك
في الترحيب بى وكأنه يرحب بـ«جريدة « الأهرام » نفسها وأعجب ما فى
الأمر أنى وجدت نفسى بعددتيقتين أحاده وكأنى أعرفه من عشر سنوات ،
واستوقف انتباهى أنه ، رغم عمله فى بلجراد ورغم أنه لم يقيم فى القاهرة ،
كان يعرف مصر معرفة خبير . . لم يكن يتحدث عن هرم خوفو أو
متاحف مصر أو نخان الخليل أو الموقف المصرى - الإسرائيلى أو أى
شئ . يمكن أن يعرفه المرء من الكتب أو من الصحف الأجنبية ، ولكن
كان يحدثنى عن الاتحاد الاشتراكى ، ويدكر أسماء شخصيات فى المناصب
العامة ، وما جرى عليها من تغييرات . قال ستيبانيوك لا شك أن التأشيرة
ستأتى غداً .

ولم تأت التأشيرة غداً . . قال ستيبانيوك : إذن ستأتى غداً بغير شك
سأستعجلها بـ«المرافق» لوزارة الخارجية . . ولم تأت التأشيرة بعد غد . قلت
لاستيبانيوك : سأسألك إلى دوبروفنيك وسأصل بك من هناك بعد أيام .
وبعد أربعة أيام اتصلت من دوبروفنيك بالسفارة الروسية فى بلجراد .
وعرفت من استيبانيوك أن التأشيرة لم تصل بعد . وبدأت أخوف ، وقررت
أن أقطع إقامتى فى دوبروفنيك وأعود فوراً إلى بلجراد لمواجهة الموقف
الجديد . لقد استنفدت زيارتى اليوجوسلافية أغراضها أو أوشكت ،

وبعد ستة أيام أحسست بأنى لن أحصل بسهولة من يوجوسلافيا أكثر كثيراً مما حصلت وأن كل بقاء فيها أطول من الأيام العشرة المقررة سوف يكون مضيعة للوقت .

وفى اليوم السابع اتصلت بالسفارة الروسية من جديد . لا خبر عن التأشيرة .. قلت للقنصل : اسمع يا صديقى الطيب . أنا لم آت إلى أوربا لأصيف ، وإنما جئت فى عمل « للأهرام » ولادة شهر فقط . جئت لأجمع مادة لقرائى . وإذا لم أستطع جمعها من روسيا فسأبحث عن هذه المادة فى غيرهما من البلاد . إذا لم تصل التأشيرة غداً صباحاً فسأغير وجهى وأسافر إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا بدلاً من روسيا . فمن غير المأمول أن أقطع رحلتى أو أن أقول لقرائى بعد شهر : آسف ، أنا لم أر شيئاً فى رحلتى هذه المرة لأنى كنت أنتظر التأشيرة الروسية فى صالون فندق سلافيا .

وبدا الحرج الشديد على أنا تولى ستيمانيوك . وعاد يؤكد لى أن التأشيرة ستصل لا محالة . وأبدى معى استغرابه من تأخر التأشيرة ثلاثة أسابيع رغم تكرر البرقيات من القاهرة وبلجراد، وأضاف : لابد أنهم يعدون العدة لاستقبالك رسمياً فى اتحاد الكتاب وأن هذا سبب التأخير .. قلت : أنا لا أريد أن أستقبل رسمياً فى اتحاد الكتاب . أنا لست مدعواً من أحد وإن أنزل ضيفاً على أحد . إن « الأهرام » أعطانى من الدولارات ما يكفى لإقامتى فى موسكو ولننجراد وأعطانى أيضاً تذاكر العليارة . افترض يا أخى أنى سائح . هل روسيا مفتوحة أو مغلقة فى وجه السياح ؟

قال استيبانيوك : مفتوحه طبعاً . لو أنك قات ذلك منذ البداية لأعطيتك التأشيرة في عشر دقائق ، قلت : ولماذا لا تعطيني إياها الآن . قال : يجب أن تحجز غرفة في لوكاندة أولاً . وبعد هذا لن تكون هناك عقبات ، قلت : غدا صباحاً ، إذا لم تصل التأشيرة ، فسأجرى هذه الترتيبات . قال : اتفقنا .

وفي اليوم التالي (الثامن) اتصلت بالسفارة الروسية . لاخبر عن التأشيرة وخرجت لفورى إلى مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى الذى يرتب مثل هذه الأمور . وحجزت غرفة في أحد فنادق الدرجة الأولى . دفعت الدولارات المطلوبة . وأعطيني إيصالاً . سألت : وما اسم الفندق ؟ قالوا لا نعرف بعد : ربما روسيا أو مينسك أو المتروبول أو أوكرايينا أو لننجراد سكايا . عندما تنزل في مطار موسكو تقدم هذا الإيصال إلى مكتب السياحة السوفيتي ، واسمه أنتوريست ، وهذا المكتب هو الذى يجد لك المكان الخالى في الفندق . إنه الهيئة السياحية التابعة للدولة وهو الذى يحدد لكل سائح الفندق الذى سيستقبله بحسب الغرف الشاغرة .

وذهبت فرحاً إلى القنصل الروسى . وقلت : هات التأشيرة . هذا هو الإيصال الذى طلبته وهو يثبت أنى حجزت مكاناً في أحد فنادق موسكو فأخذ استيبانيوك منى الإيصال وأخذ يتمعنه ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى . وبعد مناقشة دامت دقائق لم أفهم منها حرفاً التفت إلى وقال : متأسف ، ولكن لا بد من انتظار الرد من هيئة السياحة بموسكو (الانتوريست) على برقية هيئة السياحة المركزية .

(سنتر وتوريست) ببلجراد ، ردًا يفيد أنهم وجدوا لك غرفة خالية في أحد فنادق موسكو . لن تنتظر أكثر من ٢٤ أو ٤٨ ساعة .

وخرجت أسفًا . وقد عقدت العزم على العدول عن رسالتى الروسية . وقصصت إلى هيئة السياحة اليوجوسلافية لألغى الحجز وأسترد دولاراتى . وكانوا كرامًا . فأخذوا إيصالهم وسلمونى الدولارات فى ثلاث دقائق . وحين سألتهم كم من الوقت يستغرق الرد عادة على برقيات الحجز . أجابوا : أنت وحظك من ٢٤ ساعة إلى ثلاثة أسابيع .

وخرجت على عجل إلى السفارة الإيطالية فحصلت منها على تأشيرة دخول إيطالية فى خمس دقائق . ثم توجهت إلى السفارة البريطانية ، وفى خمس دقائق أخذت التأشيرة البريطانية وقد اتممت التوصل البريطانى فى بلجراد أن يستقبلنى ويلغو معى نحو نصف ساعة مسبقًا ، وعرفت منه أنه كان أحد الضباط الذين نزلوا بور سعيد أيام العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ . قال : فى الواقع أنا مدين بخيالى لنائب محافظ بورسعيد . فقد وقعت فى يد الجماهير وكادت أن تقتلك . ولولا نائب المحافظ لكنت الآن فى خبر كان . لكم تمنيت أن أشكره على هذا الصنيع . وجرنا هذا إلى الكلام فى السياسة المصرية الإنجليزية وكان يرى أن إنجلترا حاولت أن تفعل بعض الخير فى مصر . قالت : نحن المصريين كان يسوءنا فى إنجلترا ، وهى بلد الديمقراطية . أنها كانت دائماً تعرقل نمو الديمقراطية المصرية بانحيازها الدائم إلى الملك واباشوات والحكومات الدكتاتورية ، بحجة أن الديمقراطية الإنجليزية غير قابلة للتصدير .

قال القنصل البريطاني : هذه سنة الحياة وهذه مسؤولية كل بلدنا شيء
تحرر حديثاً . إنه شيء كالأموثة . إن المرأة حين تنجب طفلها الأول
تجد نفسها في مواجهة هذا الوليد بغير عون ولا تلقين إلا ما توحى به
غريزتها وما تتعامله بالممارسة . تجربة شاقة أن يعلم الإنسان نفسه ولكن لا
مفر منها . ووجدت نوعاً من الحكمة في ذلك على إطلاقه . ولكنني عدت
فذكرته بأن الاستعمار كالغول المتربص ليلتهم كل وليد . أجاب القنصل
الحكيم : وهذا أيضاً جزء من التجربة . أن تلهم فطرة الأمومة الأم
أن تحمي أولادها من الغيلان . ثم عرجت على السفارة الفرنسية وحصلت
على التأشيرة الفرنسية في خمس دقائق .

وبعد أن فرغت من جمع التأشيرات الغربية على جواز سفرى قصدت
إلى شركة الطيران العربية المتحدة . وأعاننى مديرها الاستاذ مصطفى
عبد الله على استبدال تذكر سفرى الروسية إلى روما ولندن وباريس
ثم أبرقت إلى الأستاذ هيكل عن طريق ا. ش . الأبلغة بتغيير برنامج
رحلتى وأبرقت إلى معارفى في غرب أوروبا بقدوى . وهكذا انتهى كل شيء
في يوم واحد . انهارت أحلامى الروسية وأنا موزع بين الأسف والامتعاض
والتوجس والحزن على فرصة العمر

ولكن بقيت في ضميمى بعض الألغاز التى حرت في فهمها .
فتحن والروس أصدقاء تربطنا اليوم آصرة كفاح عظيم ، ولم أفهم أن
يختار الروس هذا الوقت بالذات ليؤجوا تأشيرتى . وكنت أعرف عدداً
لا يحصى من زملائى في القلم ومن رجالات مصر ومن غيرهم يتجولون كل

يوم بين القاهرة وموسكو وكأنهم يتناولون بين القاهرة والاسكندرية .
فلماذا أنا بالذات يحال بيني وبين هذه التجربة الكبرى . ثم إنى أقرأ
كل يوم أن الاتحاد السوفيتى منذ انقشاع الاستالينية قد فتح حدوده لكل
الزائرين حتى من بلاد أعدائه .

وزاد من حيرتى أنى شخصياً ، ولتكنكم بصراحة ، بغض النظر عن
معتقداتى الشخصية ، لاقيت فى بلادى وفى غير بلادى فى مراحل
عديدة ومتعاقبة ، على امتداد عشرين عاماً ، عنتاً شديداً كلفنى أنا لقمة
عيشى وأنا حريتى وأمنى ، بل وما هو أخطر من هذا غير طريقي فى
الحياة وحولنى من أستاذ يعيش بين «أطلال» سبنسر ويتجول فى «فردوس»
ميلتون المفقود ويستمتع مع شلى إلى زمزمة الرياح الغربية ويسكن عاجى
الأبراج مع فرسان كيتس وسيدة شالوت إلى أديب صحفى يضيع وقته
وقت قرائه على أشياء علم الله أن أكثرها هباء وزبد يذهب جفاء .
كل هذا حدث لى لاعتقاد الكثيرين أنى شيوعى خطير وهو شرف لا
أدعيه وتهمة لا أنكرها . ولا شك أن الروس كغيرهم قد سمعوا بذلك .
ولم يبق أمانى إلا أن أنصوّر أن لى ملفاً سيئاً عند هؤلاء القوم جعلهم
يرددون طويلاً أمام اسمى لا يعرفون أيتسمون أم يتجهمون .

وعلى كل فقد بقى اللغز عندى بغير حل ، ولا يزال . وكان مصدر
راحة لى أن أستعرض تجاربى وتجارب الغير المسلية وغير المسلية مع حفاظ
الحدود فى كل بلاد العالم . ذكرت ماحدث لصديقى الدكتور على الجريتنى
حين نزل مطار نيويورك لأول مرة عام ١٩٤٦ فى طريقه إلى مؤتمر

بريتون وودز ، فقد استوقفه ضابط الجوازات وسأله هذا السؤال الغريب :
 « هل جئت إلى أمريكا لاغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ »
 (وكانوا قبل ذلك بشهرين قد عثروا على قبلة في البيت الأبيض دسها
 شاب من كوستاريكا) . وذكرت ما قاله لي ضابط الجوازات في ميناء
 نيويورك عندما وطئت أرض أمريكا لأول مرة عام ١٩٥١ في طريق
 إلى جامعة بريستون ، قال وهو يتفحص جواز سفرى « عمك محاضر في
 جامعة القاهرة . هل جئت لتحاضر في الشيوعية بجامعة برنستون ؟ »
 دعابات ثقيلة أكرم منها المنع الشامل ، فلخير أن يرد الضيف كريماً
 من أن يلقاك رب الدار في جهامة واسترابة .

ثم حدثت مفاجأة . في الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ،
 فوجئت بدق شديد متوالى الضربات على باب غرفتى بفندق سلافيا ،
 فهرعت وكنت لا أزال في بيجامتى ، إلى الباب لأعرف من الطارق
 وما الخبر . وإذا بى وجهها لوجه أمام قنصل روسيا فى بلجراد . وصاح
 أنا تولى ستيبانويوك عبر الباب قائلاً فى بشر عظيم : « يادكتور عوض .
 لقد وصلت تأشيرتك » . قلت : أولاً تفضل ثم قل لى ما الخبر . ودخل
 استيبانويوك الحجرة قائلاً : « ناولنى جواز سفرك . جاءتنا من موسكو
 أمس مساء برقية تقول إن اتحاد الكتاب فى انتظارك . هات الباسبور
 لأعطيك الفيزا ثم اتبعنى إلى السفارة . » قلت فى ارتباك : « ولكنى غيرت
 كل شىء ، غيرت التذاكر وحصلت أمس على التأشير لروما ولندن
 وباريس . . بل وأبرقت لرئيس تحرير الأهرام بأنى غيرت خط سيرى

وفتح الباب القنصلى وأدخلنى ثم أغلقه . وجالست أمامه أرقبه وهو يتم — إن هذا غير ممكن ، فلنترك رحلتى الروسية إلى فرصة أخرى » قال وقد بدا عليه حزن شديد : « لا . لا . سوف يحزنون فى اتحاد الكتاب إذا لم تزر الاتحاد السوفيتى . إنهم أعدوا كل شيء لكى تزور ما تريد ، لا بد أنها كانت غلطة من موظف صغير فى وزارة الخارجية أو فى اتحاد الكتاب أهمل البرقيات أو لم يقدر من تكون . إننى أعذر بحجارة . »

وكان استيانوك طبعاً يعتذر « للأهرام » لا لى . فهو صحفى قديم ويعرف معنى « الأهرام » ولعلنا عندما التقينا لم يكن سمع باسمى . ولكن صفتى كمحرر أدبى لجريدة « الأهرام » كانت تصادحنا وتوارتبا كاتبة السابقة .

وكان لا بد من اتخاذ قرار فورى . وحسبها بسرعة البرق : إن رفضى دخول الاتحاد السوفيتى بعد أن جاءتنى التأشيرة سوف يؤول على أنه وقف ، وأنا جئت لأتعلم لا لأتخذ مواقف . ثم إنى لست وحدى فى هذا . فهناك أيضاً جريدتى .

وسلمته جواز سفرى فى استسلام . وهول به إلى السفارة الروسية التى كانت على مسيرة خمس دقائق . وفى دقيقتين كنت فى بلدتى . وفى لحظة صبيانية أصيبت برعب شديد على جواز سفرى أن يحدث له شيء ، فأنت خارج بلادك بلا جواز سفر رجل فقد دليل وجوده . وبلغت للسفارة فوجدتها لا تزال مغلقة . لقد كانت الساعة السابعة والربع . ودرت حول السور فرأيت من خلال زجاج النافذة صاحبى أناطول ستيمانوك مكباً على مكتبته . ونقرت له زجاج النافذة ، فرأى وهض

الاجراءات مع زملائه وصوت الآلة الكاتبة يلقى عنيماً أعنف من التيكورز
وسألني أين تريد أن تذهب ؟ قلت : موسكو ولننجراد . فقط ؟
نعم ، فقط . وكتبت الآلة : موسكو ولننجراد . كم تحب أن تبقى
قلت : أسبوعين . قال : فقط ؟ نعم ، فقط . هذا قليل . خذ شهراً .
وكتبت الآلة شهراً . ثم بعض التوقيعات وبعض الأختام ، وانتهى كل شيء .
ولم يتركني أنا تولى : اتصل أولاً بشركة الطيران الروسية وحجزت مكاناً
في طائرة الغد ثم قال : هيا إلى شركة الطيران العربية المتحدة نبادل تذكرة
السفر . وكانت هذه أشق مرحلة في الموضوع . بالأمس فقط أزعجهم
لتغيير تذكرة إلى الغرب وهأنذا أزعجهم اليوم من جديد لتغييرها
إلى الشرق . وفي الشركة شرحت لهم الموضوع . وأدرك الرجل الذكي
مصطفى عبد الله دقة الموقف فأول الأمر عنايته الشخصية . ولم يتركني
أنا تولى استيبانيوك إلا وأنا على جناح الطائرة الروسية الميهون ، وكأني وديعة
يخاف أن تضيق في الطريق .
ولم أنس قبل سنرى أن أبرق لجرياتي بالعدول عن العدول .



الفصل الرابع

موسكو

دايئة القباب والأخلاق، الناضبات

عندما نزلت مطار موسكو كانت منوياتي مرفعة إلى درجة النمام، كنت أولاً فرساً بتحقيق حلمي الكبير . وهو زيارة الاتحاد السوفيتي . وكانت تجربتي اليوجوسلافية المبهمة ثانياً قد أعدتني نفسياً لقبول أى شيء يأتيني به القدر بصدر واسع . وكان اليوم عصر السبت ، وهو يقابل عصر الخميس عندنا ، أى بداية عطلة نهاية الأسبوع ، ولم أكن أعرف إن كان اتحاد الكتاب السوفيت قد تسلم برقية القفص الروسي في بلجراد ، وعد وصول أم لا . ولم يعد يخيفني ألا أجد من ينتظرنى في مطار أو أن أجد نفسى وسط قوم أكلمهم بمفرادات عالمية تكملها لغة الإشارة . بعد عشرة أيام من الإقامة بين سلاف الجنوب كنت على تمام الأهبة لمواجهة سلاف الشمال .

وفى مطار موسكو ركبت تاكسى ، وقلت : « هوتيل » .

ونزلت فى فندق مينسك . لا مكان .. وبحشت لى الموظفة عن مكان فى الفنادق الأخرى .. لا مكان فى فندق روسيا . لا مكان فى متروبول .

لا مكان في أوكرانيا . لا مكان في الناشيونال . قلت ضاحكاً :
يبدو أنى سأنام في الشارع . قالت السيدة ضاحكة : هذا ممنوع في
الاتحاد السوفييتي . قلت ضاحكاً : إذن سأقام في قسم البوليس . قالت :
لا أظن أننا سنتركك تنام في قسم البوليس . واختفت دقيقتين ثم عادت
وقالت : حجرتك رقمها ١٠١٥ ، وسيقرضك الفندق ٢٥ روبل لتجاسب
التاكسي حتى تبدل دولاراتك غذا من البنك . وحمل السائق الصبور
أمتعتي داخل الفندق وهو لا يكف عن الابتسام ، وكأنه شريك
في هذه اللعبة المسلية .

وهكذا تجاوزنا الأزمة بالابتسام . وكان كل شيء في موسكو
يشع بالدفع ، دفع القلوب ، من المطار إلى حجرتي . من موظف
الجمرك إلى عامل المصعد . فمن لم يبتسم لك بشفتيه ابتسم بعينه . ولم
أضيع وقتاً . استبدلت ملابسي ونزلت أتجول في شارع جوركي ، وسرت
أستسكن من ميدان ماياكوفسكي إلى ميدان بوشكين ومن ميدان بوشكين
إلى الميدان الأحمر وقبابه الذهبية في ظلال الكرملين . وشارع جوركي
الفسيح مشرق بالنهار حتى بعد الغروب . وذهبت أتمعن تماثيل موسكو
العظيمة الواقفة في قوة وشموخ من قوة الإنسان وشموخه ، لا تأله فيها ولا
تعاطف كذلك الواقف هاهنا في السحاب في ميدان الطرف الأغر بلندن ،
ولا صقل ولا جمال ولا واقعية كتلك الواقفة في متناول الكف في
ميادين مدينة النور ، وإنما اعتزاز من عزة الإنسان الذي يحمل على
كاهليه عبء مصير الإنسان . وعلى تماثيل بوشكين قرأت

أشعاره على قاعدته تقول :

« لسوف يسمعون بي في كل أركان روسيا العظيمة ولسوف يلهمج كل لسان :

أنا سليل السلاف الطموح سليل الفين والتونج المتبربرين حتى الآن سليل الكالميك ، أصحاب السهوب » .

« ولسوف يخبني قوى طويلة لأن قيثارتى هزت جميل المشاعر ، ولأني أنشدت للحرية الأناشيد في زمي العاني ، وناديت بالرحمة على المقهورين » .

فأجد أن بوشكين قال شيئاً أكثر من قول المتنبي : « إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً » وأكثر مما قال مارس في قصيدته الشهيرة : « لقد بنيت أثراً أكثر شهرة من المرم . . إلخ » لأن بوشكين لم يذكر نفسه فحسب وإنما ذكر حرية الأحرار وشقاء العبيد .

ثم أعود القهقري من ميدان بوشكين إلى ميدان مايا كوفسكي فأقرأ شعره يقول على قاعدة تمثاله :

« وأعني أوطني وجمهوريتي ، فغنائي لربيع الإنسانية يولد من الكدح والقتال » .

فأقول هذه رؤيا شاعر عاصر صراع البلاشفة العظيم وحلم بالعالم الجديد الموعود يخرج من العالم القديم الشقي كما تخرج تباشير الربيع من أحشاء الشتاء الحزين . والشوارع كلها فسيحة جداً كأنك في روما منتظمة تماماً ، كأنك في نيويورك كلها عمارات رازحة شبيهة بنوافذها

الصغيرة الكثيرة وكأنها ألواح حجرية جسيمة مقلمة تملأ وجه السماء ،
فللمدينة طابع خاص وشخصية خاصة ، والمدينة حديثة التخطيط
رغم أن عمرها من العصور الوسطى . ولا مكان فيها للفيلا أو للمبت
الصغير لأنه لا مكان فيها لفرد مستقل عن الجماعة يبني لنفسه بيتاً
مستقلاً عن الجماعة . وكنت من قبل أتوهم موسكو في خيالي مدينة
قاسية عابسة مظلمة كلها قباب كقباب الكرملين تراكت عليها الغيوم
الثقيلة المطيرة السوداء ، فإذا هي مدينة عصرية سمحة ودودتجب
الزائرين وتعطيهم ما عندها بقلب سخى . قالوا تلك صورة موسكو ،
بقيت لك مما قرأت من روايات دوستويفسكى أو نوادر عن إيفان الرهيب .
أما موسكو الجديدة فهي بنت المجتمع الاشتراكى . وأحببت هذه المدينة
منذ اليوم الأول رغم أنها لم تكن « جميلة » كروما أو باريس .

ثم بدأت أستكشف أشياء عن مدينتى . عضنى الجوع نحو العاشرة
مساء فخرجت أبحث عن زاد فوجدت الشوارع مقنرة أو شبه مقنرة .

قالوا لى فى الفندق إذا لم تسرع فسوف تنام على الطوى ، لأن كل
المطاعم تطفىء أنوارها وتغلق أبوابها فى الحادية عشرة . قلت : ألا تسهرون
فى موسكو ؟ فضحكوا ضحكة فيها تغاير وقالوا : كل السياح يسألون
هذا السؤال . تقصد هل لدينا كاباريهات ؟ عندنا نكتة تقول : استوقف
سائح رجلاً من موسكو وسأله : أين أقرب كاباريه ، فأجابه الرجل :
فى هلسنكى . (وهلسنكى هذه عاصمة فنلندا !) ها ! ها ! ولكن هيا
عجل . ستجد مطعماً قرب الميدان الأحمر . ومشيت نحو ربع ساعة

لا عمل لى إلا قراءة اللافتات التى لم أفهم منها شيئاً ، لأنها مكتوبة بالأبجدية السيريلية وليس بالأبجدية اللاتينية . وأخيراً قرأت لافتة تقول : ПЕТОПАН (الروس ينطقونها « رستوان » ويكتبونها « بكتوباه » بأبجديتهم) . وصعدت فى عمارة جسيمة وفى القاعة العظيمة وجدت نحو خمسمائة طاعم يأكلون ومغنية تغنى على نغمات أوركسترا رقصات أمريكية كلها شبيهة بالتويست ، وما هى بالتويست ، والراقصون كلهم من الروس ، كانت المغنية « تجود » التويست الأمريكى بمقاطع أوبرالية ثم تعود إلى الإيقاع السريع المنتظم ! وكان لهذا وقع غريب فى نفسى أحسست بأن الروس يريدون أن ينفنحوا للجاز الغربى ، ولكن منهج حياتهم الاجتماعية وبيئتهم النفسية الخاصة ور بما طول عزلتهم لا تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم بأداة الجاز .

وهكذا اكتشفت منذ ليلتى الأولى فى موسكو أن حياة الليل لا وجود لها فى موسكو ، وقس على ذلك بقية مدن الاتحاد السوفيتى . وليس فى موسكو كلها إلا بار واحد صغير بجوار الميدان الأحمر أعد للأمرىكان وأضرابهم من السياح ، يسهرون حتى الخامسة صباحاً ، وليس فيه طعام ولا موسيقى وإنما فيه الشراب حتى الصباح ولا تقبل فيه عملة إلا الدولار ، وهذا يضمنون عدم تردد الروس عليه . ولعلها مجاملة من الحكومة الروسية لرجال الأعمال الأجانب الذين اعتادوا فى بلادهم السهر خارج بيوتهم . أما الروس فيشربون فى بيوتهم ، ويندر أن ترى روسياً خارج داره بعد منتصف الليل ، فإذا رأى روسى يترنح من الشراب فى الطريق العام اعتبروا

عمله هذا مجلبة للعار على المجتمع الشيوعي . وفضحه . وذكروا لي أن أستاذاً في جامعة موسكو ضبط في حالة سكر بين ، فبعد إبراء اللزم نحوه في قسم البوليس (الدوش وغسيل الأمتاء) . التقطوا صورته وعلقوها في الأوتوبيسات بأمر الحزب لينعظ الكافة بنضيحيته . وفي موسكو الأوتوبيسات بلا كمسارية ، وكل راكب يقطع تذكّره بنفسه بعد الركوب ، فإن ضبطوا راكباً بالسفلة صوروه وعاقبوا صورته في كل وسائل المواصلات وعلى الجدران . وهكذا يفعلون مع كل الجرائم الصغيرة التي لا يعاقب عليها القانون ، أو الانحرافات الخلقية التي ينفع فيها الردع الاجتماعي ولا تدخل تحت طائلة قانون العقوبات . كطالب يسرق أشياء زملائه أو عامل يهمل في عمله وغير ذلك ، ومعنى هذا أن الحزب يقوم بدور « المطوعين » ، بطريقة أقل إيذاء لشخص الإنسان ، ولكن أكثر خدشاً لكرامته . وهذا عندهم وسيلة ناجحة لتربية « الضمير » الاجتماعي ، وفي الغرب يسمون هذا « الخوف » الاجتماعي ولا يعلقون في الأماكن العامة إلا صور عتاة المجرمين المطلوب التنبض عليهم . وسواء سميت هذا تربية للضمير أو تربية للخوف فقد رأيت النتيجة ماثمة خلال أسبوعين من إقامتي في أكبر مدينتين في الاتحاد السوفيتي : موسكو ولننجراد . كل الناس تقريباً في بيوتهم قبل منتصف الليل . لا سكارى في الطرقات العام إلا ماندر . كل الناس كمسارية نفسها في وسائل النقل الخ .

وأنا من المدرسة التي لا ترادف الضمير بالخوف ، بل أعتقد أن الضمير لا يصبح ضميراً حقيقياً إلا إذا صُنِيَ من كل شائبة من شوائب

الخوف كحال القادر على الظلم ثم لا يظلم أو القادر على السرقة أو الزنا أو أى خطأ كان ثم لا يسرق ولا يزنى ولا يخطئ . أما الإرهاب الخلقى فلا يثمر الضمير وإنما يثمر العقد النفسية وقد جربه البيوريتان وجماعات الميثوديست فى الغرب من غلاة التطهر الدينى ، فكان القس حين يجتمع برعيته فى الكنيسة يوم الأحد يزأر وسط المصلين : « وأنت يامسز كذا ماذا كنت تفعلين فى حديقة جارك فلان بعد منتصف الليل » فترتجف المرأة المسكينة تحت النظرات النارية المسددة إليها من كل جانب وتنهأ وتتجرب وتعرف بذنبها أو « تنقد ذاتها » كما يقوون بلغة اليوم . ومع ذلك فقد انتابنى إحساس واضح بأن هذا ليس بالضبط ، ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى . انتابنى الإحساس بأنى أقيم فى مجتمع « باتريستى » أو « أبوى » كبير لا يقوم على إرهاب السلطة للشعب ، ولكن يقوم على علاقة تشبه وصاية الأب أو الأم على الأبناء القصر

فكما تقول الأم اولدها : الساعة الآن التاسعة ، اشرب لبنك ونم فينصاع الولد لنصائحها بشعور غير شعور الخوف من الزجر أو بشعور مضاف إلى شعور الخوف من الزجر ، ودو شعور مزيج من الحب والولاء والثقة فى حكمة الأم وحرصها عليه ، وكما يقول الأب لابنه : لا تذهب هذا المساء إلى السينما أو إريك أن تعاكس بنت الجيران فينصاع الابن لأوصاياه ، كذلك أحسست بأن استجابة الناس لتوجيهات أولى الأمر منهم شبيهة بطاعة البنين للآباء ، أساسها ليس مجرد الخوف من التأديب ولكن عواطف عديدة مركبة مضافة إلى ذلك . وربما كان

هذا مصدر خطأ الغرب في فهم منابع السلوك الاجتماعي الروسي والطريقة الروسية في التماسك الاجتماعي والسياسي بل ومنهج الروس في التفكير الاجتماعي . فالغرب يعزو كل ما يراه من طاعة وانصياع وتماثل أو « كونه فورية » في الفكر الروسي والسلوك الروسي إلى مجرد عامل الخوف من السلطة ، والأرجح عندى أن الشعور بأبوة السلطة هو الأساس الأقوى ، حتى في عهد الإرهاب الاستاليني . ومن الآباء من يربط أولاده في عمود السرير ولا يتركهم إلا بعد أن تتحطم العصا على ظهورهم بدافع الأبوة وبقصد التنشئة الصالحة .

والذى هدانى إلى هذا التفكير هو ما لا حظته في مناقشاتي مع عشرات من الروس الذين التقيت بهم ، من أنه لا أثر للتمزت الأخلاقي بالمعنى الفكتورى أو البيوريتانى عندهم ، ولا أثر لتأصيل الفضيلة في الدين . فالماركسية قد جعلتهم علمانيين مائة في المائة وصفقهم من الإيمان بالغيبات التقليدية . فاستقامتهم إذن ليس منبعها نوازع الدين أو أوامره أو نواهيه ، وهم قد تخففوا في نظرتهم للجنس أو الشهوات عامة من فكرة « المحرمات » أو فكرة « الخطيئة » التى تغرسها المسيحية وكل أديان التوحيد في نفوس المؤمنين . والماركسية ذاتها ليس فيها مجموعة من القوانين الأخلاقية يمكن أن تحل محل الأخلاق الدينية . فالذى ظهر محل الأخلاق الدينية في روسيا بعد « الهوجة » الشيوعية الأولى هو لا شيء غير مكتوبة بالحقوق والواجبات الاجتماعية التى ترسبت في وجدان الروس فاتخذت قوة القوانين الأخلاقية . وقد كان لستالين رغم

عيوبه الكثيرة فضل كبير في إقامة مجتمعه على الأخلاق الجديدة ،
وأساسها تقديس العمل وتقديس الوطن وتقديس المجتمع .

ولم أجد أحداً يتماثل من نظام « بيتك . . بيتك » قبل الساعة
العاشرة . بل على العكس من ذلك كنت أجد دفاعاً منطقياً هادئاً
من كل من حدثتهم في هذا الموضوع . والمنطق بسيط وواضح :
من يسهر في الليل يتراخى في النهار . ونحن نريد أن نكون مجتمعاً منتجاً ،
ولذا فنحن لا نسهر في الليل . كان هذا الكلام يقال لى فأجده
مقنعاً وغير مقنع ، وكنت أجدته يذكر بنصائح الآباء للأبناء . ولكنى
كنت أتساءل : وما بال شعوب الغرب تسهر في الليل وتعمل في النهار ؟
بيكاديللى ومونمارتر شعلة من ضياء في الثانية صباحاً ورغم ذلك لا
أحسب الإنجليز أو الفرنسيين أقل إنتاجاً من الروس . ووجدت تفسيراً
آخر : حياة الليل معناها حياة المتعة ، وحياة المتعة مهما كانت بريئة
معناها الإنفاق عن سعة . وفتح عيون الناس على المتعة يدفعهم إلى البحث
عن الدخول الواسع المشروع وبغير المشروع أو يدفعهم إلى القلق والسخط
إذا لم يجدوا إليه سبيلاً . فليغلق إذن هذا الباب بإلغاء حياة الليل . وهذه
هى الفضائل الاقتصادية . ليس فيها جديد ، فهى الفضائل الممارسة
في كل أسرة من الأسر البورجوازية الصغيرة التى تندد بكل متعة تبدد
دخل الأسرة المتقشفة على الاستهلاك بدل الاستثمار . وقد كانت هذه
هى الفضائل اللازمة للشعب الروسى الجاهل الفقير المستعبد تحت
القيصرية اللاهية: السفهية لكى يتحول إلى شعب متعلم يعيش حياة مستورة

محررة من ذل الفقراء وخنوع الجياع .

وكان على أن أواجه يومى التالى (الأحد) فى موسكو وحيداً قبل أن أتمكن من الاتصال باتحاد الكتاب فى يوم الاثنين ليرسلوا إلى مترجماً أو مرافقاً، وما أدراك ما يوم الأحد فى بلاد لا تعرف لغتها ولا أسماء معالمها . وتنبأت بأحد مقفر ضائع أفضيه وحدى فى غرفتى لا أرى شيئاً ، فلن خرجت فلخطوات حتى لا أتوه . ولكن حظى كان خيراً مما توقعت .

دق جرس تليفونى وبدأ هذا الحوار الغريب . امرأة تقول بالروسية أى كلام، افتراضاً « خراشو خراشو خراشو » . وأجبت بالفرنسية أنا كذا واسمى كذا وصفتى كذا . أتفهمين الفرنسية ؟ .. أجابت بفرنسية متعثرة : « قليلاً . . أنا أسأل عن صديقتى . سونيا » قلت : « آسف ياسيدتى لا بد أنها رحلت قبل مجيئى » ، قالت : « خسارة . كنا اتفقنا مع صديقتى لوس أن نخرج بالأطفال للجنائن » . ثم ضحككت . قلت : « آسف ياسيدتى ، ولكن صاحبك غير موجودة » ثم لمع فى عقلى خاطر عملى غريب . مادامت هناك سيدة تريد أن تتسكع يوم الأحد فلماذا لا تتسكع معى فى المتاحف بدلا من الجنائن . قلت : « اسمعى . مادمت تريدين النزهة فأنا غريب هنا وأريد أن أزور المتاحف ولا أجد من يساعدنى على لغتك . فهل تستطيعين مساعدتى ؟ » وضحككت ضحكة طويلة كأنما كلامى دغدغها . قالت : « توريس ؟ » (أى سائح) ؟ ولم أجد داعياً لتفسير الأمور فقلت : « نعم سائح مصرى » وعادت إلى ضحككتها فقد كان الموقف مسلياً . قالت : « كم عمرك ؟ » قلت : « ٥٦ » . قالت :

« هل أنت أبيض أو أسود ؟ » وبدأت أتوجس . قلت : « متوسط » .
 قالت : « هل أنت طويل أو قصير ؟ » وضحكنا معاً . وقلت :
 « متوسط » قالت : « آتى مع صديقتى لوس والأطفال » . قلت :
 « عظيم . متى ؟ » أجابت : « الساعة الواحدة . أنا إسمى أوبلجا » .
 قلت : « تعالى فى الواحدة واطلبينى من صالون الهوتيل بالتليفون
 أنزل فوراً » . قالت : « كلا ، سنتظرك خارج اللوكاندة » قلت :
 « كما تريدن . ولكنى لا أعرف شكلك » فضحكت وقالت ، « أنا
 ألبس بلوزة زرقاء . وستعرفن بالأطفال » قلت : « اتفقنا » . وانتهت هذه
 المكالمة الغريبة . وخف إلى صباح الأحد الكاتب رومانسييف الموظف
 باتحاد الكتاب . قصصت عليه قصة أوبلجا وحديثها التليفونى . فضحك
 وقال : « بداية لا بأس بها . » ويبدو أن ذهنه انصرف إلى أشياء أخرى
 وهو معذور فى ذلك . قلت : « هيا بنا ننتظر خارج الفندق فالساعة
 الآن الواحدة إلا دقيقتين » .

وخرجنا ووجدنا سيدتين متوسطتين فى الجمال فى نحو الخامسة
 والثلاثين . ومعهما ثلاث بنات بين السابعة والعاشره وعرفت أوبلجا من
 بلوزتها الزرقاء . وتعارفنا فى لحظة .

ودعوت الجميع للغداء معى فى مطعم فندق منسك ، قبل أن نبدأ
 التجوال . وعرفت أن أوبلجا مهندسة بناء سفن وأن صاحبها خبيرة اقتصاد
 وكان حديثنا بثلاث لغات : مع رومانسييف بالإنجليزية ومع السيدتين
 بالفرنسية . وكانت تتخلله مناقشات طويلة باللغة الروسية بين أوبلجا



ورومانسييف . ثم لا حظت الارتباك على وجه أوجا فسألت رومانسييف :
 « عم تتحدثان ؟ » قال : « كانت تعتذر لى عن تعارفكما الغريب بأنها
 حين عرفت أنك سائح غريب ظنت أنها تقدم خدمة وطنية بمساعدتك » .
 وضحكت فى استياء لأنى لم أستسغ هذا النوع من الكلام . ولا أعرف
 إن كان رومانسييف قد أخرجها بقلة ذوق فجاتبها على هذا الأسلوب
 فى التعارف بالغرباء أم أنها أحست بالحرج من وجوده فذهبت تعتذر
 من تلقاء نفسها بعد أن أدركت صفتى وعرفت أنه مندوب اتحاد الكتاب .
 والأمريسيان فى الحالين ، وهو وضع امرأة تخجل من سوء تصرفها وتقدم
 تفسيراً عنه للغرباء ، وكأنها مسئولة أمام رومانسييف ، وكأنه يمثل المجتمع
 ويشير إليها بأصبع الاتهام رغم أنه لا تربطها به حتى أوهى الروابط .
 ثم هذا التهمك فى « خدمة الوطن » كأنما مجرد الاستطلاع الإنسانى
 العادى الذى يدفع الناس للتعرف بالناس أو البر بالغرباء فى حد ذاته
 جريمة . لو أن هذا جرى فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لما اجتراً أحد على
 التطفل على السالك الشخصى لأحد ، ولما أحس أحد بأن فى مثل هذا
 الموقف ما يستوجب الاعتذار .

وأنا أذكر هذا الحادث التافه لأبين مبلغ سطوة « الضمير »
 الاجتماعى فى روسيا السوفيتية . كل يتصرف وكأن ألف عين تراقبه
 حتى فى أخص خصوصياته . أقول بالضمير الاجتماعى لا الضمير الأخلاقى ،
 فحيث لا تزم ولا إحساس بالخطيئة نحن خارج نطاق الأخلاق .
 أذكره لأبين للناس أن المجتمع الروسى السوفيتى مجتمع فضيلة ومكارم

أخلاق على عكس ما كان يشيع عنه أعداؤه المضالون .
وصحبتني أوبلا ومجموعتها إلى متحف قصر الأمير يوسوبوف خارج
موسكو وسط غابة ارخانجاسكوريا .

دخلت متحفاً صغيراً ثم غابة كبيرة تبلغ نحو عشرين فداناً . وقبل
أن أدخل المتحف وجدت نفسي ألبس فوق حذائي كبقية الداخلين
أخفافاً من كاوتشوك . فأحسست برهبة المصلي يخلع نعله قبل الصلاة .
وكان المقصود حماية باركيه القصر من آلاف بل دلايين الأقدام .
وربما منع التزييق والكركة ليتأمل الناس في صمت وجلال . ووجدت
نفسى بين كنوز من أروع نفائس أوربا في التصوير والنحت ومن كل
مدارس الفن ، جمعها هذا الأمير الخطير الذى اشتهر اسمه في التاريخ بأنه
قاتل راسبوتين الجبار . كان يوسوبوف من أوسع أرستقراطي روسيا
ثراء أيام القيصرية وكانت له ضياع لا حصر لها : خمسة قصور أو ستة
مبثوثة في أرجاء روسيا ، فاستولى عليها البلاشفة ، وجاؤوها إلى متاحف ورافق
عامه : نهب الفلاحين ليجمع كنوز الفن على تقاليد الأرستقراطية
الأصيلة فظلم بلاده وخدمها في آن واحد .

ولم أر أوبلا بعد ذلك المساء . قلت : غدا يتسلمنى اتحاد الكتاب .
شكراً من القلب ووداعاً .

أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا بين موسكو ولندنجراد وبعض
الريف . لم أرفها متعطلاً متسكعاً أو شحاذاً أو رجلاً أو امرأة في
أشمال أو بغياً تنساب بين مصابيح الشارع . ولا شك أن هناك نماذج

من هؤلاء وأولئك ولكنها نادرة لا تراها إلا العين المترصدة ولم أر إلا مخموراً واحداً رغم شهرة الروس في قربة الفودكا . أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا ونظمت فيها مئات المواعيد للقاءاتى وتحركاتى فلم يحدث قط أن اختلت المواعيد واو دقيقة واحدة . يقولون في الثامنة أو العاشرة فيتم المطلوب في الثامنة أو العاشرة . ولم أر إلا (ميني جيب) واحدة ولم أر شاباً واحداً من طراز الهيبيز . ولم أر رجلاً واحداً أنيقاً أو امرأة واحدة أنيقة ، ولكنى رأيت ملايين الناس ، حتى الخدم وأفقر الفقراء في ملابس سوية نظيفة وسط لا رثاثة فيها ولا هندام .



الفصل الخامس

رحلة في عقل ساشاسخاروف

جاءني رجل وقال بالفرنسية: « اسمي تشيزنوكوف من اتحاد الكتاب القسم الإفريقي ، جئت في الموعد المحدد لأصطحبك إلى الاتحاد لتلتقي بالمسؤولين وترسم معهم برنامج زيارتك للاتحاد السوفيتي . لقد كنت المترجم المعين لمرافقة الدكتور محمد مندور منذ أكثر من عشر سنوات . كنت أحب أن أكون مرافقك ولكنهم عينوا لك مرافقاً آخر . ومع ذلك فربما جئت لمساعدتك في بعض المراحل . سيخصصون لك سيارة لانتقالاتك أو ما يقوم مقامها » .

وكان ذكر الدكتور 'مندور' كافياً لإزالة الحواجز بيني وبينه . وفي الطريق طفقنا نتبادل الذكريات عن الدكتور مندور ، وخيل إلى أن تشيزنوكوف خير من يكتب فصلاً اسمه « محمد مندور في الاتحاد السوفيتي » تنشره مجلة « الشرق » التي رأس تحريرها زمناً وفاء لذكراه ثم اكتشفت أن تشيزنوكوف يعرف كل أدبائنا الذين زاروا الاتحاد السوفيتي معرفة شخصية وقرأت في عينيه المداعبتين أن له آراء فيهم وإن لم يفصح لي بشيء منها .

وبلغنا اتحاد الكتاب . قال : هذا القصر كان قصر الكونت سولجوب
فصادرت الدولة في ثورة ١٩١٧ . أتذكر شخصية الكونت روستوف في « الحرب
والسلام » لتولستوى ؟ قلت : نعم ؟ قال : سولجوب هو النموذج
الحى الذى بنى عليه تولستوى شخصية الكونت روستوف . نحن لن نذهب
إلى القصر ولكن إلى هذا الجناح . وأشار إلى مبنى قمى يشبه جزءاً
من كلية الفنون التطبيقية عندنا إلى اليسار : « هنا إدارة العلاقات
الثقافية الخارجية . ستقابل رئيسها الرفيق كوسور وكوف ، والرفيق تكاتشيف
رئيس القسم الأفروأسيوى فيها . هذا المبنى كان اسطبلات القصر » .

وسألت تشيز نو كوف : « هل المستشفة يالينا ستيفانونا تعمل معكم ؟
أنا أحب أن أقابلها فقد تعرفت بها في القاهرة وأحب أن أراها » . قال :
« لا أظن أنك تستطيع أن تراها . فأمرها مريضة في المستشفى وهى تلازمها
ثم إنها في أجازة . وقفزت إلى ذاكرتى كلمات كنت قد سمعتها في القاهرة
منذ سنة . إن ستيفانونا مغضوب عليها من اتحاد الكتاب . وتأملت
كلمات تشيز نو كوف فوجدتها غير مقنعة فكلنا لنا أقارب في المستشفيات
ولكننا لا نلازمهم ٢٤ ساعة في اليوم .. أعدت في إصرار : « أرجو أن
أراها ، فأنا في حياتى النقيت بعشرات المستشرقين . ولكنى لم أجد منهم
من يتقن لغتنا الدارجة بلهجتها غير يالينا ستيفانونا وصديقى الإنجليزى دنيس
جونسون ديفيز ، وصديقى الهولندى يان بروخمان الأستاذ بجامعة لايدن » .
قال : سمرى .

والتقيت بالمسؤولين فى اتحاد الكتاب وتداولنا فى برنامج زيارتى

وكانت المشكلة أننا في عز العصف وأكثرت الكتاب خارج موسكو .
 هكذا قالوا . طلبت مقابلة الشاعر يوفتشينكو والشاعرة بيالا أحمندو لينا
 وغيرهما فقاوا هم جميعاً في المصايف أو الأرياف . قلت : مستحيل
 أن تقتصر زيارتي على مقابلة المباني والآثار والأحجار . أنا أريد أن
 ألتقي بالبشر . قالوا : هل لك اهتمامات خاصة ؟ قلت : أريد أن أدرس
 حالة المسرح الروماني . وبالذات من الناحية التنظيمية كذلك أريد
 أن ألتقي ببعض خبراء التعليم لأعرف شيئاً عن التعليم في بلادكم ، وأن
 ألتقي ببعض الشباب : وبعض المهتمين بالدراسات الشرقية . قالوا :
 سنرتب لك لقاء مع بعض أساتذة معهد الماركسية اللينينية ومع بعض الشباب
 من محرري مجلة « يوناست » (الشباب) ومع الرفيق جروموف المختص
 في المسرح . ونقترح أيضاً أن تزور عزبة تولستوى في ياسنيا بوليانا
 قبل سفرك إلى ليننجراد ، وأن تحاضرنا في اتحاد الكتاب عن الأدب
 المصري الحديث . . قلت : كل هذا جميل ولكن . . أين الأدباء ؟
 قالوا : سنحاول . وأحسست أن زيارتي ستكون على غير ما كنت
 أرجو .

وتذكرت ياينا ستيفانوا ، وطلبت مقابلتها ، فأعادوا على نفس
 الكلام الذي سمعته من تشيزوكوف . وانتابني شيء من الضيق . قلت :
 « لست أفهم ، هل المريضة في المستشفى أم هي ؟ » . قلتم بطريقة
 تعني : أننا نقرأ عنكم أنكم تضعون بعض الأدباء المغضوب عليهم في
 المستشفيات على طريقة الروائيين دانييل وسنيافسكي . وأضفت : « أنا

أفهم أن تقول هي إنها لا تستطيع مقابلي أما أن يقول هذا غيرها فغير مفهوم . أعطوني رقم تليفونها » . ولم تحدث كلماتي أى أثر فقد كانت الوجوه كالأقنعة . وكرروا في هدوء نفس العبارات الأولى ، ونسوا رقم التليفون .

وقبل أن أنصرف عرفوني بشاب ضئيل الجسم طولا وعرضاً ممتنع الوجه خال من الوسامة في الثانية والعشرين من عمره ، وقالوا : هذا ساشا . ساشا سخاروف ، سيكون مترجمك أثناء إقامتك ، وهو يعرف الإنجليزية قلت : تشرفنا وشكراً ، وخرجت أتوكأ على مرافقي .

فيما بعد عرفت أن «ساشا» هو اسم التدليل الروسى لاسم الكساندر وان « سخاروف » معناها « السكرى » أو أى شىء متصل بالسكر . وبعد ذلك اكتشفت أن ساشا هذا من أئمن الأشياء التى عرفتها في الاتحاد السوفييتى ، فقد كان فتى شديد الذكاء يفهم ما يلقي إليه من كلام مهما كان مغلفاً . وكان يتقن الإنجليزية إتقان مختص قليل الأخطاء رغم أنه كان في السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة موسكو ، وكان يعرف عن الأدب ما يكفى ، ثم اختار أن يتخصص في فرع من اللغويات الإنجليزية حديث جدا غايته تركيز اللغة في بوتقة بحيث تصلح لتغذية العقول الأليكترونية بالمعلومات . وكان يعرف الكثير عن بلاده وعن العالم الخارجى ويتمتع بدرجة عالية من الفضول العقلى ومن ملكة النقد والتحليل . وكان تحت مظهره الهادىء يحمل شحنة عاطفية ضخمة نجح في إخفائها تحت سطح من الدعابة والتظاهر بالاستخفاف ، كما نجح

فى إخفاء إرادته الحديدية وقدرته على تحمل الشقاء بنفس المهج .
ومنذ تعارفنا فى اليوم الأول سرى بيننا سيات كهربائى غريب كذلك
السيال الذى يسرى بين الآباء والأبناء ، وتمهيت أن يكون لى ولد مثله
فأنا أعيش من غير ولد وكأنى أوليس يبحث عن تليماك . عرفت منه
مصادفة أنه ابن زنا ، لا ترتعب ، فى الاتحاد السوفيتى تفقد هذه العبارة
مدلولها البشع عندنا . ولم يكن هناك أى أثر من آثار الخجل الاجتماعى
فى كلامه .

قلت : كيف أتيج لك أن تتقن الإنجليزية المثقفة على هذا الوجه .
هل هذا مستواكم فى الجامعة ؟ قال ببساطة : أى التى ربتنى بمفردها
كانت مدرسة لغة إنجليزية وقد علمتنى الإنجليزية منذ أن كنت صبيئاً ،
لقد ماتت فى العام الماضى وأنا أحياناً أفتقدها . قالها ساهماً ففهمت أن
أغواره تقول : وأنا أفتقدها طول الوقت ، ثم أضاف : لقد كانت امرأة
مجاهدة مثابرة . وحسبت أنى بإزاء قصة كلاسيكية لولد نشأ يتيماً ، فسألته
هل مات أبوك وأنت صغير ؟ أجاب : كلا . أبى لا يزال حيئاً .
وهو متزوج وله أولاد . قلت : طلاق ؟ عفوا ، أنا لا أريد أن أتطفل ..
أجاب بهدوء : لا . أبى ترك أذى ، وهى حامل بى . أراد أن يتزوجها بعد أن
حملت ولكنها طردته . كانت تحبه ولكنها أحست أنه لم يكن يحبها ،
ولهذا رفضت أن تتزوج لجرد استيفاء الشكل أو من باب قبول الاحسان ،
ثم تعيش بعد ذلك مع زوج لا يحبها . وتذكرت أنى التقيت منذ
ثلاثين عاماً بامرأة أخرى من هذا الطراز هى شخصية استر وتبرز فى

رواية جورج سور التي تحمل هذا الاسم . فقد فعلت إستر بصاحبها المتلاف ولیم عين ما فعلته أم ساشا بالرفیق سخاروف ، ولكن استر كانت من البيوريتان ، من الأخوات البلموس ، ونحن هنا في عالم الاشتراكية العنصرية . يالنا من القلب الإنسانى ومن الشخصية الإنسانية ! هذه آلام ساشا الدفينة التي كان يخفيها تحت دعاياته العقلية الهادئة . وكان مفتاح شخصيته الانطوائية : أى شىء إلا أن يظهر ضعفك أمام الناس . ومادمننا في موسكو فلنبدأ ببداية كل الأشياء : بناء على طلبى بدأنا البرنامج بزيارة ضريح لينين في سفح قصر الكرملين . جاءنى ساشا في الثامنة وأفطرنا معاً ثم ركبنا إلى الميدان الأحمر . وكان أمامنا طابور من البشر أزواجاً أزواجاً طوله نحو كياو متر (أحياناً يبلغ الطابور ثلاثة كياو مترات) والطابور يتحرك في ببطء بطى كأنما يسير في موكب جنائزى . وأبرز ساشا أوراقاً للحراس عند مدخل الميدان الأحمر فتركونا ندخل متجاوزين دورنا في الطابور ومن باب اللياقة اندمجنا في الطابور مرة أخرى على مبعده مائتى متر من الضريح حتى لا نمتن هذا الراقد المسجى فنؤم مثواه كما يؤم السياح برج إيفيل . وكان واضحاً أن آلاف الحجاج وأغلبهم من الروس ، يأتون من أطراف الاتحاد السوفيتى ليؤدوا فريضة الذكرى لهذا الرجل العظيم . وكان على الوجوه خشوع . حتى بلغنا مدخل الضريح برخامه الأسود والأحمر ونفذنا بين الحارسين المتواجهم في المدخل كأنهما تمثالان بلخنديين من الشمع لا يختلج لهما رمش ولا يتحرك إنسان عين . . ونزلنا الدرج فقادنا إلى مر تحت الأرض

غير عميق ، ثم أفضى بنا الممر إلى المرقد الأكبر حيث تابوت من زجاج
 لقد في داخله جثمان فلاديمير ايلتش لينين المخطط في كامل ثيابه وقد
 أعضاء محياه نور خفي دائم ، فبدأ على غير ما تبدو ومياواتنا السوداء ،
 أبيض لا معاً شرباً بالحمرة بأحماض غير أحماض الفراعنة ، وعلى شفتيه
 ابتسامة الغبطة تحس ولا تحس ، وطوفنا بالجثمان مرة واحدة حتى قادنا
 الطواف إلى دهليز مقابل انتهى بنا إلى الدرج الذي أفضى بنا إلى الحلاء
 من جديد عند سفح الكرماين حيث وجدنا أنفسنا نمر بين مائة قبر
 كلها رخام أسود وكلها على مستوى سطح الأرض يحفها عشب دائم الخضرة
 وكلها منقوشة بأسماء زعماء الثورة البلشفية . وفي المقدمة نحو عشرة تماثيل
 نصفية لزعماء ووفاد لا يكفي لتخليدهم رخام القبور ميزت بينهم كالينين .
 وفوروشياوف وفيشنسكى وستالين وجاجارين . وبطول جدار الكرماين
 مائة لوحة رخامية مثبتة نقشت عليها أسماء أبطال الثورة البلشفية ومن
 وراء هذه الألواح وضع رماد أجدادهم . وقرأت بينهم اسم كروبسكايا
 زوجة لينين . وكانت هذه كعبة الشيوعيين .

وأنا لا أعرف إن كان الروس يصابون أم لا يصابون ، ولكن الجو
 الديني قد نشر على المكان ظلاله من الرهبوت . وآلاف الحجيج يأتون
 كل صباح إلى مقام لينين وكأنه مزار ولي عظيم من أولياء الله الصالحين
 في بلاد الكاثوليك أو المسلمين أو أقباط مرقس الرسول . ولا تحس بأن
 الدولة تمبىء أحداً للمزار ولا تحس بأن الحزب يحيش الجماعات لأداء
 الطقوس ، ولا تحس بأن ناظر مدرسة كذا الثانوية يقود أبنائه في رحلة

استطلاع أو لتقديم الفروض . إنما كل من هناك ساع بقدميه وباختياره مستجيب لنداء داخلي كالهاتف الديني ، وتميز بينهم الفلاحين الذين نزلوا المدينة لأول مرة ، كما نفعل نحن بالسيدة زينب وسيدنا الحسين . لقد انتصرت الميتافيزيقا في أرض اللامتافيزيقا ، ولم أجد لهذه الظاهرة تفسيراً إلا أن الشعب الروسى الذى اشتهر بعبادة قديسيه قد حافظ على العبادة وغير أسماء القديسين . وفي الشوارع والميادين والعمائر العامة والخاصة صور لينين بكل حجم وبغير عدد ، أيقونات عصرية مبنوثة في كل مكان . إن للماركسية ملامح « الدين » الجديد . ومع ذلك فقد أكبرت هذا الشعب الوفى لذكرى منتشله من قاع الجحيم — هكذا استقر في روع الروس من أبسط البسطاء إلى أعقد المثقفين أن لينين هو أبوهم جسداً وروحاً . وكانت هناك فتاة تكفكف دمعها كمن فقد أباه الليلة البارحة . فما أعظم الولاء لذكرى مصلح عظيم .

وكنت كلما ناقشت ساشا في موضوع ، ذكر لى آية من لينين . نتكلم عن الاستعمار والصهيونية أو عن الحرب والسلام أو عن الكولخوز والسوفخوز أو عن الحب أو عن التكنولوجيا أو عن التعليم أو عن المساكن أو عن الفن أو عن الملوخية أو عن المهلبية فيبدأ ساشا كلامه بقوله : « لينين قال . . . » وأحياناً يذكر ماركس ، فالحقيقة الكبرى في الاتحاد السوفيتى هى لينين قبل ماركس ، أو قل لينين للشعب وماركس للمثقفين ، رغم أنهم رسمياً يعترفون في كل مكان بأن ماركس هو مؤسس الشيوعية العظيم ، ومقابل كل صورة رأيها لكارل ماركس رأيت عشر

للينين . أما انجاز فنادراً ما ورد ذكره أماًى . ولم يكن ساشا وحده فى ذلك ، فقد كان كل من قابلت يتحدث على هذا النحو ويعنن فى كلامه عن ماركس وعن لينين ، وكنت أقبل هذا من الآخرين لأننى كنت أناقشهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً فى اليوم ، أما من ساشا الذى كان يلزمنى كظلى ، فبعد فترة أصبحت أجد هذه الطريقة مستفزة ، وبعد أربعة أيام لم أعد أحتمل فقلت لساشا : « ساشا يا بنى . اسمع جيداً . أنا قرأت كل ماركس وكل انجاز ونصف لينين قبل أن تولد أنت بعشر سنوات . وأنا الآن لا أناقش لينين ولكن أناقش ساشا ساخاروف . أنت طبعاً تريد أن تقنعنى لا أن تثبت لى أنك تلميذ نجيب أجاد حفظ دروسه الماركسية ، فإذا أردت أن تثبتى رأيا للينين فهذا من حقل . ولكن أرجو أن تعبر عنه بلمغتك الخاصة وأن تنسبه لنفسك وكأنك صاحبه لأنك مقتنع به . صدقنى أن نسبة أى رأى للينين لن يزيده عندى قوة أكثر من نسبته لساشا لأننى أناقش ساشا ولا أناقش لينين » . ثم أردت لإلامه قليلا حتى لا ينسى فى المستقبل ، وكنت طبعاً أعرف أن تفكيره مصفى من الغيبيات بسبب إيمانه بالمادية الجدلية . قلت : « أنا لا أعرف كيف أصور لك وقع كلامك فى نفس سامعك . أنت طبعاً غير مؤمن بالمسيحية ، وهذا من حقل ، فنصوّر أنك تناقش رجلاً مؤمناً بها إيمانك بالماركسية ، وكلما جادلته فى شىء أجابك : قال بطرس الرسول أو قال بولس الرسول : همى مقدسات عنده ولكنها لا تعنى شيئاً بالنسبة لك . فهاذا يكون وقع كلامه فى نفسك ؟ ألا ترى أنكم بهذه الطريقة تحاولون الماركسية إلى دين ؟ إذا

أردت أن تناقش ، فناقش بالمنطق وفي حدود الواقع المعروف . «
وأحس ساشا بالحجل ولم يعد بعد ذلك إلى العنينة .

وكان ساشا يجيئني كل يوم في الثامنة صباحاً ولا يتركني حتى
يطمئن إلى أني دخلت سريري نحو العاشرة مساء . ولا أظن أنه كان مكافئاً
بذلك من اتحاد الكتاب ، فيوم العمل عندهم سبع ساعات . ولكن يبدو
أنه انجذب نحوى بقوة كما انجذبت نموه بقوة ، فأصبح لا يستغنى عن
صحبتى كما أصبحت لا أستغنى عن صحبته . وكنت أحياناً أحب أن
أحاول إلى نفسي وأن أسترده حريتي وأول لساعات قليلة فلا أستطيع التخلص
منه دون جرح لشعوره . وكنت أحياناً أتميز غيظاً وأكاد أحس أنه معين
لرصد تحركاتي ومعرفة كل مقابلاتي وقراءة كل أفكارى . وكان الفتى
حساساً يشعر بالحرج من هذه الملائمة فيتطوع بقوله : « إذا أردت
أن تنفرد بنفسك انصرفت وعدت إليك غدا » ؛ ولكنه كان يقولها بطريقة
تعنى : « أرجوك ألا تأمرنى بالانصراف لأنى أحب البقاء معك » .
فأجيب صادقاً : « لا . ابق معى ياساشا . فإذا أفعل بحريتي مادمت لا
أفهم لغة بلادكم ؟ أنت على الأقل تمثل صلتى بالعالم الخارجى ، ثم
إن صحبتك ممتعة ونافعة معاً » . لقد أصبحت كالطفل . أخاف أن
أترك وحدى .

ثم قلت لساشا : الوقت يمضى ، وبعد خمسة أيام نساfer إلى لينينجراد
أرجو أن تباع اتحاد الكتاب شيئين . أولاً أنى مهمتهم اهتماماً خاصاً بمقابلة

يلينا ستيفانوف، وأنى أصر على مقابلة عدد من الأدباء الروس قبل عودتي إلى مصر . أنا لا أريد أن أخرجهم فأطلب مقابلة الروائي سوليجنيتسين الذى سمعت أن إقامته محددة فى بيته الريفى ولا مقابلة دانييل وسنيافسكى وهما فى « المستشفى » كما يقولون ، ولكن اعطهم هذه القائمة غير يفتوشنكو وبيلا أحمد ولينا ونجيبين الذين يقابلون كل الناس : أريد أن أقابل أندريا فوشنسكى وجرىجورى بكلاتوف وجرىباتشوف وكوتشيتوف وكو جيفنيكوف ثم طبعاً صديقى الطيب سوفروف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » . إن أكثر هؤلاء من الأدباء المحافظين المتمسكين مع « الخط » ولا أظن أن هناك ضيراً فى ترتيب لقاءات معهم .

وكنتم أسمع عن حال الأدب الروسى الراهن أنها حال لا تسر وأنتج ما يجرى فى مجلاتهم الأدبية من تقلبات ، فربما كانت الصراعات داخل المجلات الأدبية السوفييتية هى المؤشر الحقيقى لاتجاهات الأدب الروسى الحديث . وقد كانت مجلة « نووى مير » Nowe Meer « العالم الجديد » ، التى صدرت قبيل الحرب العالمية الثانية هى محور الحياة الثقافية فى الاتحاد السوفيتى ، وكانت أكثر تقدسية وتفتحاً وإيماناً برسالة الثقافة من كل المجلات الأدبية الأخرى . وكان يتبادل رئاسة تحريرها الروائي الكبير كونستنتين سيمونوف Simonov والشاعر الكبير تفاروفسكى Tvardowski ، وهو شاعر محافظ ملتزم بالهبة الوطنية ملتزم بالخط الماركسى الحزبى ، اشتهر قبل الحرب وعمره الآن نحو الستين ، وقد حارب فى الجبهة وله قصائد مأثورة فى الوطنية كتبها أيام الحرب ، ورواية

اسمها فاسيلي توركين « تصف أمجاد جندي روسي بطل بهذا الاسم ، وهو متفان في تمجيد الروح الروسية . وكانوا كما غضبوا على تفارذوفسكى أسندوا رئاسة تحرير « نووى مير » إلى سيمونوف .

وفي السنتين الأخيرتين بدأت مجلة « نووى مير » تواجه متاعب حقيقية فاتهمت بالانحراف ولا سيما فيما تنشر من مقالات تحليلية خاصة بتقييم التاريخ ، كما اتهمت بالانحراف لأنها دأبت على نشر القصص المشائمة ، وقد غضبوا عليه . وحين أقول غضبوا عليه أقصد غضب عليه القسم الثقافي داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي . وطلبوا إليه الاستقالة لكنه رفض وطلب إليهم أن يقللوه إذا شاءوا ، فلبثوا إلى ترتيب جديد أكرهه الشاعر الكبير تفارذوفسكى على الاستقالة . وهو تغير مجلس تحرير مجلة « نووى مير » مع إبقائه رئيساً للتحرير احتراماً لمقامه . ولما لم تجد اعتراضاته قدم استقالته ، ومنحوه وساماً رفيعاً من باب التكريم الأدبي . وهو الآن يعيش معتكفاً في بيته الريفي مكرّزاً على الرف . وقد سمعت أنه رجل مغرور يعتبر نفسه الأب الروحي للمثقفين اليساريين الروس .

أما مجلة « الاتحاد السوفييتي » فترئيس تحريرها هو الشاعر جريباتشوف Gribatchov وهو رجل متزمت جامد التفكير يسير على الخط الشيوعي التقليدي الأورثوذكسي الذي لا مجال فيه للاجتهادات الجديدة ، ويقال عنه إنه في داخل الإطار الشيوعي يميني متطرف متمسك بالمبادئ الأولى على حرفيتها ، وإنه سفاح أدبي يضرب أصحاب الأفكار الجديدة بقسوة

لا ترحم . ولكنه رغم جموده يتمتع بسمعة الكاتب الشريف الخالي من الانتهازية .

أما مجلة « زناميا » (الراية) فهي مجلة معتدلة اتجاهها . وسط بين المحافظين والمجددين من الشيوعيين الروس . ورئيس تحريرها هو كوجيفنيكوف Kozevnikov وقد تخصصت هذه المجلة في نشر قصص الحرب وأدبها بصفة عامة ، وقد تعود الروائي الكبير كونستانتين سيمونوف أن ينشر فيها رواياته .

وأخيراً فهناك مجلة « أكتوبر » التي يرأس تحريرها الروائي كوتشيتوف Kotchetov الذى اشتهر بروايته السياسية التى يندد فيها بالمتقنين الروس ويصورهم فى صورة المعادين للسلطة السوفيتية الموالين للغرب . وعنده أن الشيوعى الروسى المخلص هو « العامل » الذى يرفض الثقافة الغربية . وقد أصدر كوتشيتوف هذا منذ شهور رواية اسمها « عاوز إيه بقى ؟ » يهاجم فيها مجلة « نوى مير » والمتقنين اليساريين فى روسيا ، وبطل هذه الرواية رسم على نموذج الشيوعى الإيطالى فيتوريو سترادا الذى تعلم فى الاتحاد السوفيتى وتزوج من روسية ثم أقام فى روما . ولكنه انحرف بالأفكار الجديدة المشبعة بالتعاطف مع الغرب . أما زوجته الروسية الصميمة ففراها فى هذه الرواية نادمة على زواجها من أجنبى . وفراها تحب رجلاً روسياً كان يزور روما وتستنجد به لإنقاذها من الجحيم الذى تعيش فيه . فالزوج المثالى عند هذا الروائى هو الرجل الروسى وكوتشيتوف مثل جريباتشوف متخصصان فى تأليب السلطة على المثقفين .

فهناك إذن صراع ساغر بين المحافظين والمجددين . أو ما يسمونه
 اليمين واليسار ، في المجتمع السوفييتي ، وقد اتخذ هذا الصراع تعبيراً عنه
 في طلب السلطة داخل الحزب الشيوعي من ناحية وفي الأدب والفكر
 من ناحية أخرى . وجوهر هذا الصراع ، كما استطعت أن أذهمه هو :
 إلى أى مدى يجوز أو لايجوز للحضارة السوفيتية أن تتفتح لحضارة الغرب ؟ .
 المحافظون ينادون بصراع الأضداد وبمزيد من مركزية السلطة والمجددون
 ينادون بفتح الزواحف والانفتاح لمزيد من الحريات الليبرالية . وقد كان
 آخر جريح كبير في هذه المعركة منذ باسترنك صاحب الدكتور « جيفاجو »
 هو الروائي المعروف سولجنيتسن Solgenitsen الذي نشر في مجلة « نووى
 مير » أيام خرووشوف وبأدب خاص منه روايته الشهيرة « يوم واحد من حياة
 إيفان دينسوفيتش » . وهى تصور قصة فلاح روسى فى معتقلات
 سيبيريا أيام الحكم الاستالينى . وقد صرح خرووشوف بنشرها لإدانتها لعهد
 ستالين ، وقبل مؤلفها عضواً فى الاتحاد الكتاب ، ثم أُرْدِف سولجنيتسن
 هذه الرواية بروايتين أخريين تدخلان فى باب الأدب السرى لأن نشرهما
 محظور فى الاتحاد السوفييتى : الأولى هى « مستشفى السرطان » . وهى
 رواية رمزية تصور الحياة فى جناح السرطان بأحد المستشفيات تصويراً
 لتجربة شخصية لمجموعة من المثقفين احتجزت فى هذا الجناح لا شبهة
 إصابتهم بهذا المرض الخبيث . ولكن الرمز فيها شفاف يشير إلى أن حياة
 الفكر فى الاتحاد السوفييتى تجلب شبهة الإصابة بالسرطان ، وحيث
 السرطان يكون الاستئصال . أما الرواية الثانية فعنوانها « فى الدائرة الأولى »

وهي مصممة على غرار « ججيم » ذاتي حيث طبقات الجحيم مصورة في صورة الدوائر . والدائرة الأولى عند سولجنيتسن ليست حياة السجون والمعتقلات في الاتحاد السوفيتي ولكن حياة العلماء وأهل التكنولوجيا الذين يقبلهم الاتحاد السوفيتي للاستفادة منهم . وقد نشرت هذه الرواية بالإنجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات أوروبا ومنع نشرها في روسيا وطرد مؤلفها من اتحاد الكتاب ، وبعد أزمة تشيكوسلوفاكيا فاضوه في حذف أجزاء منها لنشرها بالروسية ولكنه رفض ، وهو يعيش الآن فيما يقال محدد الإقامة في الريف أو ما يشبه ذلك .

كل هذه المعاونات جمعتها من روسيا نفسها وليس من صحافة الغرب التي أقرأ فيها الكثير ، رغم أن ساشا العزيز لم يكن يتركني إلا سواد الليل . وانتهت أيام العشرة في موسكو دون أن ألتقي بشاعر أو ناثر . بيمين أو يسار . فيما خلا صاحبنا الطيب أناطولي سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيولك » ، الذي سمعت أن له سطوة كبيرة غير رسمية في اتحاد الكتاب من خلال نفوذه السياسي في اللجنة المركزية . كما سمعت أنه من أهل الميمنة الذين لا يتركون كل الزهور تنفتح . أرجو ألا أكون قد ظلمت أحداً بسرد ما سمعت من طرف واحد ، ولكن ماحيلي إذا كان اتحاد الكتاب لم يتح لي لقاء أحد ينير لي شعاب الطريق .

لقد كانت مهمتي الشاقة هي : كيف لا تصبح رحلتي الروسية مجرد رحلة في عقل ساشا سخاروف .

الباب الثاني

رحلتى الأمريكية

الفصل السادس

أمريكا

كيف تراها ولا تراها

منذ جملة شهور، تلقيت دعوة من جماعة عربية في أمريكا ، للمشاركة في أعمال مؤتمرها السنوى الرابع ، المنعقد بمدينة بوسطن بين ٢٩ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧١ ، بقراءة ورقة بالإنجليزية في موضوع « إمكانيات الحوار في المجتمع العربى المعاصر » . وكانت الجماعة تسمى نفسها : « اتحاد الحريجين العرب الأمريكيين » . أو « الأمريكيين العرب » على الأصح . فأدركت أنها جماعة من جماعات المهاجرين أو المغتربين العرب . . ولم يكن لقاء المهاجرين أو المغتربين العرب في أمريكا جديداً علىّ ، فقد عرفت منهم عشرات وعشرات في أثناء إقامتى في أمريكا منذ سنوات مديدة . فقبلت الدعوة شاكراً ، لأنها هيأت لى فرصة زيارة أمريكا بعد خمس عشرة سنة كاملة . أى منذ استقالتى من الأمم المتحدة عام ١٩٥٦ .

وكنت قبل سفرى أمنى نفسى بشيئين : أحدهما أن أدرس آخر تطورات الفنون والآداب فى غرب أوربا ، وفى أمريكا بصنفة خاصة

وأن نتاح لى دراسة حركات الشباب « على الطبيعة » فى أمريكا ، وهى أكبر مركز للرفض والاحتجاج للذين اتسمت بهما حركات الشباب فى العالم . . كنت أتمنى أن أدرس مجتمعات الهيميز عن كشب ، لا دراسة كتب ، ولكن دراسة تجربة .

بل لقد ذهب خيالى إلى أبعد من هذا ، فقد كان ولا يزال رأى الثابت أننا لن نستطيع أن نرى بصيصاً من القرن الحادى والعشرين الذى نستشرفه إلا إذا استكشفنا حقيقة ما يجرى فى عقول شباب العالم وما يجرى فى قلوبهم اليوم . فالهيميز ليسوا مجرد حاققة مانسون وقتلة شارون تيت أو متعاطى المخدرات الهائمين بشعورهم الطويلة وملابسهم المرقعة فى فردوس أو جهنم من الفوضى الجنسية ، ولكنهم أيضاً اليسار الحديد المتظاهر بمئات الآلاف ضد حرب فيتنام والتمييز العنصرى . وربما أيضاً كانت بينهم أنماط ثلاثة ورابعة لا تحفل بالجنس والمخدرات ولا تحفل بالقضايا السياسية الصارخة ، وإنما تبحث عن خلاصها فى صمت وهدوء لعلها تكتشف حياتها وللحياة الاجتماعية مغزى مقنعاً ، وقد كان يسيراً على مثلى أن ألتقى ببعض هؤلاء الشباب فى عواصم العالم المختلفة لقاء « الانترفيو » الصحفى ، أطرح عليهم الأسئلة وأستمع لإجاباتهم ، فأخرج بفكرة عن فلسفتهم ومعتقداتهم ومنايع قلقهم وآمالهم فى الحياة . ولكن هذا الأسلوب فى نظرى هو أسوأ سبيل إلى التعرف على الحقيقة ، كما أنه ينطوى على خدش لكرامة الإنسان فيهم ، أن تنظر إلى الإنسان نظرك إلى قرد أو دب أو ببر فى حديقة الحيوان تتأمله فى تعامل وانفصال

تام وكأنه « ظاهرة » أو تتجسس على دخيلة نفسه تجسس العدو أو الفضولى . لهذا كنت آمل أن تتيح لى الظروف أن أعتكف فى مستعمرة من مستعمرات المميز فى أمريكا وأن أخاطبهم أسبوعاً أو أسبوعين مخالطة الإنسان للإنسان عسى أن أفهم بالمشاركة شيئاً عن هذه الدراما العظيمة التى تتخلق درجة درجة فى نهايات القرن العشرين ، واعدة بخير عميم أو بشر مستطير لما سيأتى بعدنا من أجيال .

ولكن أحلامى كلها طارت بعد أن وطئت قدماى أرض باريس فى طريقى إلى أمريكا . فقد اعتكفت نحو أسبوعين فى فندق بباريس بين أسقام المرض والإكباب على بحث كنت أكتبه بالإنجليزية « لحظة اليونسكو التاريخية » بناء على طلب اليونسكو عن « غايات القومية العربية وبواعثها » . ولم يخفف عنى أسقام المرض والبحث لإعطاء سخى من قلب زميلى الشاب مصطفى إبراهيم مصطفى ، الذى كان قبل عامين ناقد الأهرام الفنى ثم تركنا ليتم علومه فى باريس ، فقد ترك كتبه وفراشه فى المدينة الجامعية ولا زمنى فى بنوة حقيقية يسهر الليالى ليوظنى كل أربع ساعات لأتناول البنسلين . وكنت فى أيام العافية أتجول بين الأشباح والأحياء ، فكنت أتردد على زميلنا الشاب وحيد النقاش الراقدرقده الموت فى مستشفى كوشان تحت أنبوبة الجلو كوز ، الكل يعلم بموعد تنفيذ حكم الإعدام فيه ويحدثه فى مرح مصطفى عن موعد الشفاء . أما هو فالله وحده يعلم ماذا كان يخفى من هواجس خلف عينيه الزجاجيتين الجميلتين وبشرته الخضراء وثغره الباسم ، يلغو فى هدوء عن أخبار الأدب والأدباء ،

كنت أتردد على معرض العنانة جاذبية سرى قوب الشانز ياي زيه وأتأمل أسوأها
الجلديد المنقبض حيث تداعت منازل القديمة وتلاشت ألوامها الساخنة
وحلت محلها ربوز انكماشية وانزوائية داخل أطر قائمة وكأنها تعبر عن
رغبة في الانسحاب داخل الرحم . موجة من الكآبة تحتاج فنانينا الكبار
كما اجتاحت أدباءنا الكبار . وبرغم قلة روادها بسبب إضراب عمال
المتر وشلل المواصلات في باريس مدة أسبوعين ، فقد استطاعت
جاذبية سرى أن تبيع لوحين أو ثلاثاً .

و كنت أزمع السفر إلى أمريكا بعد أسبوع من وصولي باريس ولكني
أجلت سفرى أسبوعاً آخر حتى أشهد افتتاح معرض « الفن المصرى المعاصر »
الذى افتتحه سفيرنا عبد الله العريان في متحف جاليريا يوم ٢٢ أكتوبر
١٩٧١ ، وحضره دو هاميل وزير الثقافة الفرنسى والوزير جوكس وغيرهما
من الرسميين المعنيين برعاية الفنون والأدب . وكان معرضاً يضم نماذج
من أعمال خمسين فناناً مصرياً في مقدمتهم رمسيس يونان والجزار (لا أعلم
إذا نسوا كمال خليفة ماداموا قد تذكروا الموقى) ثم تحية حاييم وجاذبية
سرى وفؤاد كامل وأنجى أفلاطون وحامد ندا وسيف والنلى وصلاح طاهر
وكنعان إلخ . . ومن النحاتين عبد القادر رزق وآدم حنين والسجيني
ومحمود موسى وهجرس ومحى الدين طاهر وصلاح عبد الكريم . ولا
أعرف إن كان المعرض قد استقبل من الصحافة الفنية استقبالا حافلاً أم لا
لأنى طارت إلى أمريكا بعد ثلاثة أيام من افتتاحه ، ولكنى شخصياً برغم
سعادنى بأن أرى فن مصر يعرض فى عاصمة العالم الفنية ، لم أسعد بتاتاً

بأن أرى جناحاً من حجرتين في المعرض يخصص للفنانين المصريين الشبان الذين بدت أكثر أوجاعهم كاجتهادات تلامذة نجباء ، ربما كانوا أصحاب مواهب واعدة ، ولكنهم حتى الآن مازالوا في طور التكوين . وقد كنت أؤثر أن يقنصر المعرض على أعمال عشرة أو خمسة عشر من كبار فنانينا يمثل كل منهم تمثيلاً كافياً بدلا من كل هذا الحشد الخفير من الأسماء بقصد إرضاء كل الناس هنا ، وبهذا اختلط التابعون بالأوساط واختلط الأوساط بالمبتدئين (ليس في فرنسا نفسها أو إنجلترا أو أية دولة متقدمة خمسون فناً يستحقون العرض) . وما في كل يوم يتاح لمصر أن تعرض في متحف مثل جاليريا . ومن يذهب إلى سوق الجواهرجية لا يحمل معه كل جواهره من ماسات حقيقية وزجاجية . أما تشجيع الشباب فله وسائل أخرى ، ونحن لانتصور مثلاً أن فرنسا تقيم بيننا معرضاً لميكاسو وبراك وجيا كومتى ثم تعرض معهم لوحات بعض خريجي كلية الفنون الجميلة بباريس .

بل لقد ساءنى في هذا المعرض أن أرى عديداً من أردأ أعمال فنانينا المعروفين مثل عمر النجدى ويوسف سيده وخديجة رياض وعفت ناجى ومنير كنعان ورمزى مصطفى ، حتى سيف وانلى لم يكن ممثلاً خير تمثيل ، وأنا أعرف لكل من هؤلاء لوحات تفضل ما رأيت في باريس مائة مرة . وحين سألت قومييسرة المعرض الفنانة أنجي أفلاطون في سر هذا الاختيار الردىء أبلغتني أن المندوبة الفرنسية هي التى قامت بهذا الاختيار عند حجيتها إلى مصر ، فلتسمح لى وزارة الثقافة هنا وهناك أن أقول لهما إن

المندوبة الفرنسية لا شك عاشقة لمصر بدليل أنها كانت في الاستقبال تلبس قفطاناً تركياً مزركشاً بالقصب مثل الشماشرجية الهيلتون وشيراميس ، ولا شك تحمل لنا أطيب الذوايا ولكنها لا تفهم كثيراً في الفن إذا كانت هذه هي اختياراتها . وقد لاحظت أن عقلية سياح خان الخليلي والأواني المزخرفة هي التي سيطرت على اختيار المعروضات ، وهذا معناه ببساطة أن أوربا تقول لنا : لنا الفن ولكم الزخرفة فابقوا في مكانكم ولا تحاواوا أشياء لا تتقنها . نحن نحب فيكم نكهتكم الشرقية المملوكية فلا تفسدوها بالتفلسف أو التحليق أو الغوص إلى الأعماق . أبعادوا عن الفيوجوارتيف ، وعن التجريد معاً . أبعادوا عن الألم والفرح والقلق والصفاء والزمو الدندشة بأشكالكم الهندسية المتكررة في صواوينكم وأباريقكم وصوانيككم ومشكاواتكم وأطلوا على العالم من وراء مشربياتكم ، فجمالكم الحقيقي أنكم لا تصلحون للقرن العشرين .

كلمة للمستقبل . لو أتيح لنا معرض آخر خارج حدود مصر ، فن واجب وزارة الثقافة أن تستغنى عن خمسمائة جنيه وتدعو لجنة ثلاثية من أكبر نقاد الفن في العالم تقيم بيننا أسبوعاً لترشد وزارة الثقافة في عملية الاختيار . ولكي يكون الاختيار مثلاً أوجه مصر الحقيقي ولفن مصر الحقيقي يجب إنشاء سجل في وزارة الثقافة تدون فيه سيرة كل عمل من أعمال فنانينا الكبار منذ خروجه إلى الحياة تماماً كسجل المواليد ترصد فيه حركة كل لوحة أو تمثال . فأنا أعلم أن خير أعمال فنانينا محبوب في مجموعات خاصة وموزع بين القاهرة والإسكندرية واستوكهولم وبرلين

وباريس ولندن ونيويورك وغيرها من مدن العالم الكبيرة والصغيرة ، وقد رأيت في رحلتي الأخيرة في بروكلين وفي واشنطن لوحات معروفة لرمسيس يونان وفؤاد كامل وتحية حلیم وجاذبة سرى بين مقتنيات بعض المصريين المهاجرين ، كما أنى أعلم أن زوارنا الأجانب يشترون أولاً بأول صفوة إنتاج فنانينا الكبار ويعودون به إلى بلادهم . وإذا كنا نوثق عقود بيع السيارات في الشهر العقاري ، فلا أقل من أن نفتتح سجلاً في كل قنصلية مصرية توثق فيه كل لوحة مصرية تباع في الخارج بحيث نعرف أين مستقرها ، ونستعيها أو نؤجرها للعرض في المعارض الدولية . بهذا نبرز للعالم أصدق مالدينا ولا نترك عملية الاختيار للمصادفة العمياء أو للبحث بين نفايات الفن التي لا تجد من يشتريها .

وقد كان العقاب أليماً في باريس ، ثلاثة أيام ترددت فيها على متحف جاليريا . بالساعات الطوال بعد افتتاحه ، فلم أر قدماً « تهوب » في المكان إلا عابراً طارئاً في الصباح وعابراً طارئاً في المساء ورغم أن مواصلات باريس كانت قد عادت إلى الانتظام ، قال الفنانون المصريون المرافقون للمعرض : نحن حقاً منحوسون ، فقد جاء معرضنا وقت تنويع بيكاسو في باريس فلم يلتفت أحد إلينا لأن كل الناس في معرض بيكاسو . ربما . ولكن الحمد لله أنى لم أسمع أحداً يقول إنها كانت مؤامرة من الصهيونية العالمية . ١

وفي السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ طرت إلى بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية لأشترك في مؤتمر الحريجين العرب . وكانت

تتناوبني إحساسات متضاربة أكثرها من إحساسات العائد إلى مكان
بعد خمسة عشر عاماً . وكان معي في الطائرة الصحفي الفرنسي المعروف
أريك رولو الذي كان مدعواً مع الاستاذ جاك بيرك للاشتراك في
مؤتمر بوسطن . وبعد رحلة سبع ساعات مملّة تسلينا فيها بمشاهدة فيلم
سخيّف على متن الطائرة نزلنا مطار بوسطن . وبدأت أول روائع أمريكا
تهب علينا في أرض المطار .

شيء لم نألفه في أوروبا . في الجمرك يفتمحون الحفائب . وقد كان .
وما إن تجاوزنا المنطقة الجمركية وهممنا بالخروج إلى المدينة حتى استوقف
مخبران صاحبنا الصحفي المعروف وقاداه للتفتيش الشخصي ! لماذا هو
بالذات ؟ لا أدري . كنت معه ولكنهما لم يتعرضا لي . وحرصت على
ملازمته في هذه الورطة من باب اللياقة والعجب يملؤني ! ووقفت خارج
كابينة التفتيش أقرب ما يجزى فوجدت المخبر يتفحص جواز سفره بعناية
ثم يساعده على خلع جاكته ويفتشها بدقة ، ثم على خلع قميصه . ثم
أخذ يتحسس جسمه شبه العاري حتى الوسط ، وأوشك الصحفي أن يخلع
بنطالونه ولكن الرجل اكتفى بلمس يده في كل جيوب البنطالون ثم مضى
يتحسس بدقة فخذه وساقيه حتى القدمين . وبعد أن فرغ من مراسم
التفتيش بدأ استجواباً قصيراً ثم أدخل سبيله .

وفي الطريق أخذتنا الحيرة ، لماذا هو ؟ وعم يبحثون ؟ عن سلاح ؟
هل ظنوه شخصاً آخر يبحثون عنه ؟ وكان رأي أنهم يبحثون عن مخدرات
قلت له : « أعتقد أن لحيتك هي السبب . فأنت برغم هندامك تشبه

جامعة المميز ، ونحن الآن في بلاد المميز » . وقد ثبت صدق ظني . .
فما إن نزلنا مدينة بوسطن وأخذنا نسأل الناس تفسيراً لهذا الحادث حتى
عرفنا أن ما رأينا شيء مألوف يجري كل يوم وكل ساعة في مطارات
أمريكا وموانئها ، ولا سيما للقادمين من فرنسا . سواء أكانوا من الفرنسيين
أم كانوا من الأمريكيين . إنهم يبحثون عن مخدرات . وقد غدت
فرنسا من المراكز الرئيسية لتهرب المخدرات إلى أمريكا . (قبلها بفترة
وجيزة ضبطوا دباوساسيا فرنسيا اتهم بتهرب ما قيمته ١١ مليون دولار
من الميروين في سيارة فولكسفاغن استوردها من الخارج) . ولا يعنى
المرء أن يكون ذا مركز « محترم » فأستاذ الجامعة قابل للتفتيش الشخصى
كتلميذ الجامعة وكأى صعاوك « لا يملك في الحياة إلا شعره » كما تقول
أغنية المميز المشهورة ، ومع ذلك فالزائر يحس بالمهانة عند التفتيش
الشخصى ، فهذا أسوأ استقبال يمكن أن يتعرض له إنسان برئ حالمًا
تطأ قدماه أرض الولايات المتحدة . مشكلة ، لأن الحكومة الأمريكية
معذورة أيضاً في هذه الإجراءات المتعسفة . حين تقيم في أمريكا قليلا
تدرك أن المخدرات قد غدت فيها وباء قومياً لا بد من مكافحته بأى
ثمن .

كذلك ما إن تقيم في أمريكا أياماً حتى تدرك أن فيها وباء آخر
هو اختلال الأمن في المدن الكبرى . كلما سألت أحد معارفى الأمريكيين
في نيويورك عن مكان أفضى فيه السهرة كان الجواب دائماً واحداً :
لا تسهر بالليل ، فنيويورك أمست غير آمنة ، كل ليلة عشرات من حوادث

القتل بقصد المارقة تتم والبوليس غير قادر على السيطرة على الموقف .
شبان ورجال من المتعطلين أو من مدمنى المخدرات يتعرضون بالمسدسات
فى جماعات صغيرة للمارة فى أرقى الشوارع وفى أقدرها طلباً لحافظهم .
وأدنى مقاومة أو إحساس بالخطر معناها الرصاص . الحكيم من يسلم كل
ما فى جيبه فى إذعان . وأسوأ ما فى الأمر أن التحقيقات تثبت أن هذه
الاعتداءات لا تنظمها عصابات محترفة كما كان الأمر فى العشرينيات
والثلاثينيات أيام آل كابونى وجاك ديلنجر وبقية ملوك الإجرام ، وإنما
يقوم بها مواطنون عاديون من البيض أو من السود ذاقوا مرارة البطالة
المتصلة فأعلنوا الحرب على المجتمع ، أو مواطنون عاديون من المدمنين لم
يجدوا إلا السطو سبيلاً للحصول على المال . وهناك أيضاً فئة ثالثة من
المواطنين العاديين تعلمت الإجرام فى مدرسة فييتام . أما السطو على
المنازل فقد غدا فى نيويورك خاصة وغيرها من المدن الكبرى ظاهرة
مألوفة إلى حد جعل سكان كثير من العمارات ينشئون فيما بينهم جمعيات
تعاونية للدفاع عن أنفسهم يأسا من قدرة البوليس على حماية الأرواح
والأموال .

وبالطبع لم ألق بالا إلى هذه التحذيرات وإلا بقيت سجين فندق
البلتمور طوال الأسبوع الذى قضيته فى نيويورك . فخرجت ثلاث مرات
بمجردى بعد التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أتجول فى برودواى والشارع
٤٢ وحول تايمز سكوير لأرى أضواء المدينة ، ولأدرس بنفسى ذلك
الوباء الثالث الذى سمعت بعد نزولى أمريكا أنه يجتاحها من أقصاها



إلى أقصاها ، ألا وهو أفلام الجنس . ولم يهاجمنى أحد ، ومع ذلك أحسست فعلا بجو الجريمة يتهدد آلاف السابلة في وضوح الليل . وكنت قد قرأت شيئاً لتوفيق الحكيم وهو يصف رحلته في العام الماضي إلى باريس .. يقول إن مشكلات الجنس تعالج الآن في الأفلام الأوروبية معالجة علمية وإن الجمهور يتتبعها في احترام تام . أما في أمريكا فقد رأيت ستة أفلام في تايمز سكوير ولكنى لم أرفيها مشكلات ولا جنساً ولا علماً ، وإنما رأيت مجرد دعارات مقرزة لبغايا وصعاليك يؤدون العملية الجنسية أمامك على الشاشة مصورة من جميع الزوايا الممكنة مع الاهتمام الخاص بالسحاق ، ولم يكن بينها إلا فيلم واحد يقترب قليلاً مما حدثنا عنه توفيق الحكيم ، وهو تعاون الفن والعلم في اكتشاف العلل الجنسية ، ومحاولة علاجها . ومع ذلك ، فمن يدقق النظر فيما يشاهد يجد أنه لا فرق بين هذا الفيلم وسواه ، إلا أن كاتب السيناريو له قواد مثقف عرف كيف يضفى على القوادة رداء الثقافة ، فأوهمنا أنه أقام ندوة مع طبيبة في علم النفس ، ووضعها العلل الجنسية بين الأزواج وانحرافات الفراش في عشرة نماذج أو « حالات » من مرضى هذه الطيبة ، وكان يتتبع هؤلاء الأزواج ويدعوهم إلى الاستوديو لسرد قصص مرضهم وقصص شفائهم بالتفصيل بالصورة أمام الكاميرا فيستجيبون له .

وحاولت أن أستقصى من معارفى الأمريكين عن أسباب هذه الأزمة التى دخلت فيها السينما الأمريكية ؟ية واون إن الموجة جاءتهم أولاً من السويد والدمتارك ، فكان بعضهم يربطها بالثورة الجنسية أو

حركة التحرر الجنسي التي تحتاج العالم اليوم وتحتاج أمريكا بصفة خاصة وهي وجه من وجوه ثورة الشباب والهييز والبحث عن أخلاقيات جديدة للجنس غير ما ورثناه عن الآباء والأجداد من معتقلات روحية وجسدية باسم مكارم الأخلاق وسيادة الروح على الجسد . وكان آخرون يربطونها بالتشوهات النفسية الناجمة عن الحروب ولا سيما حرب فيتنام . ولم أجد هذا مقنعاً ولا ذاك مقنعاً . فالهييز ودعاة التحرر لا يكثرثون بأفلام الجنس لأنهم يفضلون ممارستها على الطبيعة كما أن هذه الأفلام لو كانت تعبيراً عن فلسفة تحررية جديدة لكانت لإباحيتها أكثر فناً من كل هذا . والسويد والدنمارك لم تشتركا في حرب فيتنام رلاً في أى حرب من الحروب العالمية ، وآخر حرب اشتركت فيها السويد إذا لم تخفى الذاكرة كانت منذ نحو ٢٥٠ سنة في القرن الثامن عشر ، حقبة خلدها فولتير في كتابه الخالد « سيرة شارل الثاني عشر » . بل إن هذه الأفلام لم ترق حتى إلى مستوى أمراض الحضارة والترف ، فالرومان والعباسيون عندما أصابتهم أمراض الحضارة لم يعربدوها بهذه الغلظة وإنما عربدوها بتفنن وجمال . وتصورت أن أزمة السينما ربما كانت نابعة من سيطرة التليفزيون الذي فتح في كل بيت داراً للعرض الخاص وفنت البشر إلى ملايين من الجزر الضئيلة المنفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث أصبح من أعسر الأمور تجمعهم في مسرح أو سينما إلا على شيء خارق في الإثارة ، ومن هنا لجأت صناعة السينما إلى موجة من أفلام الجنس كما كانت تلجأ في الماضي إلى أفلام الجريمة وأفلام رعاة البقر لتجذب

المراهقين والبسطاء . فإن كان الأمر كذلك فلعلها موجة ثم تنحسر ، ولكن الخطر أيضاً ماثل ، وهو أن تمتد هذه الموجة بعد عشر سنوات إلى شاشة التليفزيون حيث تجد تجاوبا أعمق ، لأن الجنس في صميمه تجربة فردية لآحياء فيها ، بل قد تكون لها قداسة ، بين جدران أربعة . أما عرض قدراتها على الناس جماعة في الأسواق ففيه دائماً ما يصد البشر الأسوياء . وبالفعل كان أكثر من رأيت حول في سينات الأفلام الجنسية كهولا يبدو عليهم الحرمان وإرهاق المراهقين ، ولم أر من النسوة إلا قليلا ، ونذر أن تجد رجلا اصططب زوجه أو صاحبتة طلباً للإبرتييف قبل مواجهة الخلوة . إنهم نفس جمهور « السينما الزرقاء » التي كانت تتفشى في أوروبا في الثلاثينيات قبل الحرب العالمية الثانية .

» * «

هذه هي الأوبئة الثلاثة التي شهدتها في أمريكا في زيارتي الأخيرة : انتشار المخدرات ، واختلال الأمن ، والأفلام الجنسية . والصحافة الأمريكية تتحدث عن وباء رابع وشيك الانتشار في أمريكا هو الأمراض السرية . ولكن الذي يخفف من حدة هذه الأوبئة أن الديمقراطية الأمريكية مجتمع مفتوح لا همس فيه ولا تكتم ، فكل الناس تتحدث عن هذه القضايا بصراحة والصحافة والإذاعة والتليفزيون وكل منابر الرأي والبحث تخوض في هذه المشاكل ليل نهار ، وتحاول استقصاء أسبابها ونتائجها ووسائل علاجها . وحيث الرأي الحر مكفول فكل شيء قابل

للتصحيح . فلا حرج عند أحد من اتهام البوليس الأمريكى مثلاً بالإهمال أو بالتستر على الجريمة للارتشاء . وهم هناك لا يضيعون وقتهم كثيراً فى التنديد بعيوب المجتمع الأمريكى على أساس مكارم الأخلاق بل يلجأون إلى أساليب البحث العلمى فى استقصاء الأسباب والنتائج ووسائل العلاج . حتى ظاهرة الشذوذ الجنسى التى تفتت مؤخراً فى أمريكا وبعض مجتمعات شمال أوروبا وإنجلترا غدوا يخضعونها لدراسة الكيمياء الحيوية بفحص سلوك الهرمونات ونسبها فى أنماط الشذوذ المختلفة . ومن وضع يده على الحقيقة سهل عليه العلاج .

* * *

وحين استفسرت عن مستعمرات الهبيز قال لى أصدقاؤى الأمريكيون : سنحاول أن نرتب لك الإقامة بينهم أسبوعاً أو نحو ذلك ، ولكننا نطلب بعض الوقت لإجراء هذا الترتيب . أمامك الاختيار بين كومنونات نيويورك ، (والكونون عمارة تستأجرها أية جماعة من الهبيز بقصد المعيشة المشتركة ، فلا أحد يمتلك فيها شيئاً حتى علبه سجائره ، وكل عضو فى الجماعة يصب فيها كل مكاسبه ، ويستهلك فيها بحسب حاجته بغير حسيب) ومعسكرات الهواء الطلق ، وهذه أقربها على بعد مئات من الأميال . وهنا تدخل فى الحديث سائق التاكسى الذى كان يتبع حديثنا ، وكان من الهبيز ويدرس للماجستير فى جامعة كولومبيا : « أنصحك ياسيدى أن تذهب إلى مستعمرات الهواء الطلق ، هؤلاء هم الهبيز الحقيقيون . أما كومنونات المدينة فهم الهبيز المزيفون الذين أساءوا إلى سمعة حركة

الشباب ، وهم فى العادة جماعات مغلقة . إنهم يتذرعون بمظهر الهبىز ، فيرسلون شعورهم ويتحدثون عن المجتمع الجديد ويحتجون على القيم السائدة ، ليعيشوا حياة الإباحية والفوضى والكسل وتعاطى المخدرات . أما معسكرات الريف فهى الصحة والإيمان السليم . هناك يعيش الشباب حياة البساطة الأولى ، يزرعون ويقطعون ويربون ويأكلون مما زرعوا وقطعوا وربوا ، ويصنعون ما يتقنون من مصنوعات يدوية ويبيعونها للحصول على لوازمهم . وإذا ذهب إلى هناك فسيستقبلونك بالترحاب ، ولن ينتظروا منك إلا أن تزرع أو تقلع أو تصنع مثلهم . هؤلاء من حقهم أن يحتجوا على مفاصد المجتمع الرأسمالى لأنهم تجردوا من غريزة الملكية دون أن يكتسبوا مفاصد أخرى . انظر إلى مثلاً . أنا واحد من الهبىز ، ولكنى لا أعيش فى كومون » .

وعرفت فى أمريكا أن بعض رجال الدين يسايرون حركة الهبىز ، ويفتحون لهم الكنائس لإقامة حفلاتهم الراقصة الصاخبة بقصد استدراجهم إلى حظيرة الدين واصطياد أرواحهم بعد أن يشبثوا لهم أن الدين ليس مناهضاً لحركات التجديد مهما كانت ثورية . كذلك عرفت أن البوليس الأمريكى له رجال من الهبىز يطلقون شعورهم ويمشون حفاة فى هلاهيل ، فما إن يقوم الهبىز بمظاهرة إحتى يتحولوا إلى رجال أمن ويشاهدوا فى سيارات البوليس .

* * *

وتذكرت جماعات الشباب — فنية وفتيات — الذين رأيتهم جالسين

١٠٣

على الأرصفة حفاة في ثياب مهلهلة في ميدان سان ميشيل بباريس وفي مختلف أرجاء الحى اللاتينى وسواه ، ثم رأيت أمثالهم على أرصفة جامعة هارفارد ومدينة أوستن حيث جامعة تكساس ، وقد فرشوا مصنوعاتهم على الأرض ليشتريها المارة ، من إشاربات وبواوفرات وشنط ومحافظ جلدية وأحزمة مزركشة وكلها أشياء جميلة . وكنت أحسب أنهم يشترونها جاهزة ليتاجروا فيها . ثم عرفت أنها من صنع أيديهم . . . وهو نوع من الاحتجاج على عصر الآلة وعلى مبدأ التجارة القائم على وجود وسيط بين المنتج والمستهلك . نوع من العودة إلى العصور الوسطى على طريقة ولیم دوريس ، إلى مجتمع الإنتاج اليدوى ومجتمع المقايضة ، ولكن بغير أشراف ولا إقطاع ولا فرسان ولا كهنة ، وعندما سمعت كلام سائق التاكسى أدركت أن الأمر أعقد مما كنت أتصور . فاستبعدت فكرة كوبون المدينة لأننى لا أتصور نفسى بين جماعة تتعاطى المخدرات وامن أجل التجربة ، ثم استبعدت فكرة العودة إلى الطبيعة برغم انجذابي إليها ، لأنها ستحتاج إلى شهر كامل . ومن يدري ؟ فربما ضعت فيها ولم أعد إلى قوى ؟ إن هاتفا عميقاً يلازمى منذ سنوات طويلة أن انسحب نهائياً من حياة المجتمع ، ولكنى لم أجد الشجاعة حتى الآن لأجيب ندائه . وقررت أن أبتعد عن مواطن الغواية .

* * *

وهكذا تبخر أحد الأملين الكبيرين اللذين كنت أحلم بهما قبيل نزولى بأرض أمريكا : أن أدرس عن كثب مشكلة الهبيز فى بلاد الهبيز ،

أما الأمل الثاني، وهو أن أتابع ما يجري في المسرح الأمريكي بصفة خاصة وفي الأدب الأمريكي بصفة عامة، فقد تبخر أيضاً وأنا لا أزال في مؤتمر بوسطن في الأيام الثلاثة الأولى من رحلتي الأمريكية.

فقد توالى الأحداث في سرعة سريعة منذ اليوم. وجدت نفسي بين نحو مائتين من عرب أمريكا أكثرهم يعملون أساتذة في الجامعات الأمريكية، وبعضهم لا يحسنون العربية كلاماً لطول هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو لأنهم وادون بها. وقرأت على المؤتمرين كلمتي، واستمعت إلى كلمة جاك بيرك وإلى كلمة نجم باذرجان الأستاذ بجامعة تكساس وإلى كلمة يروسلاف ستكفيتش الأستاذ بجامعة شيكاغو، وهى كلمات سأعود إليها فيما بعد. كذلك أحاط بى الطلبة المصريون بعد حضور المؤتمر، وكانوا وافدين من جامعات أمريكية عديدة، وطلبوا إلى أن ألتقى بهم في جامعاتهم وأنا لا أرفض للطلبة طلباً: عقدة جامعية قديمة ما زالت تلازمى برغم مرور السنين. وبين الأساتذة والطلبة وجدت نفسي بين يوم وليلة مرتبطاً بجولة محاضرات رهيبة قوامها عشر محاضرات في عشر جامعات مختلفة خلال عشرين يوماً، وكانت كلها تدور حول موضوعين رئيسيين هما «التطورات الثقافية في مصر منذ ١٩٥٢» و«دور المثقفين في مصر الحديثة»، وبين يوم وليلة دقت التليفونات في عشر جامعات لإعداد الترتيبات اللازمة وبين الجامعة والجامعة ألف كيومتر. بين يوم وليلة كل شىء تم بالتليفون. وألقيت أولى محاضراتى في جامعة هارفارد، ثم طرت إلى جامعة لافال

فى كوييك بكندا . قالوا : فى عودتك من كندا إلى الولايات المتحدة ستمر طبعاً بمطار مونتريال لتغيير الطائرة ، وهناك ستجد زميلاً لنا فى انتظارك فى المطار ليسلمك تذاكر رحلتك ، وقد كان . وطرت أولاً إلى نيويورك التى اتخذتها قاعدة لى . ومن نيويورك طرت إلى جامعة ميتشجان (آن آر بور) ، ومن ميتشجان إلى جامعة شيكاغو ومن شيكاغو إلى جامعة مينسوتا فى منيا بوليس ومن منيا بوليس إلى جامعة وسكونسن ، ومن وسكونسن إلى جامعة برديو فى لا فاييت انديانا ومن لا فاييت إلى جامعة تكساس فى أوستن ، ومن أوستن إلى واشنطن ومن واشنطن إلى جامعة برنستون ومن برنستون إلى نيويورك حيث أقيمت محاضرتين أحدهما فى جامعة كولومبيا والأخرى فى جامعة نيويورك . وأولاً أنى فررت من أمريكا فراراً أوجدت نفسى أطوف بعشرين جامعة أخرى . وكانت متعة عظيمة أن أجد نفسى ثانية بين أبناء عشيرتى الأولى أستاذة الجامعات وطلابها ، واحتملت مشقة لا يحتملها ابن العشرين : أطير ألف كيلو متر فى الصباح وأحضر فى المساء وأبيت الليلة فى فندق أو فى المدينة الجامعية لأطير فى اليوم التالى ألف كيلو متر فى الصباح وأحضر فى المساء ، — وكانت راحتي الوحيدة أن يحل بى يونا سبت وأحد حين لا يعمل الناس — ومع ذلك لم أحس بأذى إجهاد إلا فى نهاية المطاف . كل شىء مرتب بإحكام كأنك تدور مع عقارب ساعة جسيمة متقنة الصنع لا تخطئ أبداً . الطائرة دائماً تصل فى الموعد المحدد . السيارة دائماً تنتظرك فى المطار . غرفة نومك دائماً محجوزة . محاضرتك دائماً تبدأ

وتنتهى فى الوقت المحدد لها . للغداء وقت محدد ، ولحفلة الاستقبال وقت محدد ، ولم يحدث خلل واحد .

* * *

وانقضى الشهر الذى خصصته لزيارة أمريكا . وهكذا دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً ، إلا « الدير » فى نيويورك ومعرض ميرو فى مينيابوليس . لم أرمسرحية واحدة أو أوبرا واحدة ، وكان الكتاب الوحيد الذى عدت به « قاموس فى لغة البربر » و « أجرومية لغة البربر » ، وهما من تأليف أستاذ مصرى فى جامعة ميتشجان اسمه أرنست عبد المسيح . وبرغم أنى دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً من فنونها وآدابها ، فقد تعلمت أشياء كثيرة غير ما قصدت إليه من رحلتى الأمريكية ، أشياء ربما كانت أهم من الفنون والآداب . ففند أن التقيت فى اليوم الأول بجامعة هارفارد بفتاة مصرية تدرس الدكتوراه يتدلى على صدرها « العنخ » أو مفتاح الحياة ، قررت أن أدرس أحوال المصريين المعتربين فى أمريكا . وفى كل مكان نزلت به جمعت باقة من المشكلات والحلول . وفى كل مكان نزلت به لم أكف عن مناقشة الناس فى المسألة المصرية وجميع الانطباعات عن رأى العام الأمريكى فيما يسمونه « الحل السلمى » . وقد أتاحت لى تنقلاى المتواصلة أن ألتقى بمئات الناس من مختلف الطبقات والمستويات والمهن والتخصصات . وفى الحالين وصلت إلى نتائج أجد أن من واجبى أن أعرضها على أبناء وطنى ، ليعرفوا شيئاً عن مآل إخوتهم المهاجرين فى الخارج ، وليعرفوا شيئاً عن رأى رجل الشارع الأمريكى فى محنتنا الوطنية .

الفصل السابع

إمكانيات الحوار في المجتمع المصري ترجمة لنص محاضرتي في مؤتمر بوسطن

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى .

إنه لمصدر اعتزاز لى أن أزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد غيبة طويلة امتدت خمس عشرة سنة ، لأتحدث إليكم فى موضوع « إمكانيات الحوار الصادق فى المجتمع العربى المعاصر » . ولذا فإننى أقدم الشكر لاتحاد الحريجين الأمريكيين العرب لتفصله بتوفير هذه الفرصة لى ، بدعوتى للتحدث إلى مؤتمره الرابع المنعقد فى بوسطن .

على أنه لم يكن واضحاً تماماً عندى إن كان المراد أن أتحدث عن إمكانيات الحوار بين المجتمع العربى وبقية العالم ، أو أن أتحدث عن إمكانيات الحوار داخل المجتمع العربى نفسه . ولما كنت أنتمى إلى بلد لم يكف منذ كارثة ١٩٦٧ عن محاولة فتح باب التفاهم مع العالم الخارجى ، ومع ذلك لا يجد أن كل الأطراف المعنية تفهمه بوضوح تام ، فإننى أسلم بأن جهودنا التى لا تكل لإقامة الحوار مع بقية بلاد العالم ليست وضع شك من أحد . وبناء عليه فإننى سأمضى إلى استقصاء الوجه الآخر من الموضوع ، ألا وهو طبيعة التفاهم المتبادل ومداه داخل ما يسمى

بالمجتمع العربى نفسه. ولما كنت لأعرف شيئاً كثيراً عما يجرى داخل البلاد العربية الأخرى ، فإننى سأقصر كلامى على البلد الذى أعرفه أكثر من سواه ، وهو بلدى ، مصر . كذلك فإننى سأحدد نطاق فكرتى عن المعاصرة بحيث تقتصر على أحوال عصرنا منذ ١٩٥٢ ، ولو أنى واثق من أن بعضكم يود منى أن أكون أكثر معاصرة من ذلك .

لو أننا رجعنا إلى السنوات القليلة السابقة لثورة ١٩٥٢ ، وهى آخر أيام القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية تلتها سبع سنوات من الفوضى السياسية والقلق والجروح إلى اللا عقل ، ليس فقط داخل المجتمع المصرى نفسه ، ولكن كذلك بين الدول القديمة والجديدة التى كانت لها من قبل علاقات تقليدية بمصر ، وأهمها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . كانت تلك الفترة فترة اللاتفاهم العظيم : ففى مصر رفض البريطانيون فى عناد سحب جيش الاحتلال ، برغم أن انتصارهم فى الحرب جعل استمرار الوجود البريطانى فى مصر بغرض الدفاع عن النفس أمراً لا معنى له ، فى حين بلغ الشعور الوطنى المصرى نقطة الانفجار . كذلك بلغت الحزازات الطبقية نقطة الانفجار ، عندما رفضت طبقة الباشوات ، يقودها ملك لا يحس بالمسئولية ، فى عناد ، كل محاولة للتصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق إصدار تشريعات عمالية تكون أقرب إلى العدالة . أما رأس المال الأجنبى فى مصر ، وقد كان خلال مائة عام يحتل مركزاً ممتازاً ، فقد رفض فى عناد أن يتخلى عن هذا المركز الممتاز

١٠٩

وأن يصل إلى اتفاق مع البورجوازية المصرية ومع التكنولوجيا المصرية
الناميتين أبدأ ، ومع رأس المال الأجنبي ، كان هناك ثلاثة أرباع
المليون من الأجانب المحليين الذين تشبهوا في عناد باعترافهم في تفوق
أصلهم الأوربي ، وآثروا الخروج من مصر جماعة على أن يستسلموا
في إذعان لمصير المواطن المصري المتجنس ، وهو مصير غير مريح . ولكي
تم السيطرة على كل هذه التوترات الفظيعة ، أقام الملك فاروق خمس
دكتاتوريات : النقراشي وصدقي والنقراشي وعبد الهادي وسري ، التي
توالى في تعاقب سريع . وقد أضافت الدراما الفلسطينية الإسرائيلية
اللمسة الأخيرة في هذه الصورة حين تطورت في الخلفية في سرعة
لاهثة . وأخيراً ولد نقيض الموضوع ، وهو الثورة من الموضوع ، وهو العهد
البائد . وأخيراً استجدت للبلاد الناطقة بالعربية قضية مشتركة تلتف
من حولها ، وأعطى الإحساس بالمصير المشترك معنى ودفعة لفكرة
العروبة .

وفي اعتقادي أنه ينبغي النظر إلى حكومة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢
على أنها آخر محاولة يائسة لإنقاذ العهد البائد الذي كانت دعائمه
القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية . وقد أفضى إخفاؤها إلى نهاية
عصر وبداية عصر آخر . وقد كان ينبغي أن تقوم ثورة ١٩٥٢ في ٢٦
يناير لاني ٢٣ يوليو .

كان ما تحتاج إليه مصر هو قيام نظام قوي يضع حداً للفوضى
وللقلاقل وللبجوح إلى اللاعقل ، نظام في يقدم الحاول لكل هذه

الثورات التي لا سبيل إلى حلها ، نظام يرد لمصر كبرياءها القومي بتخليصها من الاحتلال البريطاني ، نظام يعيد لمصر استقرارها السياسي والاقتصادى بالتعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وإقرار التصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق ترقية تشريعات الطبقة العاملة ، نظام يجعل مصر للمصريين بتصفية المصالح الأجنبية و« الاستيطان » الأجنبي في مصر، وأخيراً نظام يجد حلاً مرضياً لعقدة الدراما الفلسطينية الإسرائيلية نصف المرتجلة. وبوجه عام ، حاول نظام جمال عبد الناصر - لو حكمنا عليه داخل سياقه التاريخي وفي نطاق الطبقة الوسطى الصغيرة التي حددت إمكانياته - تقديم حلول ناجحة لكل هذه الثورات التي لا سبيل إلى حلها ، ولكنه عندما تقدم لحل المشكلة العربية الإسرائيلية ، كان التحدى أكبر من طاقاته . فقد استبان بعد فوات الأوان أنه كان يتعامل مع مجهولات في السياسة الدولية لم يكن معداً لها الإعداد الكافي ، ولكنه أيضاً استبان بعد فوات الأوان أيضاً أنه بالرغم من أنه حل تناقضات عديدة داخل المجتمع قد استحدث تناقضات أخرى لم يستطع حلها لا تقل خطورة واستفحالا في الأبعاد عما حل من تناقضات .

ومن أهم هذه التناقضات التي استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصرى . واختفاء الحوار بالقطع ظاهرة تتميز بها كل الثورات لا الثورة المصرية وحدها . فالثورات في العادة جاعحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، والحوار ، شأنه شأن الديالكتية ،

منهج في الحياة ، وبوصفه منهجاً في الحياة فهو لابد أن يتبع نظاماً وأن يقوم له وجود مؤسس يضمن التأمل والتخاطب والتسامح . والثورات الكبرى في تاريخ البشرية ، كالمسيحية والإسلام والثورة الفرنسية والثورة الروسية ، كانت كذلك جامعة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، ولكنها قامت لتغير أفكار الناس ومعتقداتهم وقيمهم الأساسية ، ولتغير أساليبهم في الحياة . ولهذا فإن تطرفها مغتفر بسبب عظمة رؤيتها . أما الثورة المصرية فهي برغم إقفالها باب الحوار المثمر قد اختارت لأسباب عملية أن تترك بدون إجابة كافة المسائل التي كانت تمرق المجتمع المصري . فهي قد تركت معلقاً بدون إجابة ، ذلك الموضوع التقليدي ، موضوع « صراع القدماء والمحدثين » بأن تركت القديم والحديد يعيشان ويتعايشان ، ولم تكن إلا بإقامة توازن حرج كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الحديد ، خشية أن يكون الحديد أكثر جادة مما يسوغ لها . كذلك تركت الثورة المصرية معلقاً بدون إجابة موضوع الشيوعية والعلمانية كأساس للدولة في مصر . وبينما نجد أن ثورة ١٩٥٢ ، قد قبلت من جميع الوجوه وبجميع المعاني ، بلا تحفظ وفي غير إبهام ، الفكرة التقليدية والتطبيق التقليدي لنظرية الدولة في مصر مند محمد علي بوصفها قائمة على دعائم مدنية وعلمانية ، فإنها بالرغم من ذلك سمحت للفكر الشيوعراطي أن يتغلغل في عقول الملايين من المواطنين بإتاحة المناظر الحرة لذلك النمط من واعظ القرية المتخلف من العصور الوسطى ، ونشر التعاليم البيوريتانية من خلال برامج التعليم ومن خلال أجهزة

الإعلام الجماهيرى . فعندما نسمع نداء « الله أكبر » يتجاوب فى مدينة الألف مئذنة نحسب أن القاهرة غارقة فى حلم من التقوى الشاملة لا يزال يخلق فوق رؤوس الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين ، فى حين أن مشهد المينى جيب والشورت الساخن فى شوارع القاهرة يردنا إلى حقائق الحياة المألوفة فى أية عاصمة عصرية من عواصم البحر المتوسط . وبالمثل فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بدون إجابة موضوع تعريف القومية العربية ورغم أن طوفان العروبة كان فى بعض لحظات شديد التلاطم إلى حد كان ينبغى معه التوصل إلى تعريف ما للقومية العربية يعطى هذه الحركة منطقاً متماسكاً ومقبولاً . وهكذا تركت القومية العربية والوحدة العربية للتأرجح بشدة من شخص لآخر ومن حزب لحزب ، ومن أمة لأمة ، بحيث اشتمل مدلولها على أى شئ من العنصرية السافرة إلى الجامعة الإسلامية ، إلى التأليه الرومانتيكى للثقافة المشتركة ، إلى مجرد التضامن الخالى من الرومانتيكية فى سبيل المصلحة المشتركة . حتى الموقف الرسمى من هذا الموضوع قد تأرجح بشدة بين ثلاثة اتجاهات كانت تسمى يوماً ما بوحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الصف . هذا نفسه ينطبق على الفكرة الاشتراكية نظرياً وفى التطبيق . فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معاقماً بغير إجابة موضوع شكل الاشتراكية المصرية ومحتواها ، أو على الأصح مبدأ تأميم وسائل الإنتاج ، الذى فهمه البعض على أنه رأسمالية الدولة ، فى حين تمنى له غيرهم أن يتطور إلى ملكية الشعب لفوائض القيمة ملكية حقيقية ، وعلى حين أراد له فريق ثالث أن يطابق الفكرة الدينية عن

ملوكوت المؤمنين على الأرض :

كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن تتعايش تعايشاً سلمياً في السنوات العشرين الماضية ، ومضت الثورة تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ ، رافضة أن تلتزم بنظرية محددة . فبدت وكأنها تطبق نوعاً من الحياء الإيجابي على كل هذه النظريات . وبالمثل سمحت الثورة لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسد نفسها في سياسيات وبرامج تطبيقية ، أوحى أن تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة . بعبارة أخرى احتملت هذه النظريات في سماحة ما بقيت نظريات . فلم يكن يسمح بالاستقطاب ولم يكن « التجمع » الايديولوجي موضع رضاء ، وقد حلت صيغة الاتحاد القوي أولاً ثم الاتحاد الاشتراكي ثانياً ، بوصفه « تحالفاً » بين الطبقات . مشكلة الصراع الطبقي والتناحر الحزبي . غير أن الإصرار على رفض مبدأ قيام الاتحاد القوي، أو الاتحاد الاشتراكي بوظيفة الحزب في دولة تقوم على مبدأ الحزب الواحد قد جعل التنظيم السياسي أيضاً عاجزاً أمام الدولة .

كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري . وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التشاتم ، وأن التشاتم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة اللتين ما جاءت ثورة ١٩٥٢ إلا لتجنبهما . وقد بنت قيادة الثورة شرعيتها على مبدأ واحد ، وهو أنها لا تمثل طبقة واحدة ، ولا تمثل مجموعة واحدة من المصالح ، ولا تمثل مجموعة واحدة من الأفراد ، وإنما تمثل الأمة كلها . ومن أجل ذلك كان لزاماً عليها أن تكون

فوق الطبقات وفوق مجموعات المصالح . إلخ .. ولهذا كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن نفسه بالمولودج الصغير المتصل بشخصه ، وأن يعرب عن معتقداته ، وعن شكواه ، وعن احتياجاته داخل الإطار العام للأشياء ، وكانت القيادة الملهمة تصغي باهتمام إلى صوت « الشعب » . وفي هذه النظرة التوحيدية للدولة تصبح إرادة « الشعب » هي مجموع إرادات الأفراد . فكل فرد يقف وحده مع الدولة أو عليها .

وقد مكن هذا النقص في النظرية ثورة ١٩٥٢ إلى حد كبير من أن تتجنب الوقوع في صدامات دموية مع أعدائها ، وهو ما تميزت به الثورات الأخرى إلى حد كبير . فكثيراً ما يكون طغيان الإيمان بعقيدة أو بأسطورة إنسانية أو اجتماعية هو المحرك إلى العنف وسفك الدماء . غير أن هذا النقص نفسه في النظرية ، وهذه الرغبة في التوفيق بين النقاوض وتركيبها بقصد تجنب الصدامات ، هما اللذان أفضيا إلى عجز الثورة المصرية عن أن تهى للشعب المصرى فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثورياً متجانساً في الحياة . فهي قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتدوا على الخطوط العريضة التي أرسنها الثورة . وعلى الأقل حتى دستور ١٩٧١ كان يمكن للمواطن المصرى أن يكون ماركسياً أو أخصاً مسلماً بشرط ألا ينتمى إلى جماعة منظمة ، وبشرط أن يتعاون مع النظام . وقد تركت ثورة ١٩٥٢ أكثر الأشياء للطبيعة ، واعتمدت فقط على قوانين التحول الاقتصادي الصارمة . صحيح أن الناس فقدوا عقلياً العمل بمبدأ «دعه يفكر» حين فقدوا اقتصادياً العمل بمبدأ «دعه يعمل»

لكن صحيح أيضاً أن الفلاح المصرى الذى مسه الإصلاح الزراعى والعامل المصرى الذى مسه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة ، أو أى أسلوب ثورى متميز فى الحياة . وصحيح أيضاً أن مئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن فى عهد الثورة « بقوة الواقع » بسبب تعليم المرأة وتشغيل المرأة ، ولكنهن لم يتحررن بعد « بقوة القانون » ، بل لم ينلن أدنى اعتراف بالمساواة فى مجتمع قائم على سيادة الذكور ، رغم أن الميثاق والدستور معاً قد حرصا على إعطاء المرأة المصرية وضع المواطنة الكاملة .

وقد قامت نظرية الوحدة الوطنية على أساس من نظرية الوحدة الاجتماعية ، وهى ما يسمى أحياناً « بتدوين التناقض بين الطبقات » . وقد قللت هذه من إمكانية الحوار الصادق فى المجتمع المصرى ، ثقافياً كان أو غير ذلك . وكان شعار المرحلة هو الاكتفاء الذاتى ، والاكتفاء الذاتى بنص تعريفه هو نفى لفلسفة الحياة القائمة على « الأخذ والعطاء » فهو على أحسن الاحتمالات يفترض القدرة على أن نعطي من دون أن نأخذ ، على أن نؤثر من دون أن نتأثر ، على أن نصدر من دون أن نستورد . كما أنه كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى المادى أننا كنا نعتقد أن مصر ، التى ظلت آلاف السنين بلداً زراعياً تضرب به الأمثال فى اعتمادها على الزراعة ، قد أصبحت منذ ١٩٥٢ بلداً كامل التصنيع « ينتج كل شئ من الإبرة إلى الصاروخ » كذلك كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى الثقافى أن نعتقد أن الثقافة العربية كانت مكتفية

بذاتها ، على الأقل منذ ظهور الإسلام وسيادة العرب في العصر الذهبي . ولم يكن مجرد افتراض ضمنى وإنما كان موضع تأكيد صريح أن الثقافة العربية كانت تجسد كل ما يستحق الاهتمام من القيم المبتغية الإنسانية والاجتماعية ومن التقاليد ومن المؤسسات المدنية بوصف أن هذه جميعاً نابعة من مبادئ الدين . وقد كانت هناك حقاً مظاهر فساد وانحراف عن الطريق القويم بعد أن استسلم العرب للغزاة الأجانب وتعرض الدين للزنادقات اللعينة الوافدة من مصادر أجنبية . وقد كان الحل هو أن نطهر قيمنا المبتغية الإنسانية والاجتماعية وأن نطهر تقاليدنا ومؤسساتنا الاجتماعية بالرفض الأعظم لكل ثقافة « مستوردة » وأن نبعث الثقافة الدينية الأصيلة الموروثة عن العصر الذهبي في التاريخ العربى . ولا كان الناطقون بالعربية يختلفون في تحديد أى عصر من العصور كان العصر الذهبي في التاريخ العربى ، أهو عصر الرسول والخلفاء الراشدين أم عصر بنى أمية أم عصر العباسيين ، فقد اختلفوا أيضاً حول تحديد شكل هذا البعث العظيم وماهيته .

أما البيوريتان فقد آمنوا بحكومة ثيوقراطية تقوم على البيعة وتؤسس على تفويض السلطة لا على التمثيل النيابى ، كما آمنوا بمجتمع طبقى وبنظام يقوم على تقديس الملكية الخاصة « وبالإحسان » كأداة للعدل الاجتماعى ، وبكافة الفضائل الاقتصادية التقليدية التى تشجبه فلسفة اللذة بكل درجاتها ، من عبادة الجمال السافرة إلى تذوق الفنون الجميلة ، بوصفها من عمل الشيطان ، وهؤلاء آمنوا « بالأطفال والمطبخ والمعبد » — كما كان الألمان

يقولون - كوظيفة للمرأة ، وبفصل الجنسين ، وبوضع حدود لتعليم المرأة . وعندما واجهوا الاشتراكية المخففة التي نص عليها ميثاق عبد الناصر في ١٩٦٢ هاجموها بوصفها زندقة . (وقد كان مما يثير الرثاء أن نرى بعض الماركسيين المصريين ودعاة الاشتراكية العربية ، رغبة منهم في تسكين غضب البيوريتان يحتجون بأن الدين هو ينبوع الذي نبعت منه الاشتراكية ، ولكي يثبتوا حججهم ، كانوا يقتطفون بعض الآيات المقدسة من القرآن مما يندد بغطرسة الأغنياء ويحض على الرحمة بالفقراء ، أو يستشهدون بأبي ذر الغفاري ، وهو فارس من دعاة المساواة عاش في عصر الرسول وكان يطالب بالعدل الاقتصادي في صدر الإسلام) .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتطرفون ، برغم نشاطهم الجهم ونبرتهم العالية ، يمثلون القسم الأكبر من الرأي العام حول الاشتراكية العربية والثقافة العربية . فهم لم ينجحوا إلا في خلق جو جعل القيادة السياسية نفسها والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام تقف موقف المعتذر عن تحديد الملكية الزراعية وعن تأمين وسائل الإنتاج الضخم . وكان الدفاع دائماً ما يقوم على أن هذه الإصلاحات لها سوابق في تاريخنا المجيد وليست مجرد مستوردات من الفلسفات الأجنبية والتطبيقات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك ، كان يقال في تأكيد إن الاشتراكية العربية إضافة إيجابية للنظرية الاقتصادية والسياسية المستوحاة مائة في المائة من الظروف والأحوال العربية . وكانت هناك درجة من الصدق في هذا الاعتراف ! وقد قاتل الماركسيون المصريون وخسروا معركة بأسلة حين حاولوا أن

يشتبوا أن الاشتراكية هي الاشتراكية في كل مكان ، وأنه ليس ثمة شيء اسمه الاشتراكية العربية أو الاشتراكية اليوجوسلافية أو الاشتراكية الروسية ، وإنما هناك فقط « طريق » عربي أو يوجوسلافي أو روسي إلى الاشتراكية . والأرجح أن هذه المعركة الأيديولوجية التي دارت خلال سنتين أو ثلاث بعد إعلان الميثاق ، أي بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ، كانت أكثر تفلسفاً مما يسوغ فهمه للرجل العادي الذي لم يحتجز في عقله من كل هذه الضوضاء إلا فكرة واحدة أساسية تتسق مع مبدأ الاكتفاء الذاتي الذي جاءت به الثورة في مجموعه . هي أن العربي الصالح والمسلم الصالح لا يجوز له أن « يستورد » بضائعه أو ثقافته أو مبادئه الاقتصادية والسياسية . وإنما عليه أن يصنعها بنفسه وفقاً لظروفه واحتياجاته وغاياته . حتى ولو كانت النتيجة شيئاً يختلف تماماً عن التعريفات والمفاهيم المتعارف عليها . هذا المبدأ نفسه ينطبق على الديمقراطية في النظرية وفي التطبيق وعلى النظريات الثقافية والسوسيولوجية كافة .

وهذا الاتجاه في حد ذاته كان يمكن أن يكون أساساً براجماتياً صحيحاً للفكر النظري وللتطبيق العملي لولا أن تأليه الذات القومية وتقديس الثقافة القومية والتجربة القومية والأسلوب القومي في الحياة قد أفضى إلى أننا فرضنا العزلة على أنفسنا بأنفسنا وإلى أننا عجزنا عن التفاهم مع بقية بلاد العالم . وقد كانت هذه هي محنة مصر الحقيقية قبل ١٩٦٧ : إنها كانت تحيا في حالة مونولوج متصل ، عاجزة عن الإرسال عاجزة

عن الاستقبال . وقد تغير هذا الاتجاه تغيراً ملموساً منذ كارثة حرب
يونيو .

وقد أدى الاعتقاد في أن الثقافة العربية مكتفية بذاتها إلى توقف
التواصل مع الثقافات الأخرى ، ولا سيما الثقافة الغربية التي كانت تقايدياً
خلال القرنين الماضيين مفاعلاً جوهرياً في نهضة البلاد الناطقة بالعربية ،
ففي مصر خلال عشر سنوات كانت دراسة اللغات الأجنبية ينظر إليها
رسمياً وشعبياً على أنها من البقايا الكريهة المتخلفة من العهد البائد الذي
اشتهر باعتماده المشين على الدول الإمبريالية والاستعمارية ، ولا سيما
بريطانيا وفرنسا . وفي برامج التعليم اختصر تعليم الإنجليزية اختصاراً
مخلاً ، وغدت اللغة الإنجليزية مادة اختيارية يجوز للطلاب أن ينجح
فيها أو يرسب . بعد أن كانت اللغة الأجنبية الأولى الإلزامية طوال
السنوات الخمس في التعليم الثانوي . أما اللغة الفرنسية فقد ألغيت تماماً
أو أوشكت . وكانت نتيجة ذلك أن أجيالاً وأجيالاً من الشباب كانت
تلتحق بالجامعات المصرية بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية
شيئاً ذا بال . وفي الوقت نفسه ، لأسباب مختلفة اضطرب وپرود الكتب
والدوريات والجرائد الإنجليزية والفرنسية اضطراباً عظيماً بعد أن
كان سيلاه متصلاً . ومنعت الدولة الدراسة في الخارج للأبحاث الدكتوراه
في عدد محدود جداً من المجالات العلمية . وقصر السفر إلى الخارج
على العلاج الطبي والمهمات الرسمية ، وأخضع لإشراف الدولة . كذلك
كان الاتصال بالأساتذة والخبراء والصحفيين بل والسياح الأجانب لا يقابل

بالرضا . وبعد أن غادر مصر ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين في هجرة جماعية في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ طراً تغيير مفاجئ وتام على المناخ الثقافي والاقتصادى والاجتماعى . قلم تعد القاهرة والإسكندرية مدينتين « كوزموبوليت » حتى قبل حرب السويس في ١٩٥٦ بفترة طويلة . ولاشك أن الثورة كان لديها من الأسباب القوية ما يجعلها تبالغ في تأكيد اكتفاء مصر الذاتى في الثقافة القومية ، ولكن النتيجة كانت عزلة مصر الثقافية دون أن يتولد لديها الإحساس بالعزلة . ونحن لم نبداً نحس بالحاجة إلى مزيد من الحوار الثقافى الصادق مع بقية بلاد العالم إلا منذ عام ١٩٦٧ .

والآن ما هو الموقف منذ ١٩٦٧ ؟ لقد دار بيننا التفتيش في أعماق النفس على أوسع نطاق منذ هزيمتنا في حرب الأيام الستة . وقد أدرك الكثيرون منا أن مواجهتنا مع إسرائيل ليست مجرد مواجهة عسكرية ولكنها مواجهة بين شكلين من أشكال الحضارة . ومن هنا كان اعترافنا على كل مستوى بأن علينا أن ندعم أسس الدولة العصرية في مصر ، وأن نقيم الحوار الثمر بيننا وبين بقية بلاد العالم ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، ولكن من الناحية الثقافية كذلك . والظروف الآن تبدو ، على الأقل ظاهرياً ، مناسبة لإجراء هذا الحوار الثقافى الصادق مع الغير وداخل المجتمع المصرى نفسه . فإحساس المغرورين باكتفائنا الذاتى يتلاشى الآن بسرعة عظيمة ، ويبدو أننا مقبلون على فترة من مراجعة معتقداتنا الأساسية ونمطنا التقليدى في الحياة واسعة المدى . وليس أدل

على هذا من القلق العام الذى يعيش فيه المثقفون المصريون اليوم . ومع ذلك فالمستقبل وحده هو الذى سيكشف إن كان القلق الحالى سيفضى إلى منهج جدلى إيجابى فى الفكر والسلوك أم إنه سيكشف فينا شعور المارد الهائج المحاصر . ففى اعتقادي أن الكثير يتوقف على بلاوغ حل عادل لمحتتنا الراهنة ، فالناس فى قمة الغضب عاجزون عن الحوار المنطقى .



الفصل الثامن

مصر

ما وراء البحار

كان أهم ما عنيته به في أثناء رحلتي الأمريكية أمران : دراسة أحوال المصريين المقيمين في الخارج ، وأكثرهم من الأمريكيان المهاجرين ، ثم جمع الانطباعات عن رأى الأمريكان في حل الصراع العربى الإسرائيلى القائم . وقد أتاحت لى تنقلاى الواسعة عبر عشرة آلاف ميل داخل أمريكا وبين اثنتى عشرة جامعة فى اثنتى عشرة مدينة أن ألتقى بالمئات والمئات من الناس على كل مستوى وأن أناقشهم أو أن أسألمهم فى هذا الموضوع وذلك . وكان أكثر من قابلت طبعاً من الأساتذة والطلاب ، ولكنى التقيت كذلك بعدد من الفنيين والمهنيين كالمهندسين والأطباء وبعدد من رجال الإعلام من صحفيين وإذاعيين إلخ .. كما التقيت بعدد من العاملين فى الأمم المتحدة . ومن هؤلاء جميعاً جمعت انطباعاتى عن هذين الموضوعين .

وفى كل بلد نزلت به كان هناك مصريون مهاجرون فى انتظارى أو فى انتظار أن ألتقى بهم على موعد ، فقد كنت حريصاً ، وكانوا حريصين على ترتيب هذه اللقاءات . وكانت اللقاءات تجرى عادة فى

١٢٣

صورة حفلات استقبال ، ومن هؤلاء المهاجرين من كانوا أصدقاء أعزاء لى رى هم الزمان إلى تلك الشيطان البعيدة . وفى كل مرة كنت ألتقى بجماعة من المصريين المهاجرين كنت أحس بالحزن الشديد ، فقد وجدت أكثرهم مصابا بعاهات نفسية كلها من حب مصر . ومن هؤلاء من كان شغله الشاغل . برغم حصوله على الجنسية الأمريكية ، أن يثبت لى أنه مصرى أكثر منى وأنه يعرف مصر أكثر مما أعرفها . ومنهم من حصل على الجنسية الأمريكية وهو يستحى أو يخاف أُمَامى أن يقرر ذلك فتراه ينكرها بشدة . ومنهم من يشكو لك القنصلية المصرية لأنها ترفض منذ عشر سنوات تجديد جواز سفره المصرى . ومنهم من يشكو لك وزارة الداخلية المصرية لأنها لا تغنى منذ عشر سنوات بأن ترد على طلبه بالإذن له بالعمل فى الخارج ومنهم ومنهم . لكل منهم قصة ولكل منهم قضية ولكل منهم مشكلة مع مصر . كلهم يتحرق لزيارة مصر حيث أهلله وصحبه وعظام أجداده . وربما بعض المصالح المعلقة . وأكثرهم يخشى أن يزور مصر فلا يؤذن له بتأشيرة خروج . هذا بسبب الضرائب وذاك بسبب الخدمة العسكرية والثالث بسبب إذن العمل والرابع بسبب نفقات الدراسة التى تطالب بها إدارة البعثات ، إلخ .

وكنت دائماً أسأل كل من أصادفه ، هل أنت سعيد فى أمريكا ؟ فيكون الجواب دائماً : نعم ، ولكن فيما يشبه التأوه على شىء ضائع هو نفسه الضائعة . ووجدت أكثرهم لا ينقصه شىء من ماديات الحياة : الفيلة والسيارة والأثاث المريح والدخل الكافى والعمل الناجح ، ومع ذلك فهو فى

قرارته يخفى قلقاً مكبواً يطفح من حين لحين . هذا بسبب بناته اللاتي بلغن سن الزواج وحو لا يريد لهن أن يتزوجن من شبان أمريكيين ، وذلك لأن صديقاً له قتل في حادث سيارة فدفن في أرض غريبة بغير شعائر دينه ، وهكذا . ويبدو أن الدفعات الأخيرة من المهاجرين المصريين الذين نزحوا إلى أمريكا بعد حرب يونيو كانوا أقل توثيقاً في الحصول على أعمال تناسب مع مؤهلاتهم . فكانوا يقبضون أية وظائف تعرض عليهم مهما كانت تافهة من أجل لقمة العيش ، وقد عمل منهم عدد غفير في وظائف الحراس في المخازن والجراجات وما إليها ، ومع ذلك فالمصريون المهاجرون برغم مايلم بهم من هموم العيش في وطنهم الجديد لم يفقدوا روح الفكاهة المصرية .

وقد بدأ المهاجرون القدماء يحسون بأن عليهم واجباً نحو المهاجرين الجدد ، كما بدءوا يحسون بضرورة التجمع والترابط ، وهم الآن يحاولون إنشاء جمعية من الأمريكيين المصريين تكون لها فروع في كافة بلاد أمريكا حيث يتجمع المصريون .

إ سألت صديقاً يدهل في الأمم المتحدة : هل هناك إحصاء بعدد المهاجرين المصريين ؟ أجابني : يرجح العارفون أنهم نحو ربع مليون في العالم كله ، توزيعهم كالاتي : ٨٠ ألفاً في كندا ، و ٨٠ ألفاً في الولايات المتحدة ، و ٨٠ ألفاً في أستراليا وبقية بلاد العالم . قال يحيى أبو بكر عندما قابلته في نيويورك : هذا تقدير مبالغ فيه . إنهم لا يتجاوزون ١٠٠ ألف في العالم كله . وعندما عدت إلى مصر اطلعت على بعض

التقارير المتصلة بموضوع المهاجرين المصريين ، ومنها مطبوعات الجهاز المركزى للإحصاء وتقارير مدير إدارة المهاجرين بوزارة الخارجية المصرية فانتهيت إلى أن مصر ليست لديها أية معاومات يقينية عن عدد أبنائها العاملين في الخارج . فلو أننا اعتمدنا على حصر من حصلوا على ترخيص من وزارة الداخلية بالعمل في الخارج لوجب أن نضيف إليهم عشرات الآلاف ممن تقدموا بطلب التصريح ولم يجابوا إلى طلبهم سواء بالصمت أو بالرفض الواضح أو بالرفض المؤجل لوجود عيب شكلى في علاقتهم بالحكومة المصرية ، ووجب أيضاً أن نضيف إلى هؤلاء عشرات الآلاف من المصريين الذين تسالوا إلى الخارج في سياحة أو في مهمة وهمية مؤقتة أو تحت ستار العلاج أو أى ستار آخر ، أيام أن كان السفر إلى الخارج شيئاً قريباً من المحظورات ، ثم رتب أمر هجرته وهو خارج مصر خشية أن يحال بينه وبين مغادرة البلاد . وإذا نحن اعتمدنا على عدد تأشيرات الإقامة والهجرة التى منحتها كل قنصلية أجنبية في مصر للذواتين المصريين كأساس للإحصاء وجب أن ندخل في الاعتبار حالات عشرات الآلاف من المهاجرين الذين لا تعرف القنصليات الأجنبية في القاهرة عنهم شيئاً إلا أنهم كانوا يوماً ما سياحاً أو طلاب علم أو زائرين مؤقتين ، فهؤلاء رتبوا أمور هجرتهم أو إقامتهم الدائمة خارج الأراضى المصرية . كذلك لا يمكن أن يعتد بعدد المصريين المقيمين في الخارج الذين يتقدمون موسميّاً إلى القنصليات المصرية في مختلف بلاد العالم لتجديد جوازات سفرهم - لأن هناك عشرات الآلاف من المصريين الذين

اكتسبوا الجنسيات الأجنبية وأهملوا تجديد جوازاتهم المصرية ، لا زهداً في جنسيتهم المصرية ولكن كرها في التعامل مع البيروقراطية المصرية في مصر والخارج بعد أن يتسوا من التفاهم معها بسبب جمود القوانين والوائح المصرية المطبقة عليهم .

بعبارة أخرى ليست هناك وسيلة واحدة بعينها نستطيع أن نحصر بها عدد المصريين المهاجرين والمصريين المقيمين في الخارج إقامة متصلة وإنما لا بد من اللجوء إلى خمس أو ست وسائل ربما كان في مقدمتها البحث الميداني . أو البحث على الطبيعة ، في مختلف بلاد العالم . وسواء أكان عدد المصريين المهاجرين أو المقيمين في الخارج ربع مليون أو مائة ألف . فهذا العدد في الحالين عدد رهيب ، وهو يجعل من اغتراب المصريين مشكلة قومية يجب أن تدرس على مستوى المسؤولية سياسياً واقتصادياً وثقافياً ولا يترك أمرها لمجرد موظفين يبروقراطيين يطبقون قوانين ووائح أكثرها وضع في ظروف غير طبيعية أو كان برغم سلامته ينفذ في جو غير طبيعي . فإذا عرفنا أن عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين والمغتربين ينتمون إلى طبقة المهنيين والفنيين كالأطباء والأساتذة والمهندسين أدركنا أن النزيف الذي نزفته مصر سنوياً عبر عشرين عاماً من خبرتها المهنية والفنية بل والمالية كان غزيراً حقاً . ولا أظن أن السبيل الحقيقي إلى وقف هذا النزيف هو المنع والحظر والنهي والحد من حرية التجول ، لأن هذه الإجراءات قد أثبتت تجربة الأعوام والأعوام أنها هي التي أفضت إلى هرب الآلاف المؤلفة من الخبرات المصرية إلى الخارج . وأنا

شخصياً أعرف نحو مائة حالة مرفقة شخصية قرر أصحابها الإقامة المتصلة في الخارج ، بل اكتساب الجنسيات الأجنبية أحياناً ، خشية أن يعودوا إلى مصر فتمنع عنهم تأشيرة الخروج ، فيحال بينهم وبين دراساتهم العليا أو بين أعمالهم التي يزاولونها في الخارج . وإنما يكون وقف هذا التزيف بدراسة الأسباب التي أفضت إليه وتفضي إليه ومحاولة إيجاد علاج له .

وقد كنت أدأب على طمأنة كل من أعرف ومن لا أعرف من المصريين في الخارج إلى أن المناخ العام قد تغير من هذه الناحية في مصر تغيراً محسوساً ، وأحسهم على زيارة مصر التي يتحرقون إلى زيارتها . ومع ذلك كنت أحس بأن إحساس المطارد لم يفارقهم منذ تلك الأيام التي كانوا فيها بالفعل مطاردين من مكاتب البعثات ، وكانت تهددهم بالويل والثبور لأنهم تجاوزوا فترة البعثة المقررة ، ومن القنصليات المصرية التي كانت ترفض تجديد جوازات سفرهم . وكنا بعد كل مناقشة حزينة ننتهي إلى هذا السؤال : كيف تضمن لنا العودة إلى أعمالنا ؟ لا تضمن هذا إلا قرار من رئيس الجمهورية أو من مجلس الوزراء ينظم من جديد علاقة المصريين المقترين بما يسمونه هناك وأسفاه ، « الوطن الأم » . يقصدون « مصر » . لقد كنت أؤثر أن نسمى نحن أبناءنا المقترين في أرجاء العالم الأربع « مصر ما وراء البحار » . وأنا شخصياً لا أحب كلمة « المهاجرين » وأفضل أن ننظر إلى جميع أبنائنا النازحين عنا على أنهم مصريون مقيمون في الخارج ، إلى أن يتنازلوا باختيارهم التام عن

جنسيهم المصرية :

واعتقد أننا يجب أن ننظر إلى موضوع أبنائنا المقيمين في الخارج بعقلية جديدة ونفسية جديدة ، فثلهم عندى مثل الابن أو البنت في الأسرة إذا تزوج من أجنبية أو من غير دينه أو تزوج على هواه : هل تبتره الأسرة بترأ وتبترأ منه أو تحاول أن تقبل منطقته وتحترم إرادته وتقيم الود معه موصولا ؟ فى المنطق التقليدى المحافظ طبعاً تنبذه الأسرة وتلعنه وتطرده طرد الكلاب . أما فى المنطق المتمدن فهى تحاول أن تقيم معه علاقات متضجرة مهما كان أسفها لقراره وأيا كانت بواعث هذا الأسف . فما بالنا إذا كانت الأسرة نفسها فى كثير من الأحيان هى المسئولة عن هذا الخطأ — إن كان هذا خطأ — بتزمتها أو رجعيها أو تفتيرها على أبناء من دون أبناء أو عدم تقديرها لمشكلات المراهقة أو . . أو . . إلخ . . وقد ارتكب بعض المسئولين فى حق بعض المصريين المقيمين فى الخارج أخطاء أدت إلى هذا الانسلاخ الفظيع الذى غير مجرى حياة عشرات الآلاف من أبناء مصر وجعلهم يقررون الإقامة فى الخارج بل فرض عليهم فرضاً الإقامة فى الخارج .

خذ مثلاً حالة طالب البعثة أو الإجازة الدراسية يفصل من بعثته ومن عمله فى مصر بسبب تجاوزه المدة المقررة لبعثته أو إجازته الدراسية لتلكته فى العودة إلى مصر بعد انتهاء دراسته ، أيا كانت أسباب هذا التجاوز أو التلكؤ ، مشروعة كانت أو غير مشروعة . بالطبع هذا يربط مسئولية مدنية على طالب البعثة أو الإجازة الدراسية أن يرد للحكومة



المصرية الأموال التي أنفقتها على تعليمه في الخارج ، هذا حق مدني واضح وصريح ولا يجادل فيه اثنان ، ويمكن للدولة أن تحصل عليه بحكم قضائي بسيط قابل للتنفيذ في مصر على أموال المبعوث الآبق إن كانت له أموال . ولكن ما علاقة هذا الحق المدني بسحب صفة المواطنة سحباً عرفياً وفعلياً عن المواطن المدين للدولة سواء أقام داخل البلاد أو خارجها ؟ لقد كانت قنصلياتنا في زمن ما ترفض تجديد جواز سفر أى مصرى يفصل من دراسته أو من عمله أو لا يعود إلى مصر فور إخطاره بالعودة ، وهو إجراء غير دستوري قائم على بعض القرارات الإدارية الحمقاء التي اتخذها مسئولون غير مؤهلين لتحمل مسئوليات مناصبهم ، لأن إلغاء جواز سفر أو سحبه أو تعطيل فاعليته ينطوى على درجة من درجات إسقاط الجنسية عن المواطن ، واسقاط الجنسية بنص الدستور لا يكون إلا وفقاً لأحكام القانون . ولا أعتقد أن هناك قانوناً من قوانين مصر يجيز إسقاط الجنسية المصرية عن المصريين المدينين للحكومة أيا كانت طبيعة هذا الدين . وفي اعتقادي أن أى مواطن في الخارج رفضت القنصلية المصرية - التابع لها - تجديد جوازه لـ أى سبب من الأسباب إلا صدور قرار رسمي من الجهة المختصة بإسقاط الجنسية المصرية عنه يستطيع أن يحتكم إلى القضاء ويطالب الحكومة بالتعويض الكافي عن الأضرار المادية والأدبية التي وقعت عليه بسبب تشيته في بلاد الأرض بلا هوية أو مواطنة وحرمانه من رؤية آله وعياله ورعاية مصالحه في مصر إن كانت له مصالح . وفي رأبي أن الحالة الوحيدة التي يجوز للسلطات

فيما أن تسقط الجنسية المصرية عن المواطن المصري غير الإدانة بالخيانة العظمى بحكم القضاة الطبيعيين هي الفرار من الخدمة العسكرية أو رفض القيام بها عن إصرار وتبنييت يتأكدان أمام القضاء الطبيعى . أما مادون ذلك فحقوق والتزامات مدنية أو جنائية لا علاقة لها بصفة المواطنة أو بالجنسية التي يولد بها كل مصرى كما يولد بلون جلده وبشكل عينيه وبطول قامته ولم يمنحها أحد لأحد . وما منحه الله لا يأخذه الإنسان .

وفي اعتقادى أنه ينبغى النظر إلى أبنائنا المقيمين في الخارج . عاملين كانوا أو غير عاملين ، لا على أنهم مهاجرون وإنما على أنهم « مصريون مقيمون في الخارج » حتى ولو اكتسبوا جنسيات بلاد أخرى لتصريف معاشهم إلا من طلب باختياره التنازل عن جنسيته المصرية . وبهذا المنطق ينبغى أن نسوى بين المصرى المقيم في أوروبا أو أمريكا أو استراليا إلخ . وبين المصرى المقيم في أية دولة من الدول العربية . فما دامت الحدود السياسية قائمة بين الدول العربية فاعتقادى أنه خدش لدستور البلاد الذى نص على أن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات ، التمييز في المعاملة بين مواطن مصرى مغترب يعمل في أوروبا أو أمريكا ومواطن مصرى مغترب يعمل في السعودية أو الكويت أو الجزائر ، فتعامل الأول معاملة المهاجر في حين نعامل الآخر معاملة المصرى المقيم في الخارج ، ونسقط الجنسية عن الأول أو نكرهه على التنازل عنها بحيث لا يعود إلى مصر إلا عودة الأجنبى ، على حين نحفظ للآخر كافة حقوق المواطنة ، بل إننا بذلك نعاقب أبناءنا الشجعان الذين لم يتهيبوا

من التحدى الأكبر ، وهو أن يبحثوا عن الرزق والمستقبل بين أقوام أعلى منا حضارة ولا مكان بينهم لأجنيبي إلا إذا كان ذا قدرات خاصة تحتاج إليها مجتمعاتهم ، ونسحو مع أبنائنا الذين يمشون في دروب ممهدة وبين أقوام تكفى فيها الخبرة المأوفة لأنها ناقصة في أكثر الخبرات . وقد التقيت بتلامذة لى يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها في مدارس إنجلترا وأمريكا للطلبة الإنجليز والأمريكان ، وعندى أن مهمة هؤلاء أشق عشر مرات من مهمة أولئك الذين يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها في مدارس العراق أو الكويت أو الجزائر . ومع ذلك تركت الأولين يشكون مشكلاتهم المصرية في حين يعمل الآخرون تحت جناح مصر ورعايتها .

والمهم في كل هذا أن نتوصل إلى الحلول الحاسمة التى تريح كل أبنائنا المبعثرين هنا وهناك وفي كل مكان . وأقترح في سبيل ذلك العمل بالمبادئ التالية :

١ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم في الخارج لأى سبب من الأسباب للعمل أو لغير العمل ، للعمل بتصريح أو بغير تصريح ، من تجديد جواز سفره ، إلا في الحالات التى تتوفر فيها أركان إسقاط الجنسية ، وأن يكون القرار المذكور بأثر رجعى .

٢ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم في الخارج من العودة إلى محل إقامته بعد زيارته لمصر لأى سبب من الأسباب وبأية حجة من الحجج .

١٣٣

٣ - أن يصدر قانون بأثر رجعي يسمح لأبنائنا المقيمين في الخارج الجمع بين جنسيتهم والجنسية التي يكتسبونها لكسب عيشهم بحيث لا يفقد « المصري المقيم في الخارج » جنسيته المصرية إلا إذا تخلى عنها بمحض إرادته أو أدين قضائياً بتهمة التمرب من الخدمة العسكرية .

٤ - أن تنشأ بكل سفارة مصرية في الدول التي يتجمع فيها المصريون المقيمون في الخارج إدارة للمغترب بين تتولى حصر أسماء المقيمين في الخارج وأعمالهم ووسائل الاتصال بهم وتنظيم علاقاتهم بمصر ، كما تتولى رعاية الجمعيات والوادي التي ينشئها المصريون المقيمون في الخارج ، وتتولى تنظيم تعليم أبنائهم اللغة العربية ومبادئ الدين والتاريخ القومي .

٥ - أن تحصن بقوة القانون أموال المصريين المقيمين في الخارج المودعة لدى البنوك المصرية بحيث لا يعزف المصري المغترب عن إيداع أمواله في البنوك المصرية خشية أن تعصف بها تقلبات القوانين .

٦ - أن يصرح للمصريين المقيمين في الخارج بتملك الأقطان الزراعية والعقارات وأن يستثمروا في الاقتصاد المصري داخل مصر وخارجها حتى ولو كانوا قد اكتسبوا جنسية أخرى ، ولا يحظر عليهم إلا التصرف فيها بالبيع أو التنازل لأشخاص أو هيئات لا تحمل الجنسية المصرية .

٧ - أن يصدر قرار ينص على أن كل مصري مقي في الخارج يتقدم بطلب للإذن له بالعمل في الخارج ولا يصله رد من الجهات المختصة

عن طريق قنصليته خلال شهرين من إيداعه الطلب يعد طلبه مقبولا بصفة تلقائية ، وإنه في حالة الرفض يجوز له الاحتكام لمجلس الدولة في دائرة للأمر المستعجلة تنشأ خصيصاً للفصل في هذه الأمور وأمثالها . أما المواطنون المقيمون في مصر فتختصر المهلة إلى شهر واحد . مع تمتعهم بحق اللجوء إلى محكمة القضاء الإداري .

هذه بعض التيسيرات التي يمكن أن نقدمها لأبنائنا المقيمين في الخارج ، أن نجعلهم يحسون من أعماق قلوبهم بأن مصر لا تزال وطنهم ، لا مجرد وطنهم الحائى عليهم برخيص العواطف التي لا تكلف شيئاً . ولكن وطنهم الذي يملكون تراه كما نملكه نحن المواطنين المقيمين . وأنا لست مع المغالين الذين يقولون « ما يبقى على المداود غير شر البقر » فهؤلاء يذهبون إلى النقيض الآخر في تمجيد الحياة خارج حدودنا ، وإنما أقول إن أبناءنا المقيمين في الخارج لا هم « خونة » ولا هم « خير البقر » . وإنما هم مجرد مصريين طموحين بالفعل أو بالوهم إلى حياة أفضل ، أو مصريين قلقين تولد عندهم شعور بالاضطهاد أو الاحباط بالفعل أو بالوهم . ولو أردت أن « تفرز » فصائل الصادقين لخصصت لكل سيرة ملفاً جسيماً تنوه في أوله ومنتهاه . وبين هؤلاء وأولئك اندست النسبة المأوفاة من المغامرين ومن الشواذ ممن تجدهم في أى مجتمع من المجتمعات ، فلنقل إنهم أبناءنا يبحثون عن حظهم في الحياة ولنتمن لهم التوفيق أينما يذهبون .

المهم في كل هذا أنه لا ينبغي أن نسمع مصرياً في الخارج يقول لك :

١٣٥

عمرى الآن ٤٤ سنة . تخرجت بتفوق فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام كذا وأردت أن أتم دراسة الدكتوراه فى النمسا فرفض طلبى فى البعثة ورفض طلبى فى أن أتعلم على نفقتى ، فتوسلت إلى السفر المؤقت إلى فيينا وأنا فى الخامسة والعشرين ، وهناك أتممت علومى بامتياز بعد أربع سنوات فصأت فى أثنائها من عملى فى مصر ، فعينتنى جامعة فيينا مدرساً بها سنوات . ثم عينت أستاذاً بجامعة كذا فى الولايات المتحدة سنوات ، ثم عينت مديراً لمصانع كيميائية بمدينة كذا سنوات ، ثم عرض على كرسي الكيمياء فى جامعة كذا بمرتب ٣٠ ألف دولار سنوياً . وميزانية أبحاث مشابهة ، فقبلت العرض برغم أن دخلى من إدارة المصانع كان يربو على دخلى من الجامعات فأنا أحب التدريس . وفى كل مرة كنت أطلب تصريحاً بالعمل فى الخارج فلا يأتينى رد . وأصحاب العروض طبعاً لا يستطيعون انتظار الحكومة المصرية . . . وكلما أردت تجديد جواز سفرى ، قالوا : لا بد من شهادة المعاملة ، أو قالوا لا بد من إذن عمل . لكم أحب أن أزور مصر وأهلى . وهنا تقول : وماذا يمنعك ؟ فيجيب : وهل تضمن لى تأشيرة الخروج ؟ إن جامعتى لا تستطيع أن تنتظر . وحاولت أن أشرح له أن الأمور قد تحسنت من هذه الناحية . وبدا عليه الاقتناع ، غالباً ليس بسبب كلامى ، ولكن بسبب ما يقرؤه فى الصحف الأمريكية عن تغير المناخ فى مصر .

وتسمع آخر يقول لك : أنت تعرفنى وتعرف زوجتى . نحن الآن

فى الخمسين .. كنا من أوائل خريجي كلية الآداب فى أثناء الحرب .
أكلوا حتى وحققها فى البعثة نحو ١٥ سنة برغم أننا انتهينا إلى التدريس
فى جامعة عين شمس ، وأخيراً حصل كل منا على إجازة دراسية فى
أمريكا وكنا فى نفس الجامعة فتزوجنا . وأنت تعرف مرات مرات مصر الضئيلة .
كانت تحول لنا فلا تكفى ، واضطررنا للتدريس فى المدارس الثانوية
الأمريكية لنكمل دخلنا فتعطلنا سنتين ، ثم انتقلنا إلى إنجلترا لأنها أرخص
وفى تعطلنا سنة أخرى . وطلبت جامعة عين شمس منا العودة فوراً وكل منا
على بعد ستة أشهر من الدكتوراه ، فلما لم ننفذ الأمر وطلبنا المد فصلنا معاً .
وقد حصل كل منا على الدكتوراه واشتغلنا فى إنجلترا . ومنذ فصلنا وتجديد
جواز سفرنا أصبح مشكلة . طلبنا إذن عمل فلم يصل إلينا رد . ماذا نفعل ؟
هل نتصور جوعاً فى انتظار رد الحكومة ؟ طبعاً لا . إنهم يطالبوننا برد
ما أنفق علينا ، ولكنهم نسوا أن لكل منا معاشاً مستحقاً عن خدمة عشرين
سنة . ونحن على استعداد لإجراء مقاصة وتقسيط ما يتبقى علينا ديناً
للحكومة . لماذا يرفضون تجديد جواز سفرنا ؟ ماذا جئنا ؟ لقد دفعونا
دفعاً إلى طلب الجنسية البريطانية . لكم نتمنى أن نزور مصر ، ولكننا
نخشى أن ندخل فلا نخرج

صورة رهيبة عن مصر عند المصريين المقيمين فى الخارج ، ولن
يفلح فى إلزاتها إلا صدور قوانين وقرارات رسمية على أعلى مستوى
لتعديد الطمأنينة إلى النفوس . إن بعضهم - ربما أكثرهم - يعرف فعلاً
أن هذه التخوفات لم يعد لها ما يسوغها . فإخوانهم فى ظروف مشابهة

يدخاون الآن ويخرجون فلا يتعرض لهم أحد ، ولكنهم يحسبون أن كل هذا التغير فى المناخ مجرد تغير فى العقلية والاحراءات الإدارية وليس محصناً بالقرارات والقوانين . بعبارة أخرى هى سماحة فردية مقترنة بظروف فترة تاريخية معينة ، وقد تنقلب السماحة إلى جهامة بين يوم وليلة . لأنهم باختصار يأملون فى تنظيم لأحوال المغتربين له قوة الدساتير ، وليس رهينا بالقرارات الإدارية .

وهذا ما ينبغى أن نسعى لتحقيقه . أن نجعل المصريين المقيمين فى الخارج يتجولون فى أرض مصر محررين من الخوف كما يتجولون فى أى أرض غربية

أعرف أستاذاً مصرياً فى جامعة أمريكية يقضى إجازته السنوية كل عام مع أسرته فى قبرص أو فى لبنان أو فى إيطاليا ، يحوم حول مصر من بعيد دون أن يجرؤ على الدخول اتقاء للمجازفة . وأعرف آخرين قالوا لى فى حزن عميق : لن نموت فى بلاد الغرب . إننا عائدون . وعندما نقرب من سن الشيخوخة سوف نرجع إلى حيث جئنا لنموت على ضفاف النيل العظيم .

ألم يكن هذا ما يفعله الإنجليزى أو الفرنسى حين كان يقضى عامة حياته موظفاً أو تاجراً أو صانعاً فى مصر والسودان أو فى مجاهل إفريقيا ، وبعد أن تنقضى حياته العملية كان يتقاعد فى بلاده حيث تنتظره دارة الريفية ورصيده فى البنك وذكريات حياته الحافلة بكل الألوان ؟ ولماذا لا نمهد منذ الآن لعودة المستوطن المصرى فى نأى البلاد بعد أن يستوفى أجل

جهاده من أجل الرزق إلى صدر أمه الحنون التي تحمل همه في حضوره
وفي غربته وتتبعه بعيون ملهوفة في الحل والترحال ؟ فإن شاء بعد كل
هذا أن يتخذ لنفسه داراً غير داره وقوماً غير قومه مأبياً ، جاده الغيث
إذا الغيث همى أينما دبت قدماه أو ارتاح رميحه في رحاب الله الواسعة .



الفصل التاسع

المسألة المصرية

عفواً إذا تكلمت في السياسة ولكنه شيء لا مفر منه بعد رحلتي الأمريكية .

كان الموضوع الآخر الذي اهتمت به في أثناء زيارتي لأمريكا بعد دراسة أحوال المهاجرين المصريين ، هو دراسة آراء الأمريكيين في الصراع المصري الإسرائيلي بصفة خاصة ، وفي الصراع العربي الإسرائيلي بصفة عامة . والحق أني كنت أينما ذهبت في أوروبا ثم في أمريكا أجد هذا الموضوع يطرح نفسه من تلقاء نفسه .

ولم يكن في الكلام أية درجة من درجات الغموض هنا أو هناك . كانوا في فرنسا واضحين ، وكانوا في إنجلترا واضحين . كذلك كانوا في أمريكا أوضح من الوضوح . وقد سبب لي هذا الوضوح حيرة حقيقية لأن بعض ماشاع بيننا في مصر من آمال متفائلة حول إمكانيات التوصل إلى حل سلمى مع العدو الإسرائيلي لا يمكن استخلاصه بتاتا مما سمعت من آراء في أمريكا وفي غير أمريكا . فمن أين جاء اللبس إذن ؟

هناك تفسيران : إما أن هناك مشكلة لا تفاهم لغوى حقيقى بيننا وبين الأمريكيين : يقولون شيئاً فنفهم شيئاً آخر لا ختلاف عاداتنا عن

عاداتهم في التعبير ، وإما أن الأمريكيين ، حينما كانوا يخاطبوننا في أمر التسوية السلمية كانوا يستخدمون لغة مبهمة ملفوفة تحتل أكثر من تخريج ، لغرض في نفس يعقوب أو لمجرد ترك باب الحوار نصف مفتوح .

وللقوم هناك عادات في التعبير تحتاج إلى معرفة خاصة ، لأنها وليادة تمرس حضارى معقد عبر مئات السنين . فهم إذا أرادوا مثلاً أن يرفضوا لك طلب استخدام بطريقة مهذبة فرمما قالوا : إن مؤهلاتك أعلى من الوظيفة المطالبة ، والمقصود طبعاً في بطن المتكلم أنك ستكون — لو استخدمناك — موظفاً قلقاً متذمراً ساخطاً مشاغباً لا يشتغل بأداء عمله بقدر ما يشتغل بالمطالبة بتصحيح وضعه و«المريسة» على أقرانه ، فنفهم من الكلام أنهم يعظمونك ، وهم في حقيقة الأمر يغلقون الباب في وجهك وهكذا .. ولكن هناك أيضاً احتمالاً آخر قوياً ، وهو أن أمريكا منذ البداية ضالعة في المخطط الإسرائيلي بحيث أنها سخرت نفوذها الشخصي لوقف إطلاق النار بقصد تدجيج إسرائيل بالسلاح استعداداً لحولة قادمة ، أى أنها تكرر نفس لعبة "هدنة ١٩٤٩" .

كذلك هناك احتمال ثالث قوى لا يمكن استبعاده ببساطة وهو أن أمريكا — كما يقال — أمريكتان : أمريكا البتاجون والسى آى ايه ، وهى التى تملك القوة الحقيقية في توجيه السياسة الأمريكية والعمل الأمريكى ، وأمريكا وزارة الخارجية ، وهى الطرف الأضعف الذى لا يملك إلا حسن النية . وهذا هو الطرف الذى سمح لنفسه أن يتفاوض معنا ويوهنا

بأن الحلول السلمية ممكنة وشيكة ، دون أن تكون له الفاعلية الكافية لترجمة وساطته من فكر إلى فعل . فنحن لإذن فريسة سياسة وموظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً أو يلعبون بقضيتنا في صراعهم مع المؤسسة العسكرية الأمريكية للتأثير على قرارات البيت الأبيض .

وقد قرأت في أثناء وجودي في أمريكا مقالا هاماً للمعلق الصحفي المعروف جوزيف كرافت نشرتته مجلة النيويورك تايمز الأسبوعية صور فيه ذلك الصراع بين خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية وبين القوى الحقيقية الموجهة لقرارات البيت الأبيض ، ومنه نستخلص أن هؤلاء الخبراء ، وهم نحو مائتي خبير ، لا حول لهم ولا قوة لإزاء القوى الحقيقية التي تؤثر في صياغة قرارات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفي المقال استهانة شديدة ، ليس فقط بفاعلية هؤلاء الخبراء وإنما أيضاً بقدراتهم وبجديتهم بل بصلاحياتهم لتحمل المسؤوليات التي يتقلدونها . وحين نشر هذا المقال كان له دوى كبير بين كافة المهتمين بشؤون الشرق الأوسط في أمريكا ، وقد قوبل بامتعاض شديد من أكثر « أصدقاء العرب الأمريكيين » ولا سيما كبار الخبراء الذين تربطهم بالشرق أصلات عمل أو مصالح . ولم أجد تفسيراً للغضب العام على هذا المقال إلا أنه « فقع الدمل » الحقيقي في سياسة أمريكا حيال مشكلات الشرق الأوسط . فلنقل إنه مقال كتبه رجل يهودي من شأن أصدقاء العرب في أمريكا ، ولكن ربما كان من النافع أن نستمع حتى إلى كلام الأعداء .

وبخلاصة القول أتى وجدت في فرنسا ، ولا سيما بين المحافظين ،
 ميلاً قوياً إلى تفهم وجهة نظر المصريين والعرب بعامة ، وبتبنيها في
 إطار إمكانيات فرنسا المحدودة ، ميلاً نابعا من الديبلوماسية القائمة على
 مبدأ استقلال إرادة فرنسا داخل المعسكر الغربي وعلى استراد فرنسا
 لهيبتها ومصالحها في البحر المتوسط بالذات وفي العالم العربي بصفة
 خاصة . أما الاشتراكيون الفرنسيون فهم أقرب إلى تفهم وجهة نظر
 إسرائيل ولكن في غير نطاعة أو رفض تام للحوار مع العرب . وقد
 نصحنى فرنسى من أهل اليمين أن نحاول الإكثار من الحوار مع
 اليسار الفرنسى المضلل بالشعارات ، مع ميتران وكل ماهو على يسار
 ميتران ، لأن كسب اليسار الفرنسى سيقبل من أشياع إسرائيل في
 فرنسا . وقد تركت المظاهرة التي قام بها يهود فرنسا احتجاجاً على زيارة
 بريجنيف لباريس في أكتوبر ١٩٧١ استياء عاماً بين الفرنسيين ، وبدأ
 بعض المثقفين الفرنسيين حتى من أهل اليسار ، يرتابون بالفعل في
 ولاء يهود فرنسا لفرنسا نفسها وتقديم تشييعهم لإسرائيل على حرصهم
 على مصالح فرنسا التي يخدمها التقارب الفرنسى السوفيتى . وقد ذكر لى
 مسئول فرنسى من كبار خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الفرنسية
 أن فرنسا قد استنفدت في المحادثات الرباعية كل الوسائل لإقناع أمريكا
 بالضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ولكن دون جدوى . وقد
 كان الطابع العام للمحادثات الرباعية وقوف فرنسا وإنجلترا والاتحاد
 السوفيتى في جانب ووقوف أمريكا بمفردها في جانب ، ولا كانت

الدول الثلاث لا تملك غير الإقناع سبيلا ، فقد أحبطت أمريكا بمفردها كل المداولات في المحادثات الرباعية ، ولم تبقى إلا وسائل الضغط على أمريكا وهو ما لا تملكه الدول الثلاث .

هذا الموقف نفسه هو موقف إنجلترا مع شيء من التخفيف ، وقد اعترف لي صديق من كبار المسؤولين عن المنطقة العربية في وزارة الخارجية البريطانية بأن البريطانيين قد حاولوا ما استطاعوا لإقناع الأمريكيان بوجهة نظرنا ولكن دون جدوى ، وبأنهم لا يملكون «الضغط» لأن بريطانيا الآن أضعف من أن تضغط على أمريكا . ربما . ولكن يخيل إلى أن المصالح الأوربية التي تباورت في الضمير الأوربي الذي تجلى أولا في قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٦٧ ، ثم تجلى في تجديد هذا القرار منذ شهرين في ديسمبر ١٩٧١ خليفة لو وجدت من ينميها : أن تشكل ضغطاً حقيقياً على الإرادة الأمريكية . فالدول المتقدمة لا تتكلم بعواطفها ولكن تتكلم بمصالحها . وما يسمونه القدرة أو عدم القدرة على الضغط هو في نهاية الأمر موازنة بين مصالحتين . ويخيل إلى أننا - ربما نستعد للقتال استعدادنا الحاسم - ربما وجدنا خيراً في البحث عن المصالح « المشروعة » المشتركة بيننا وبين أوروبا وغيرها من بلاد العالم ننميها ونعمقها لعلها تؤثر في موازين القوى . بعبارة أخرى : العمل على « عزل » أمريكا بعد أن يثسنا من « تحييد » أمريكا .

أما في أمريكا نفسها فالرأى العام قد سممته أجهزة الإعلام الأمريكية ومواقف الساسة الأمريكيان ومراكز القوى الأمريكية ، فالأمر

قد تجاوز أن يكون مجرد سيطرة يهود أمريكا أو الصهيونية العالمية على الصحف والإذاعة والتليفزيون كما يحلو للبعض أن يتوهم ويوهم الغير .
وأنا لا أحاول بهذا أن أقلل من فاعلية النشاط الصهيوني خاصة واليهودي عامة في أمريكا ، ولكني أقول إن المبالغة في التهويل من شأنها خرافة سياسية نشرها وينشرها أصدقاء أمريكا في كل مكان ولا سيما بيننا ، ليصوروا للناس أن الأمريكان قوم أطهار أبرار ، وأن كل شططهم ضدها أو في مصلحة إسرائيل مصدره هذه الحفنة من الملاعين اليهود الذين يلعبون بمقدرات مائتي مليون أمريكي ، وهم لا يتجاوزون خمسة في المائة من مجموع السكان . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال هو أن يهود أمريكا هم أحد « مكونات » هذه الصورة الجسيمة المعقدة لا أكثر ولا أقل . ومن يتأمل الأمر جيداً يجد أن قوتهم ربما كانت نتيجة وليس مجرد سبب لموقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط ومن تكوينه الجيوبوليطي . وفي أمريكا عتاة من أعق عتاة الطبقة الحاكمة المحافظة ومراكز القوى المحافظة من فصائل « الواسب » وهي الحروف الأولى من « البيض ، الأنجلوسكسون ، البروتستانت » ممن اشتهروا بعدائهم للسامية ومع ذلك فهم يراهنون بقميصهم على الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية ، لأنهم يرون في هذا دعماً للوجود الأمريكي وللقيم الأمريكية والمصالح الأمريكية بطريق مباشر وغير مباشر .

مئات من الأمريكيين التقيت بهم عن معرفة وغير معرفة ، يحدثونك عن الصراع العربي الإسرائيلي ، فتجدهم أحد رجلين : كثرة غالبية

منحازة إلى إسرائيل في غير لبس ، وقلة ضئيلة ترى الأمور من زاويتنا ولكنها تصارحك القول : لا تنتظروا عوناً من الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلتكم مع إسرائيل .

وقد لاحظت أن أكثر من جادلت من الأمريكيين قد ركز نقده لنا في نقطتين : الأولى هي ما يسمونه الوجود السوفييتي في مصر ، وهذا وحده في نظرهم كاف لأن تنحاز أمريكا لإسرائيل ، والثانية هي فكرتهم الثابتة عن العرب أنهم يتكلمون الآن كالحملان الوديع لأنهم مهزومون ، ولكن إن وجدوا فرصة عاد كل شيء سيرته الأولى وتجمهروا كالدئاب الكاسرة للوثوب على إسرائيل للقضاء عليها .

وعبثاً تحاول أن تثبت للأمريكي أن الوجود السوفييتي لا يتجاوز إقادة بعض الخبراء الروس بينما بإرادتنا وأن انسحاب إسرائيل من سيناء سوف ينهي حاجتنا إلى هذه الخبرة الروسية . كذلك عبثاً تحاول أن تقنع الأمريكي أن التجارب المريعة قد غيرت من عقلية العرب ، بل أثبتت أنهم أخرج من إسرائيل إلى ما يضمن لهم حدود بلادهم . فكرة عنا رسخت في أذهان الأمريكيين لا سبيل إلى محوها . وعلى كل فهناك درجة من درجات الشرف في هذه المصارحة الأمريكية ، وهي خير من الختل واللف والدوران .

أما بين المسؤولين وأشباه المسؤولين ، فهم لا يفتأون يرددون أمامك أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ، وهو كلام مهذب في الرفض مفهومة أن أمريكا لا تريد الضغط على إسرائيل . وهو في نظري أدب

خال من الحياء لأن فيه امتهاناً لعقول الناس . فمن ذا الذى يصدق أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ؟ الكل يعلم أن أمريكا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لم تكن تملك الضغط على إسرائيل وحدها وإنما كانت تملك الضغط على بريطانيا وفرنسا كذلك . وهى التى أرغمت الجيوش الثلاثة على الانسحاب من مصر ، عندما تخلت عن أصدقائها الأوربيين قبل الإنذار السوفيتى وبعده . وهى التى تعاونت مع الاتحاد السوفيتى يومئذ فى تعبئة دول العالم فى الأمم المتحدة لتأييد قرار الانسحاب ، ولو أنها شاءت فى حرب ١٩٦٧ أن ترغم إسرائيل على الانسحاب لما كلفها ذلك أكثر من « زغرة » .

ولكنها كانت فى سنة ١٩٥٦ لم ترم بعد طوبة عبد الناصر ، بل كانت تأمل يومئذ تبعاً لخططها العام أن تقتلع الوجود البريطانى من مصر والفرنسى من الجزائر والبريطانى والفرنسى من كل أرجاء العالم العربى^{١٧} لتحل هى محل الاستعمار القديم . فلما تكشف لها أن هؤلاء المصريين لا يمكن الاعتماد عليهم فى شىء ينفع أمريكا ، وأن مصر المشاغبة تقود المجموعة العربية لتصفية الاستعمارين القديم والجديد على حد سواء ، ربدأت بالفعل تنادى بأن يتروك العرب للعرب ، قررت أمريكا نهائياً اللعب بالورقة الإسرائيلية حتى اقبل أن يكون للسوفييت « وجود » فى مصر كما تزعم الآن . وساعدناها نحن بكثرة الصياح والضجيج والرقص حول النار وإطلاق الأسهم النارية والأعيرة الفشنك فى الهواء . وعلى مائدة فى واشنطن اجتمعنا ، أحمد بهاء الدين وأنا ، ونفر من

أصدقاء العرب البارزين من كبار الأمريكيين كان بينهم قائم سابق بأعمال أمريكا في مصر ورجلان من كبار رجال الأعمال . قال السياسي الأمريكي : أنا لا أرى حلاً وشيكاً للمسألة المصرية الإسرائيلية ، لم يبق أمام مصر إلا أن تبحث عن القضايا المشتركة المقنعة للرأي العام العالمي فتجتمع الناس حولها . وكان كلامه مقلقاً لأنه كان يتجنب باستمرار الكلام في أمر تنفيذ قرار الأمم المتحدة أو انسحاب إسرائيل من سيناء ، وكأنما الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية لم يعد موضوعاً للبحث . فلما واجهته بسؤال : نريد أمثلة على هذه القضايا التي يمكن أن تجمع حولها الرأي العام العالمي ، أجاب : خذ مثلاً موضوع تدويل القدس ؟ هذه قضية لو ركزت مصر عليها لأمكن أن تجمع حولها الرأي العام العالمي المسيحي والإسلامي معاً . فاضطرنى اضطراراً إلى أن أقول له : اسمح لي أن أقول لك بوصفي مسيحياً مصرياً أن جبل سيناء يهمني تماماً كما يهمني القبر المقدس .

والمهم في كل هذا هو أنه حتى أصدقاءنا في أمريكا قد غدوا لا يرون حلاً للانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، كأنما الأمم المتحدة وقراراتها لا وجود لها ، لأنهم يعلمون أن أمريكا تؤيد بقاء «الوضع الراهن» في مصر والمنطقة العربية كلها . وكل ما ينصحنا به هؤلاء الأصدقاء هو محاولة إجراء مزيد من الحوار بل التعاون مع بريطانيا وفرنسا وبقية دول غرب أوروبا لعل هذا يؤثر في التوازن الدولي لمصلحتنا . . والمفهوم ضمناً : مادام هذا الكلام صادراً عن أمريكيين ، أن منطوقه يقول : لقد

اعتمدتم على الروس أكثر من اللازم ، وهذا سر. تعقد أزمتمكم من وجهة نظر أمريكا . حاولوا أن تعتمدوا على الإنجليز والفرنسيين فستغنوا بذلك عن السوفييت ، فهذا من وجهة نظر أمريكا أخف الضررين ، وربما كان إخراجها مع أصدقائها أدعى إلى اطمئنانها . . من إخراجها مع أعدائها .

وأنا أكتب هذا التقرير عن انطباعاتي عن الرأي الأمريكي العام حول الصراع المصري الإسرائيلي ليعلم من لا يعلم - بحسب ما رأيت وسمعت - أن انتظار أى تدخل أمريكى لمصلحتنا مضیعة للوقت وخداع للنفس ، بل لقد سمعت فى أمريكا من يقول : وكيف تنتظرون منا أن نساعد على فتح قناة السويس ؟ ألكى يتجول الأسطول الروسى فى البحر الأحمر كما يشاء وينفذ منه إلى المحيط الهندى ؟ .

وهذا التقرير لا أكتبه للحكومة المصرية ، فليست أشك فى أن للحكومة المصرية خبراء هائل الكفاء الشرفاء فى الخارج ممن يحسنون تقدير الأمور ويصدقون القول لحكومتهم ، ولكنى أكتبه للرأى العام المصرى ، ولأبناء الطبقات المتوسطة بيننا بصفة خاصة لأنهم من فرط عدائهم للشيوعية بالغوا فى التفاؤل بالحل السلمى لمشكلة الاحتلال الإسرائيلى للأراضى المصرية وأسرفوا فى الثقة بنوايا أمريكا أو بإمكانياتها . وحتى بعد أن استبان للخاص والعام استحالة الحل السلمى ذهبوا يشككون فى السلاح الروسى فمواون فى قوة الفانوم ويهونون من قوة الميج ، ويشككون فى قدرات الشعب المصرى على تحرير أرضه بدعوى تخلفه الشديد وحاجته إلى أجيال للأخذ

بأسباب الحياة العصرية ، برغم أن هذا التخلف لم يمنع شعب فيتنام من ضرب أروع الأمثال ، واتخذوا من فلسفة بناء الدولة العصرية السليمة حجة زائفة للهرب من المواجهة الكبرى والتضحية في سبيل الوطن . فالقصور فيهم أكثر مما هو في الشعب المصري ، لأن في مصر من أبناء هذه الطبقات المتوسطة ما يربو عدداً على سكان إسرائيل كلها ، ومن لا يقل « عصرية » عنهم . ونحن لسنا بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مليون مدافع لئلا ثلاثة ملايين مغتصب لو أن البورجوازية المصرية كانت حقاً على استعداد لأداء واجبها الوطني . بل هم يشككون في أهلية الفلاحين والعمال لحمل السلاح ولتحمل مسؤولية الدفاع الوطني الشعبي إذا وقعت الواقعة خوفاً من القلاقل الطبقية والفردية . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد عرفت مصر حقبة أيام الاحتلال البريطاني سقط فيها الوطن بين سادة البلاد الذين جمدوا الكفاح الوطني حتى ترقى الأمة وتنحضر وبين زعماء الرعاع الذين لم يدركوا أنه لا خير في كفاح وطني لا يقود فيه الجماهير عقل الأمة المستنير . ولم ينقذ مصر في ثورة ١٩١٩ إلا وحدة القيادة والقاعدة حيث كان زعماء البلاد ومثقفوها وطبقاتها القادرة تضرب لجموع الشعب المثل الأعلى في الرضا بالنفي والتشريد والاعتقال والتضحية بالنفس والمال في سبيل الوطن . وبهذا كانت الطبقات الممتازة بمثابة طلائع للشعب المصري تتقدمه في أداء واجبه الوطني فاستحقت بذلك مقامها الممتاز . ولست أحسب أن إسرائيل اليوم أشد بأساً أو أكثر رقياً من الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عن أملاكها ، ولست

أحسب أن الشعب المصرى اليوم أشد تخلفاً مما كان منذ خمسين سنة .
 فالأمر إذن رهين فى المقام الأول بإيمان كافة أبناء الأمة بجميع طبقاتها :
 بميسورها قبل معدمها ، بقداسة تراب مصر وبقداسة الفداء لتطهير
 هذه الأرض المباركة من كل قدم دخيلة تدنسها . وتكاليف الجهاد الوطنى
 أولى بها مترفو هذا الوادى السعيد الشقى من بنيه الذين لم يروا منه إلا ثمار
 العرق العجفاء وهى كسرة الخبز وأسمال الفقراء . لن يحرر مصر إلا بنوها .
 وليعط كل بقدر ما قد أخذ : هذه بعض سنن الشرف والحياة .



الباب الثالث

رحلتى الأوربية

الفصل العاشر

مداولات ثقافية

جاءتني دعوة من اليونسكو لحضور حلقة بحث أقامها اليونسكو في باريس يومى ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٧٢ للنظر في إصدار مجلة ثقافية جديدة ربع سنوية تحمل اسم « الثقافات » ومن الوثائق المرفقة عرفت أن منظمة اليونسكو كانت تصدر لخمس عشرة سنة متصلة مجلة متخصصة في التاريخ باسم « مجلة التاريخ العالمى » ، يكتبها المؤرخون للمؤرخين ، وأن الجمعية العامة لليونسكو قد قررت أن تحتجب هذه المجلة التاريخية وأن تحل محلها مجلة جديدة يكون اسمها « الثقافات » وتكون « جامعة لكل التخصصات » ، أى يكون فيها للتاريخ نصيب ، ولل فلسفة نصيب ، وللأدب نصيب ، ولل فن نصيب ، ولل اجتماع نصيب ، ولل علوم نصيب ، لا من حيث هى علوم ولكن من حيث أثرها فى الإنسان وفى المجتمع الإنسانى .

وقد جلسنا أربع جلسات لنصل إلى قرارات فى هذا الموضوع المطروح للبحث . ووجدت كل شئ مرتباً على عادة أهل اليونسكو . ووجدتني بين سبعة آخرين من الخبراء المستشارين فى شئون التحرير ، هم الكاتب الهندى المعروف ملك راج أناند عن الهند ، والأساتذة لورين باريتز بجامعة نيويورك عن أمريكا الشمالية ، وروديريجيز منيجال عن أمريكا

اللاتينية . ومالكوم برادبرى بجامعة إيست أنجليا عن بريطانيا ، وروحية كابوا عضو الأكاديمية فرانسيز عن فرنسا والشيخ انتاديوب بجامعة داكار عن أفريقيا السوداء ، وجاستريوفا بأكاديمية موسكو عن الاتحاد السوفيتى . أما سكرتارية اليونسكو فكان يمثلها المديرون هوجارت (الإنجليزى) وبامات (الأفغانى) وميرو (السويسرى) ، وكان هناك مراقبان عن مجالس اليونسكو : فريدمان ودورميسون . سلطة روسية تمثل مختلف الجنسيات والثقافات على عادة أهل اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية التى يراعى فيها دائماً أن تكون اجتماعاتها ممثلة لكل الشعوب ما أمكن ذلك . وبهذا فهمت أنى مدعو تهليل خبراء التحرير فى العالم العربى .

وقد كان أول ما استرعى انتباهى هو ما تكبدته منظمة اليونسكو من نفقات باهظة لجمع كل هذا الحشد من الخبراء لمدة يومين فقط . فأكثر الحاضرين جاءوا من أطراف الدنيا لهذا الهدف المحدد بالذات ، ولا أحسب أن اليونسكو أنفقت على سفر كل هؤلاء الضيوف وإقامتهم أقل من ثلاثة آلاف جنيه . وقد كان فى وسع كبار موظفى اليونسكو أن ينفردوا بالرأى ويوفروا كل هذا المال ، ولكن هؤلاء القوم يدركون بما ربوا عليه من منهج علمى أن وضع الأساس هو كل شئ ، وأنه لا خاب من استشار ولا سيما فى الخطوات الأولى التى يتوقف عليها كل شئ ، فالتشاور هو العاصم من الارتجال . كذلك استرعى نظرى أن منظمة اليونسكو قد تعمدت أن تكون هيئة مستشاريها كاملة من المفكرين « غير الرسميين » لأنها تعرف أن المثقفين « الرسميين » مقيدون بأفكار حكوماتهم وبنواياها .

ومنظمة اليونسكو التي تريد ان تواجه مثقفى العالم بهذه المجلة الجديدة تعرف أن « الموظفين » مهما علا قدرهم هم آخر من يستفتون فى أمر مخاطبة المثقفين .

وقد كانت أهم المشكلات التي واجهتها لجنة المستشارين هذه أربعاً :
[أولاً : مجال مجلة « الثقافات » . ثانياً : أهدافها ، وثالثاً محتوياتها .
ورابعاً : سياسة تحريرها .

وبعد مداورات طويلة انتهى الرأى إلى أن يحدد مجال المجلة على الوجه الآتى :
« الثقافات » مجلة دولية مشتركة بين كل التخصصات ، مخصصة للثقافة المعاصرة بأشمل معنى ، وهي تركز على المدخل المقارن وتنمى منهج الدراسات الثقافية » .

أما أهداف المجلة فقد حددت على النحو التالى : « أن تخاطب الجمهور المتخصص وجمهور المثقفين بصفة عامة وأن تكون حلقة ترابط بين الهيئات المعنية والمختصين المعنيين بالدراسات الثقافية وبالسياسة الثقافية وبين غير المختصين المعنيين بمختلف وجوه الثقافة » ، وقد عدّ الإصرار على ذكر « المختصين » كافياً لتحديد المستوى الرفيع المشهود فى نوعية المقالات والدراسات حتى لا يتصور أحد أنها يمكن أن تتسع للخفة الصحفية المأثورة عن كثير من المجالات .

وأما محتويات المجلة الجديدة فقد تحددت بالآتى :

(١) معالجة الحياة الثقافية بكل ظواهرها مع الاهتمام الخاص بتدعيم الدراسات الثقافية المعاصرة والعلاقات الثقافية الدولية وبالتنمية الثقافية

وبرسم السياسات الثقافية ، ومع الاهتمام الواجب بالحياة الثقافية على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

(٢) نشر التحقيقات والأخبار المتصلة بالأحداث والاتجاهات والتطورات الثقافية الهامة في العالم كله .

(٣) الإكثار من إصدار الأعداد الخاصة التي تتناول الموضوع الواحد ، ويراعى فيها أن تتسع للتخصصات المشتركة وأن تقوم على المدخل المقارن على أوسع مدى ممكن ..

(٤) لا يجوز استخدام المجلة لنشر التقارير الرسمية ..

أما بالنسبة لسياسة التحرير فقد تحددت كمايلي : « أكدت لجنة المستشارين أن استقلال تحرير المجلة أمر جوهري ، وأوصت بأن يرجع رئيس التحرير مباشرة إلى الهيئات وإلى أكفأ المختصين في العالم » .

هذه كانت أهم قرارات لجنة المستشارين أو توصياتها وهي كما ترى مغلفة كالعادة بلغة المنظمات الدولية المألوفة الحافة الباردة المنفرة ، ومع ذلك فهي تجسد مداولات كان بعضها عتيقاً ومتلاطمات . وكانت القذائف والمتفجرات تتوالى ، ولكن بأسلوب متمدن . نخذ مثلاً هذا الرأي الذي سقته شخصياً في اجتماع لجنة المستشارين :

« أنا أسف لأن الجمعية العامة لليونسكو كانت قد اتخذت قرارها باحتجاب (مجلة التاريخ العالمي) ، فهذه كانت مجلة تاريخية متخصصة يكتبها المختصون في التاريخ للمختصين في التاريخ ، كان لها جمهورها المؤكد برغم أنه جمهور محدود . فهي بذلك

كانت مجلة ناجحة لأنها كانت تؤدي الرسالة التي أنشئت من أجلها . والمسوغ الوحيد في نظري لإصدار مجلة مشتركة بين التخصصات مثل مجلة (الثقافات) هو أن تخاطب جمهور المثقفين أو الانتليجنسيا بصفة عامة لا فئة المتخصصين . وبهذا المعنى العريض للثقافة نفهم الثقافة بأنها ليست المعرفة بل تكامل المعرفة ، أو على الأصح تحول المعرفة إلى قيم ، وحيث تبدأ القيم تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية . وحيث تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية لابد من ضمانات لحرية الكلمة ، وهو ما يتجاوز إمكانيات منظمة . اليونسكو ، بل كل المنظمات الدولية ، بحدودها الحالية . فعروف أن منظمة اليونسكو تعبر عن الدول الأعضاء فيها وأن سكرتارية اليونسكو خادمة لهذه الدول الأعضاء ، خاضعة لرقابتها وتوجيهها ولا تتمتع بشخصية « فوق دولية » ، وهذا في حد ذاته يعصف بضمانات حرية الكلمة التي لا يمكن لموظفي اليونسكو القائمين بإصدار مجلة (الثقافات) أن يحموها إزاء حساسيات ممثلي الدول الأعضاء . هبوا أن عالمًا انثروبولوجيًا كتب عن وجود بقايا لأكلة لحوم البشر في إحدى دول إفريقيا السوداء ، أو أن عالمًا اقتصاديًا خدش الأحوال الاقتصادية في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أو أن مفكرًا درس مشكلة استعباد المرأة أو مشكلة التعصب الديني أو العنصري في العالم المعاصر دراسة تؤدي إلى استخلاص نتائج معينة . فما الضمان ألا يقف ممثل لدولة من الدول الأعضاء المخدوشة بالفعل أو بالوهم ويحتج على نشر مثل هذا البحث في مجلة

(الثقافات) ؟ إن المجالات العلمية المتخصصة هي كل ما تستطيع اليونسكو إصداره من المجالات ، لأن العلماء يستطيعون الوقوف عند الوصف والرصد والإمسك عن إصدار الأحكام ، أما المجالات الثقافية المشتركة بين التخصصات . فلأنها تخاطب المثقفين بصفة عامة فلا مفر فيها من وجهة النظر مهما كان الكاتب متخصصاً وموضوعياً ومنضبطاً في عرض أفكاره .

أتم تريدون إنشاء مجلة مثل مجلة سارتر « الأزمات الحديثة » أو مجلة سبندر « أنكاوتتر » دون أن تكون لكم حرية سارتر أو سبندر وهذه هي المشكلة » .

وأضاف روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز : بل ما الضمان ألا تتخذ الدول الأعضاء بوسائل الضغط المختلفة من هذه المجلة أداة لنشر دعايتها من خلال تقارير رسمية محشوة بالأرقام الزاهية التي تصور أنها اللجنة على الأرض حيث لا فقر ولا جهل ولا مرض ولا تخلف ولا ظلم ولا استبداد ، ولا لا بل كل شيء عال العال » .

والحق يقال إن رجال اليونسكو ، ريتشارد هوجارت وبامات وجي مترو كانوا لا يقدون تفهماً لهذا الوجه من المشكلة عن لجنة المستشارين ، أقصد موضوع اشتقاق مطبوعات اليونسكو وبحوثها وتقاريرها بسبب حساسية الدول الأعضاء من أي نقد يوجه إليها أو إلى أسلوب الحياة والفكر فيها ، وبهذا فقدت منظمة اليونسكو قدرتها على قيادة مثقفي

العالم ، واقتصر دورها على تقديم بعض الخدمات الفنية الجليلية كإنقاذ الآثار أو المشكوك في قيمتها كخدمات التربية والتعليم .

وهذا النقص في الفاعلية بصيب كل المنظمات الدولية ، وفي مقدمتها الأمم المتحدة بدرجات متفاوتة لنفس السبب برغم أن مجالسها ولجانها وأجهزتها الفنية تضم الآلاف من خيرة الخبراء . وقد أتيج لى في مرحلة ما من حياتى أن أعمل فى الأمم المتحدة وأمس بنفسى هذا النقص فى الفاعلية بسبب عجز لجان الأمم المتحدة عن أداء واجباتها تخرجاً من الدول الأعضاء أو خوفاً من بطشها . ومازلت أذكر كبف كان صديقى الدكتور محمد زكى شافعى وصديقى الدكتور محمود شافعى وهما من كبار رجال الاقتصاد يحملان إلى هومهما الوظيفية . فقد كانا يكلفان بإجراء الأبحاث وكتابة التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية مثلاً فى إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وبعد أن يعرفا ويسهرا الأسابيع فى جمع البيانات وتحليلها ويجسدا الحقائق فى صورة تقرير أو دراسة ، كان المديرين يعبثون بهذه التقارير والدراسات فيجرون عليها من التعديل فى الصياغة ، الذى يبالغ أحياناً حد حجب بعض البيانات أو ذكرها بطريقة مبهمه ، ما يجعل قارئى التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية لا يحس بوجود «مشاكل» من أى نوع كان أو يحس بأن الحال معدن فى كوستاريكا أو نيكاراغوا أو أورجواى أو باراجواى ، خشية احتجاج مندوب هذه الدولة أو تلك لو ظهر من ميزانها التجارى أنها على شفا الإفلاس أو ظهر أنها تهلك جوعاً لو توقفت الولايات المتحدة عن شراء

إنتاجها من السكر أو اتضحنت تبعيتها السياسية بسبب أحوالها الاقتصادية .
 وكان المنطق السائد أنه ما كل الحقائق يصح ذكرها ، فإن كان لامناص
 من ذكرها فينبغي أن تغلف بالسيوفان أو تحاط بجلدة من السكر كما
 يفعلون بالبرشام والعقاقير حتى يسهل بلعها . وهذه طريقة لا بأس بها ،
 ولكنها كثيراً ما تطمس ما هو داخل البرشامة فلا تدرى إن كان
 ما تباع جرعة من البنسلين أم جرعة من الجير أو الدقيق أو المواد التي
 لا نفع فيها . وإذا كان خبراء الأمم المتحدة يتحرجون كل هذا الحرج
 من الدول الصغرى فما بالك بخرجهم من الدول الكبرى التي تدفع ميزانية
 الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كاليونسكو والفاو وهيئة الصحة
 العالمية ومنظمة العمل الدولية .

ومن أجل هذا فإن لجنة كلجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة
 ورغم التزام الدول الأعضاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان تكاد أن
 تكون لجنة كاملة الشلل لا يحس بوجودها أحد ، مع أن حقوق الإنسان
 تهدر كل يوم في فييتنام وفي أمريكا وفي مصر وفي إنجلترا وفي الاتحاد
 السوفيتي وفي أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا السوداء وفي أفريقيا البيضاء
 وفي كل بلد من بلاد العالم المتحضر والمتخلف ، سواء من حيث التفرقة
 العنصرية أو الإخلال بالمساواة بين المرأة الرجل أو الإخلال بحق
 التعليم أو تشغيل الأحداث أو .. أو .. إلخ .. وقد عبر داج همرشلد
 ذات مرة عن عجز الأمم المتحدة عن أداء واجباتها المنصوص عليها
 في ميثاقها الجميل بقوله إن الأمم المتحدة ليست إلا مجموع أعضائها .



ومعنى هذا الكلام أن الأمم المتحدة قاصرة لأن الدول الأعضاء فيها غير قادرة على أو غير راغبة في الوفاء بالتزاماتها التي ارتبطت بها حين وقعت ميثاقها ، وأن الأمم المتحدة ليست لها إرادة مستقلة عن إرادة الدول الأعضاء فيها . فالأمم المتحدة ليست هيئة « فوق دولية » . وهى ليست حكومة عالمية بأى معنى من المعانى ، وبالتالي فإن سكرتارياتها العامة لا تتجاوز أن تكون مجرد خادمة للدول الأعضاء التي إن أرادت خيراً نفذت لها الخير وإن أرادت شراً نفذت لها الشر ، وإن تعلقت إرادتها أصيبت هى بالشلل . وعلى أحسن الفروض ليس للأمم المتحدة إلا سلطة أدبية أو معنوية .

وقد عبر لنا أحد مديرى اليونسكو عن هذا الوضع بقوله : إن أى ممثل من ممثلى الدول الأعضاء . يستطيع أن يقول لنا فى أى وقت من الأوقات ، نحن ممثلون لدول أو للأمم ونحن مسئولون أمام الدول أو الأمم التي نمثلها . أما أنتم الخبراء من موظفى الأمانة العامة فلا مسئولية عليكم أمام أحد إلا الدول الأعضاء التي لم تعطكم توكيلاً شاملاً وإنما عيّنكم فى وظائفكم لمجرد تسيير الأمور التي تريد هى تسييرها . فالأمر إذن معلق مرة أخرى بإرادة الدول الأعضاء التي إن أرادت إعلان الحقائق أعلنتها وإن أرادت إخفاء الحقائق أخفئها ، وإن أرادت حرية الفكر كفلتها وإن أرادت تقييد الفكر أو توجيهه قيدته ووجهته .

وقد قال روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسي즈 متهكماً بهذا الوضع

١٦٣

« من أجل هذا نجد منظمة اليونسكو تناقض نفسها ، فهي من ناحية تتحدث عن واجبها نحو نشر الأبجدية بين الأميين ومن ناحية أخرى تشجع تعليم الأميين بالوسائل السمعية البصرية التي تغني الإنسان عن تعلم الأبجدية ». (والمفهوم ضمناً أن الوسائل السمعية والبصرية ليست من وسائل مكافحة الأمية بل من وسائل مكافحة التعليم ، والمفهوم ضمناً أيضاً أن مكافحة التعليم بين الشعوب النامية يجري وفق مخطط مرسوم تستخدم فيه منظمة اليونسكو كأداة !)

وبرغم هذا الشعور الواضح لدى موظفي اليونسكو بعدم وجود ضمانات لحرية الفكر أو حرية البحث العلمي اقتنعوا كما اقتنعت لجنة المستشارين بضرورة النص على « استقلال » تحرير مجلة « الثقافات » المزمع إنشاؤها ، وضرورة النص على عدم جواز استخدامها كأداة لنشر التقارير الرسمية التي يتقدم بها ممثلو الدول الأعضاء . وكما يزيد من الضمان لمواجهة أى ضغط على جهاز تحرير المجلة من ممثلي الدول الأعضاء اتفق بصورة مبدئية على إحالة موادها على هيئة من جهابذة العصر في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية لإقرار نشرها . وذلك كوسيلة لتحسينها ضد تدخل الدول الأعضاء بقوة رأى الثقافات الأعلام . وقد كان كل هذا نصراً عظيماً لحرية الفكر والبحث العلمي في مرحلة التخطيط . فارجو أن تكون الخواتيم كالفواتيح .

وفي مرحلة من مراحل المداولات استدعى أحد خبراء النشر التابعين

لليونسكو ليدلى برأيه فيما ينبغي أن يطبع من نسخ من هذه المجلة الجديدة « الثقافات » . ومنه عرفنا أن « مجلة التاريخ العالمى » . كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وكان يوزع منها فى العالم كله نفس هذا العدد ، يباع للجامعات والهيئات والأشخاص المعنية بدراسة التاريخ . قلنا : ولكن هذا العدد الضئيل ربما يتناسب مع مجلة متخصصة بطبيعتها ، أما مجلة مشتركة بين التخصصات ، أو مجلة ثقافية جامعة كما نقول نحن فى لغتنا ، فما كان من الأنسب مضاعفة عدد النسخ المطبوعة منها ، وعدنا من جديد إلى الحديث فى توزيع مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » ، فعرفنا من خبير النشر أنه كان فى المد السارترى ١٥,٠٠٠ نسخة أما اليوم فهو ٥٠٠٠ نسخة . وكان تفسير ذلك طبعاً أن السارترية نفسها فى ذبول ، وأن سارتر يتخلى فى السنوات الأخيرة عن العناية بمجلته بشخصه مفوضاً أمرها لبعض مريديه ، مثل كلود لانسمان .. وقد أخذت سكرتارية اليونسكو برأى خبير النشر الذى أشار بعدم زيادة المطبوع عن ٢٠٠٠ نسخة إلا فى حالة الأعداد الخاصة .

وأنا أذكر هذه الأرقام عن توزيع المجلات الثقافية الجادة فى الخارج ليعرف مخطوط المجلات الثقافية عندنا حقيقة ما يجرى فى العالم المتمدن ، فهجلة مثل « الأزمنة الحديثة » كانت تهز مثقفى العالم من اليابان إلى أمريكا اللاتينية لم يتجاوز توزيعها فى أقصى مداها ١٥,٠٠٠ نسخة ، وهى الآن لا تزال تعد فى طليعة المجلات الثقافية الجادة ، ومع ذلك لا يزيد توزيعها على ٥٠٠٠ نسخة فى العالم كله برغم أن « قراء » الفرنسية

١٦٥

في العالم يعدون عشرة أمثال « قراء » العربية فلا ينبغي أن نياس إذا أصدرنا
مجلة ثقافية عميقة أصيلة ، ولم يتجاوز توزيعها ألف نسخة ، فالثقافة
الحادثة في كل بلد تعان .



الفصل الحادى عشر

ما كبت الجديد

بعد أن فرغت من واجباتى نحو منظمة اليونسكو فى باريس ،
وقرئت علينا قراراتنا بشأن الحملة الثقافية الجديدة المزمع إنشاؤها
تحت اسم « الثقافات » للتصديق عليها ، مضيت أستعرض
كتالوجات المسارح ، لأعرف ماذا يجرى فى حياة باريس
الفنية فوجدت بين مسارح باريس العديدة ٤٨ مسرحاً تقدم عروضاً
مسرحية . وكان بين هذه المسارح عدد لا بأس به يقدم العروض
الخفيفة أو مسرحيات التسلية ، وعدد لا بأس به يقدم « الإعادات »
أو ما يسمونه الريبورتوار بلغة أهل المسرح ، وهى مسرحيات سبق
أن رأيتها فى الأعوام الماضية . مثال ذلك مسرحيتا « الدرس » و « المغنية
الصلعاء » للكاتب يونسكو اللتان كانتا تعرضان فى مسرح لاهوشيت
بالحي اللاتينى بلا انقطاع خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة .
وقد لاحظت بصفة عامة انتشار مسرحيات التسلية الجديدة فى باريس .
ومع ذلك كانت هناك أركان فنية تقدم عدداً من المسرحيات الجادة
العميقة . كذلك لاحظت العودة إلى مسرحيات جورج فيدو ومسرحيات
جان أنوى .

ففى مسرح لا برويير كان هناك عرض لتشيكوف و بيرانديلو ،
وفى مسرح بيجال كان هناك عرض لمسرحية « بازا جيه » لراسين ،
مع ذلك اخترت أن أرى ثلاثة عروض جديدة كان أحدها « ماكبث
ليوجين يونسكو . وهى تنويع على أساة شكسبير الخالدة ، وكانت
تقدم فى مسرح الضفة اليسرى (الريف جوش) بمونبارناس . ثم
مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » للكاتب الأمريكى إدوارد ألبي
وكانت تقدم فى مسرح ماتوران . ثم عرضاً مسرحياً مقتبساً من
كتاب لوتريامون العظيم « أغانى مالدورور » كان يقدم على مسرح
تيرتر بمونمارتر . وكانت هناك مسرحية للكاتب الإنجليزى هارولد ينتر
اسمها « بالأمس فقط » عن الفرنسية (ولا أعرف اسمها الأصل بالانجليزية)
لم أجد الوقت لمشاهدتها فاكتملت بقراءتها . وقد ذكر لى بعض
أصدقائى الإنجليز المقيمين فى باريس أن عرضها على المسرح الفرنسى
كان أفضل بكثير من عرضها على المسرح الإنجليزى .

ولنبداً بمسرحية « ماكبث » ليونسكو ، وهى تجربة مثيرة فى إعادة
تفسير قصة ماكبث أو أسطوره كما ورثناها عن شكسبير . أما حكاية
ماكبث كما ورثناها عن شكسبير . فهى أن الملك دنكان . ملك
إسكتلندا . كان له قائدان كبيران هما ماكبث وبانكو استطاعا أن
يردا الغزاة وأن يخضعا العصاة ، وكان أعظم القائدين هو ماكبث الذى
جمع بين الشجاعة والنبل والولاء الذى لا يحد للمليكه . وفى عودة ماكبث
وبانكو منصورين من القتال عبر البرارى ، ظهرت للقائدين فى البرية

ثلاث ساحرات تنبأت إحداهن لما كبث بأنه سيصبح الإيرل (الكونت) على مقاطعة كودور ، وتنبأت له الثانية بأنه سيصبح الإيرل على مقاطعة جلاميس ، وتنبأت له الثالثة بأنه سيصبح ملكاً على أسكتلندا. أما القائد بانكو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يظفر بمغانم في حياته ، ولكنه سيكون أباً وجداً لسلسلة طويلة من ملوك اسكتلندا. ثم اختفت الساحرات وتركنا ماكبث وبانكو مشدوهين في البرية ، فهما يعلمان أن إيرل كودور وإيرل جلاميس لا يزالان بين الأحياء وأنه لا سبيل إلى وراثتهما ، كما يعلمان أن عرش اسكتلندا يجلس عليه ملك تقي مهاب هو الملك دنكان ، وأنه لا سبيل لخلافته على العرش لأن له ولدين في الخارج هما مالكولم ودونالدين .

* * *

ولا يلبث ماكبث أن يلتقى بمن يبشره بأن الملك قد أنعم عليه تقديراً لانتصاره على الغزاة بكونتية كودور وبكونتية جلاميس ، لأن إيرل كودور وإيرل جلاميس قد أعدمهما الملك دنكان وصادر أملاكهما جزاء لهما على قيامهما بفتنة أهلية على عرش البلاد . وهكذا تحققت لماكبث نبوءتان ، ولم تبقى إلا النبوءة الثالثة ، وهي أن يجلس على عرش اسكتلندا . وهنا نبت بذور الخيانة في قلب ماكبث الطيب الأمين النبيل بوحى من زوجته الطموحة الضارية الليدى ماكبث ، التي ما إن عرفت بما قد جرى من نبوءة الساحرات وتحقق شطر منها حتى تخيلت نفسها ملكة متوجة على عرش اسكتلندا ، وأقنعت زوجها بأن نبوءة

الساحرات هى مشيئة القدر . بل وأقنعت الليدى ماكبث زوجها أن يستقبل الملك دنكان فى قلعته وأن يغتاله ليحكم مكانه . وقد كان . وهكذا اغتصب ماكبث عرش اسكتلندا وحكم شعبه بالحديد والنار ، لأن قصة خيانتة كانت على ألسنة رعاياه فى السر والجهر . وكان أول ما فعله ماكبث هو الفتك بزميله بانكو حتى يحبط نبوءة الساحرات ويغير مجرى القدر فلا يتولى عرش اسكتلندا أحد من سلالة بانكو . وتكثر متاعب ماكبث لأن زوجته ليدى ماكبث بعد أن ارتكبت جريمتها وشاركت زوجها فى الفتك بملكه « معبد الله المقدس » ، يشغل الوزر على فؤادها فتصاب بالوثة وتترأى لها الأشباح فى يقظتها وزومها وينتهى أمرها بأن تشنق نفسها . كذلك يخوض ماكبث النبيل فى بحار من الدماء ليثبت عرشه ، وتكثر من حوله الفن والقلاقل فيتحجر قلبه ويزداد كل يوم ضراوة حتى يغدو كالوحوش الكاسرة . وأخيراً يسقط صريعاً فى المعركة الأخيرة حين يجهز ولدا الملك دنكان جيشاً بمعونة ملك إنجلترا ويسترد مالكولم عرش أبيه . لقد تنبأت الساحرات لماكبث بأنه لن يهزم فى الحروب إلا على يد رجل لم تلده امرأة وإلا حين تتحرك غابة دنسين عن مكانها ، وقد حسب هذا كله ضرباً من المحال ، ولكن جنود مالكولم يقتلعون أشجار الغابة ويتحركون من ورائها إلى ساحة القتال ويعلم مالكولم لماكبث فى النزال الأخير أنه لم يولد ولادة طبيعية وإنما ولد بعملية قيصرية . وهكذا تنتهى مأساة هذا القائد المغوار الطيب النبيل الذى لا نعرف إن كان داعيه إلى السقوط صوت القدر على ألسنة

الساحرات أم صوت زوجته الضارية ليدي ماكبث ذات القلب المعتم والعقل المسموم ، أم جرثومة الفساد الدفينة في قلب كل حي ولو كان أشرف الشرفاء .

فماذا فعل يونسكو بهذه القصة وكيف أعاد صياغتها ؟

لقد طمس يونسكو شخصيات هذه القصة ودوافعها دون أن يطمس معالمها الرئيسية ، وحوّلها من مأساة تصور محنة الإنسان المحيد الذي يتحرك كالدمية وسط زعازع القدر العاني إلى مأساة كل أشخاصها من الأوغاد الذين لا يعرفون من التواضع إلا الساب والنهب وشهوة السلطة والشكوك المسمومة . فلم يعد الملك دنكان كما صورته شكسبير « معبد الله المقدس » رمز حق الملك الإلهي ، بل غدا عاهلاً جباناً رعديداً لا يقوى على مواجهة أعدائه . مواجهته الفرسان ، بل يستخدم الغير لقتال معاركه . فلا هم لدنكان إلا نهب أموال نبلائه والتآمر عليهم قبل أن يتآمروا عليه . فنذ اللحظة الأولى نعرف من المتمردين كودور وجلاميس أن الملك دنكان يفرض على كل منهما جباية سنوية قدرها عشرة آلاف جواد وعشرة آلاف جندي وعشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير إلخ . ومع كل هذا ألف بنت عذراء لفراشه (تماماً كالملك شهر يار !) ومن أجل هذا يتفق كودور وجلاميس على الثورة على هذا الملك الغاشم واقتسام عرشه من بعده لتخليص البلاد من طغيانه ، لإنهما رجل واحد ورأبهما رأى واحد . لإنهما يتكلمان كالصوت وصداه . ويقسم كل منهما على سيفه أن يكون وفيّاً لأخيه .

وهكذا يتحرك جيش كودور وجيش جلاميس عند الفجر لخالع دنكان ، فيهب ماكبث وبانكو للدفاع عن الملك وتكون معركة ضارية بين المعسكرين يهلك فيها الألوف والألوف . كذلك كان ماكبث وبانكو كأنيهما رجل واحد ولهما رأى واحد يتكلمان كما يتكلم الصوت وصداه ، وعندما نرى كلا منهما على انفراد في جانب من ميدان القتال نسمعه يردد نفس الكلام : عبارات التفاخر بما كدس من جثث القتلى بين صفوف العدو : « إن نصل حسامي خضيبته الدماء ، يبلى هاتين قتلت العشرات والعشرات . قتلت المئات والمئات من الضباط والجنود الذين لم يؤذنى فى شىء . ومثلهم أعدمت المئات والمئات رمية بالرصاص . والألوف والآلاف ماتوا ، حرقوا أحياء فى الغابات التى اعتصموا بها ، فأضرمت فيها النيران . عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ماتوا محتنقين داخل الكهوف وتحت أنقاض منازلهم التى نسفتها . مئات الألوف ماتوا غرقى فى بحر المانش حين استولى عليهم الذعر فأرادوا عبوره . والملايين ماتوا أو انتحروا من الرعب . وعشرات الملايين ماتوا من الغضب أو من الفالج أو من الحزن . لم تعد فى البسيطة أرض تكفى لدفن كل هؤلاء الموتى . وانتفخت جثث الفرقى بكل الماء فى البحيرات فلم تعد فى البحيرات مياه . ولم تعد هناك نسور تكفى لتخليصنا من كل هذه الرمم .. إلخ » . وكل هذا فعله ماكبث دفاعاً عن مليكه المنفى ، حفظ الله حياته . وحين ييجى دور بانكو نجده يلقى نفس هذا المونولوج المضحك الذى أراد به يونسكو أن يسخر من

« فشر الأبطال الصناديد » ، يليقه بحذافيره .

* * *

وفى مكان أمين نرى الملك دنكان والملكة زوجته يرقبان المعركة على
البعد . ودنكان واجف القلب يسأل كل ضابط أو جندى يمر به :
من المنتصر ؟ ترى ماذا يحدث لو انتصر كودور وجلاميس ؟
وتقول الملكة التى يسميها يونسكو الليدى دنكان : « إذن تلبس أنت
دروعك وتخف إلى القتال » ، ولكن للملك رأياً آخر . أو أنهم ما كبث
وبانكو فيجب أن يخفى . ولكن أين يخفى ؟ إن أعداءه فى كل
مكان : ملك مالطة ، إمبراطور كوبا ، أمير البليار ، ملوك فرنسا
وإيرلندا كلهم أعداءه . وأعداؤه بلا حصر فى بلاط ملك إنجلترا .
(هنا يخيل إليك أن يونسكو لا يحدثنا عن دنكان وما كبث وبانكو أيام
الأنجلو سكسون ، وإنما يحدثنا عن شىء شبيه بحكام العالم الحديث) :
« الحيلة أم الحكمة » ، هكذا يقول . إنه سيفر غالباً إلى كندا أو الولايات
المتحدة حاملاً خزائنه مائة بالذهب (هنا نتذكر ما حدث لدالاديه
أو لبول رينو الذى فر بعد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ إلى أمريكا بعد أن
شحن ذهب الخزائنه الفرنسية . حتى غرق المانش يذكروننا بما كان
فى دنكيرك) . وبالطبع نضحك لأن أمريكا وكندا لم يكن لهما
وجود أيام دنكان وما كبث وبانكو .

* * *

ولا يخرج دنكان من هذا القلق على مصير المعركة إلا بأن يقول

لياور : « ابقى أنت إلى جوارى لتدافع عني إذا اقتضى الأمر (مخاطباً ليدى دنكان) أما أنت فهيا بسرعة . خذى جواداً وامضى إلى الجبهة وعودى إلى بالأخبار ، ومع ذلك لا تقتربى أكثر من اللازم . أما أنا فسأحاول أن أرى ما يجرى بالمنظار المعظم » . إن هذا الدنكان يختلف كثيراً عن « معبد الله المقدس » الذى حدثنا عنه شكسبير ! ملك جبان لا يستحي أن يعرض زوجته للخطر لينجو من المهالك .

وبعد لحظات تسمع صيحات الانتصار . لقد انتصر ماكبث وبانكو على كودور وجلاميس . لقد وقع كودور فى الأسر أما جلاميس فهو محاصر بعد أن تمزق جيشه . ويخطب دنكان خطبة عصماء يشكر فيها قواده وجنوده البواسل الأحياء منهم والأموات الذين أنقذوا العرش والوطن ، ويتحدث عن مقبرتهم ، مقبرة الخلود ، فى أبينال (وهنا نحس أن دنكان يتحدث عن مقبرة الجيش الأمريكى الرهيبة فى بلدة أبينال بفرنسا التى تضم عشرات الآلاف من قتلى الحرب العالمية الثانية) فكأنما هو يريد أن يقول إن كودور وجلاميس هما هتلر وموسولنى . وإن ماكبث هو أمريكا وبانكو هو روسيا أما الملك دنكان والليدى دنكان فهما بريطانيا وفرنسا .

* * *

وفى حفلة رسمية يتم إعدام كودور وأتباعه فى حضور الملك والملكة . . آلاف مؤلفة يموتون على المنصلة فى حين أن الليدى دنكان يأتونها بغوطة وطست وقطعة صابون وماء الكولونيا وهى جالسة مع وصيفتها إلى جوار

ماكبث القائد المنتصر تعد الرعوس الهاوية بلذة عظيمة ، وتغسل يديها كأنما تريد أن تزيل بقعة الدماء التي لحقت بيدها كما كانت تفعل الليدى ماكبث فى شكسبير . أما كودور فقبل أن يفصم رأسه نسمعه يقول : « على الأقل فليكن مصيرى عبرة للجميع والأجيال القادمة . لا تتبعوا إلا الأقوى . ولكن المشكلة هى : كيف نعرف من الأقوى قبل المعركة ؟ فليقف أكثرهم موقف المتفرج من المعارك ، أما الباقون فليتبعوا الأقوياء ، فنطق الأحداث هو المنطق الوحيد الصحيح » .. ويشغل بانكو بهمة بفصم الرعوس عن الأجساد . كل هذا والليدى دنكان الجالسة بجوار ماكبث تلتصق به فى نشوة حسية وتعاكسه بقدمها وتغمز له بعينها فتلهب فيه غلمة الاشتها . ويعلم الملك دنكان أنه بعد موت كودور يمنح لقبه ونصف أملاكه المصادرة لماكبث ، وحين يموت جلاميس سوف يكون لقبه ونصف أملاكه المصادرة من نصيب بانكو ويثول النصف الباقى من الأملاك إلى العرش . غير أن رسولا يأتى بنياً فرار جلاميس المحاصر وبصاف بانكو بخيبة أمل شديدة . إن المعركة لم تنته ، ويجب أن يبدأ كل شىء من جديد .

* * *

غير أن ماكبث على الأقل خرج بشىء من كل هذا ، وهو اقترابه من الليدى دنكان الفاتنة اقتراباً شديداً ، وعلى البطاح نرى ماكبث يستعد من جديد لمطاردة جلاميس ، ومن بعده نرى بانكو . وتهب عاصفة هوجاء تظهر فيها الساحرات كما فى شكسبير ، ولكنهن ساحرتان .

لا ثلاث . كما فى شكسبير ، وتعلن الساحرتان لماكبث أن الملك دنكان قد أنعم عليه بلقب جلاميس بعد لقب كودور لأنه غاضب على بانكو الذى يعده الملك مسؤولاً عن قرار جلاميس . ثم تفضيان لماكبث المشدود بأن القدر قد كتب له أن يجلس على عرش دنكان ويتوج ملكاً على أسكتلندا . ويحاول ماكبث أن يطرد الساحرتين اللعينتين لأنهما توحيان إليه بخيانة ملكه ، ولأن لدنكان ورثين هما مالكولم ولى العهد الذى يتم علومه فى قرطاجة وأخوه دونالين الذى يدرس فى راجوز (وهى الاسكتندرية قبل الاسكندر) للحصول على دبلوم فى الاقتصاد والعلوم البحرية ! غير أن الساحرتين الشمطاوين لا تلبثن أن نتحدثنا إلى ماكبث بصوت رخيم يذكره بصوت الملكة . ليدى دنكان ، ووصيفتهما . فتشتد حيرته . وبرغم مقاومته هذا السحر الرجيم نحس بأن لوناً من السم اللذيذ ، سم الغواية ، قد بدأ يسرى فى أوصاله .

نفس المشهد يتجلى أمام بانكو . تتجلى له الساحرتان تلقائيه بأن منافسه الخطر هو ماكبث الذى أختصه الملك بلقب جلاميس بعد أن أنعم عليه بلقب كودور ، ولكن الملك الجشع قد قرر أن ينعم بالألقاب من دون الأملاك . الأملاك له والألقاب لماكبث . ومع ذلك فالقدر قد كتب لبانكو أن يكون أباً لسلسلة طويلة من الملوك يجلسون ألف عام على عرش البلاد .

* * *

وهكذا تبذر الساحرتان بذور الفتنة فى قلب ماكبث وقلب بانكو

فتؤلبان كلا منهما على الآخر ، وتؤلبان كلا منهما على ملكه . أما منطقهما فبسيط ، لأنه مستمد من الواقع . إن الملك دنكان لا يستحق كل هذا الوفاء ، لأنه ملك جبان وجشع وغدار . هو لا يقاتل أبداً وإنما يجعل الغير يقاتل له معاركه . هو لا يخدم أحداً ولكنه يجعل الكل يخدمونه . كل الناس أدوات في يديه ، وهو يكره الأقوياء ويغار منهم . إنه سخر ماكبث وبانكو للفتك بكودور وجلاميس لأنهما كانا من الشجعان . وهو يضمم لقائديه المنتصرين الموت لأنه يخشى ارتفاع نجمهما . إن دورهما آت لا محالة . إن كل ما يفكر فيه دنكان هو المحافظة على عرشه وامتلاء خزائنه . إنه ملك ظالم . والقدر قد كتب لماكبث أن يجلس على عرش دنكان لأن ماكبث رجل عادل ، لأن ماكبث سوف ينشر السلام وينصف الفقراء في هذا البلد الشقي الممزق الذي لم يعرف السكينة ولا العدل قط . كذلك كتب القدر لبانكو أن يكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك .

وماكبث لا يصدق أذنيه .. لقد كان في الماضي يخشى أن تظهر له الساحرتان ، أما الآن فهو يدعوهما للظهور ، ويستمع إلى حديثهما العجيب في مزيج من الوجل والارتياح ، ويناجيهما . وحين سأل ماكبث الساحرتين عن سر حرصهما على سعادته يأتيه الجواب بصوت رخيم متمم : « لأننا نحبك يا ماكبث ، « لأنها تحبك يا ماكبث » ، هكذا تقول الساحرة الثانية عن الساحرة الأولى . ويخيل لماكبث أنه يعرف هذه الأصوات الرخيمة ، فهي ليست غريبة عنه ويناشد ماكبث الساحرتين

أن تكشفوا له حقيقتهم، بل يسل سيفه مهدداً أن يمزقهما إذا لم تعلنوا له ماذا تكونان .

وهنا تبدوا الساحرتان الشمطاوان في مشهد من السحر الأسود ترددان فيه عبارات باللاتينية من سجع الكهان ، عبارات مؤداها « اظهر وبان عليك الأمان » ، ثم تستويان وتتحركان في خفة ورشاقة ، ثم تنزع كل منهما قناعها فإذا بهما الملكة الفاتنة الليدى دنكان ووصيفتها الجميلة . ثم تجذب الوصيفة رداء الملكة الفاتنة فإذا به يسقط تماماً عن جسدها الفاتن ، وتقف الليدى دنكان عارية لا يسترها على المسرح إلا بيكيني . ويسقط ماكبث على ركبتيه صائحاً . « يا صاحبة الجلالة !! » ثم يضيف : « إني أرى معجزة ! » فتجيبه الوصيفة : « بل أنت ترى على الطبيعة » . وعلى كنفى الملكة العارية رداء الملك الأرجواني وفي يدها خنجر تقدمه لماكبث قائلة : « هيا اقتله . اقتل الملك واجلس على عرشه أكن لك وتكن لى ! هيا بنا نبني معاً مجتمعاً أفضل ، عالماً سعيداً جديداً » وبعد تردد حائر يتقدم ماكبث ويتناول من يدها الخنجر ، والوصيفة تصبح « الحب قهار ! الحب قهار ! » ، ثم يلف الظلام كل شيء .

* * *

وهكذا جعل يونسكو من الساحرة الملكة ، ليدي دنكان ، ومن الملكة ليدي ماكبث ، وجعل من الثلاث شخصية واحدة هي شخصية « المرأة » أو « حواء » رسول الشيطان ، بالسحر والفتنة تستدرج أنبل الرجال إلى الحيانة والجريمة والموت . وهذا هو الجديدي في يونسكو ،

أو ما أضافه إلى شكسبير : إن ليدى ماكبث الشهيرة التي دفعت زوجها العظيم إلى اغتيال مليكه واغتصاب عرشه والخوض في بحار من الدماء هي نفس الساحرة التي تجلت له في البراري لتقنعه بأن القدر هو الذي رسم طريقه إلى الخيانة والجريمة ، وهي نفس الملكة التي استدرجت هذا القائد المغوار لتتخلص من زوجها الملك . ومع ذلك فنحن مع يونسكو لا ندين المرأة وحدها ، لأننا نتحرك معه بين رجال أوغاد مهما بدت عليهم سمات الشجاعة والرجولة . ملك فاسق وقواد جشعون وكل امرئ يكيد لأخيه، والمرضى في قلب « الإنسان » لا فرق في ذلك بين النساء والرجال .

* * *

وينطلق بانكو إلى الملك دنكان ليجادله في عودته التي حثت بها . إنه وعده بلقب جلاميس يوم يؤتى به حياً أو ميتاً ، والآن وقد مات جلاميس غرقاً ها هو ذا يمنح لقبه لماكبث . ويجيب دنكان بأنه لا يملك دليل وفاة جلاميس . « جئني بالجثة » . ولكن الجثة طفت على البحر . « خذ زورقاً وابحث عنها » . ولكن سمك القرش أكلها . « خذ سكيناً وابقر به بطن القرش » . إن الملك يسخر منه . وهو الذي فتك بأعداء الملك . ويجيب دنكان : « لقد وجدت متعة في الفتك بهم » لقد كدت أفقد حياتي من أجلك . « ولكنك لم تفقدها » . باختصار أن الملك لا يقدم حساباً لرعاياه عن تصرفاته . وعند خروج بانكو يهمهم دنكان في أذن ياوره : « كان ينبغي أن أعطيه اللقب ، ولكنه يريد الأملاك أيضاً ،

وهى حق يؤول للتاج . ومع ذلك قال غدا بانكو خطراً يجب الحذر منه .
 منتهى الحذر . ثم يضيف فى إيجاء . « ألا ترغب فى لقبه ونصف أملاكه ؟
 أفصد لو غدا خطراً ؟ » إن الياور يفهم الإيجاء وتلمع عيناه فرحاً ،
 وهنا يضيف الملك : « ماكبث أيضاً قد غدا خطراً . ربما كان يطمع
 فى الجلاوس على عرشى . يجب الحذر من كل هؤلاء الناس . إنهم
 من رجال العصابات . كلهم . كلهم . إنهم لا يفكرون إلا فى المال ،
 فى السلطة ، فى الترف . وماكبث بالذات . لا يدعشنى أنه يطمع
 فى زوجتى أيضاً وفى محظياتى بطبيعة الحال » .



هذه إذن كانت أسس الملك فى بلاط الملك دنكان . حتى زوجته
 الملكة قد تألبت عليه . وهكذا تفرخ المؤامرة الثانية على عرش اسكتلندا .
 تنتهى الحذر يتكاشف ماكبث ودنكان . ويبدأ بينهما حوار يذكرنا
 بحوار كودور وجلايس . إن الملك طاغية . إنه يجبى من كل نبيل
 فى بلاطه كل سنة عشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف جواد وعشرة
 آلاف مقاتل وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير ، وألف بنت عذراء
 لفراشه . إنه طاغية وينبغى سحقه . وتكون المفاجأة عندما يعلن ماكبث
 لبانكو أن الملكة ، الليدى دنكان ، طرف ثالث فى المؤامرة . ويتعاهد
 الثلاثة على الفتك بالملك ، وتقدم الملكة هذا الشعار : « نعيش معاً أو
 نموت معاً » .

ويحل يوم التنفيذ ، وهو يوم شفاء المرضى ، فالملك بقوة الإلهية أو بحق

الملوك الإلهي ، يحج إليه كل عام موكب المصايين بالكساح وبالحذام وبالصرع وبكل وبيل من الأمراض عجز الطب عن شفائه ، وهو يشفيهم بلمسة من يده . وتم المراسم كالعادة في حضور الكاهن ، وما إن ينصرف المرضى إلا اثنين ، حتى ينزع الكاهن غطاء رأسه فإذا هو بانكو مستخفياً في زى راهب . كذلك ينزع آخر مريضين أسماهما فإذا بهما ماكبث والملكة ، ويتجمهر القتلة الثلاثة على الملك ويصرعونه بخناجرهم . وتلقى الملكة نظرة التأمل على جثة الملك المسجاة عند قدميها وتقول : « برغم هذا فقد كان زوجي . والآن أراه ميتاً فأحسبه يشبه والدي ، لقد كنت أكره والدي » .

* * *

وفي الخارج تهتف الجماهير : « عاش ماكبث ! عاشت الليدي ماكبث ! » إن كل شيء قد أعد لتتويج ماكبث وزفافه إلى الملكة . نعم . اليوم تصبح الليدي دنكان الليدي ماكبث . وتأكل الغيرة قلب بانكو . فهكذا آل كل شيء إلى ماكبث : التاج وألقاب النبلاء وأملاكهم ، وأخيراً يد الملكة الفاتنة . أما هو فقد خرج من هذه الصفقة بخفي حنين . إنه حزين ينهشه تأنيب الضمير . ومع ذلك فعزائه الباقي هو نبوء الساحرات بأنه سيكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك يحكمون البلاد ألف عام . فليكن . ولكن لكي يكون بانكو أباً لا بدله أولاً أن يتزوج . وهل هناك أنسب له في الجمال والمقام من وصيفة الملكة ؟

ويسمع ماكبث بانكو التعس وهو يناجي نفسه على هذا النحو

ففيحتاج احتياجاً عظيماً . أمن أجل اخلاف بانكو قتل ماكبث مولاه ،
وخان عهد الولاء للعرش ؟ إن بانكو سادر في أحلام لن تتحقق ولو
أرادت ذلك الساحرات . لسوف يموت ، فتموت معه ذريته إلى أبد الآبدين .
ويطعن ماكبث بانكو طعنة ترديه قتيلا .

* * *

لم يبق إلا أن تزف الملكة إلى ماكبث ملكاً لتصبح الليدى ماكبث
وهنا نرى مشهداً عجيباً . نرى الليدى ماكبث ووصيفتها وقد عادتا إلى
القصر الملكي بعد مراسم الزفاف تعدان في عجلة حقائق السفر . إن
ماكبث قد شرب في حفل الزواج حتى ثمل ، وهو الآن يغط في
نومه . وتقذف الليدى ماكبث بالتاج على الأرض وهي تصرخ :
فليذهب هذا التاج المقدس إلى اللحيم ، ثم تقذف بعقدها المتدلى حول
عنقها وبه صليب يحرق صدرها . ثم تخلع ثوب الزفاف الأبيض وتقذف
به لأنه يذكرها بالطهارة والنقاء . وتلبس ليدى ماكبث جلباب الساحرة
القدر البغيض المنظر . ثم تنزع عنها شعرها الفاتن وتلبس مكانه شعر
الساحرة الأشيب المنفوش ، ثم يتغير وجهها وينحني ظهرها فإذا الملكة
الليدى ماكبث تتخذ من جديد صورة الساحرة الشمطاء . وهذا بالضبط
ما يحدث لوصيفتها ، إنهما لم يعد لهما عمل في هذا المكان . لقد رتبنا
كل شيء وأفسدنا كل شيء . ويجب أن ترحلا على وجه السرعة . إن
سيدهما (الشيطان) لا شك سعيد بما جلبنا من دمار ودماء في القصر
الملكى ، وهو بحاجة إليهما ليوقدهما في مهمة جديدة . وهكذا تحمل

كل عكازها وتمتطى حقيبتها وتطير فى الهواء وكأنها تمتطى موتوسيكا
تكون له قعقة مزعجة ، أو تبسط ذراعيها فى الهواء وتطير وكأنها النسر
الطائر .

* * *

وفى قاعة العرش ينتظر الملك ماكبث الملكة ليدى ماكبث وحوله
ضيوفه الذين أقبلاو لمأدبة الزفاف فى قاعة العرش . ويكون انتظاره طويلا ،
ويبدو ماكبث فى حالة اضطراب عظيم ، فيخيل إليه أن الصورة
الملكية المعلقة فى القاعة ليست صورته ولكن صورة الملك القتيل دنكان ،
ويتجلى له شبح بانكو فيشتد هياج ماكبث . وأخيراً يتجلى شبح الملك
القتيل دنكان ويسير فى تودة إلى عرشه ويجلس عليه . فيفزع الحاضرون
ويخشون أمامه . ويقول شبح دنكان لماكبث : نعم . أنت قتلتنى لأننى
كنت طاغية أقتل الآلاف وأبديد القرى وأظالم الرعية . كل هذا أصبح
وأعترف به ولكن هناك شيئاً واحداً كاذباً فى كل ما تقوله عنى . لقد
أخذت تاجى ومملكى ومالى وسلطانى ، ولكنك لم تأخذ زوجتى كما تظن
ويبدو هذا مثل كلام المجانين . ولكن سرعان ما يتبين أنه الحقيقة
نفسها . لأن شبح دنكان يخفى وتدخل من بعده الملكة . تدخل بلا
تاج ولا جواهر ولا ثياب من ثياب الملك ، بل تبدو فى ثوب بسيط تتبعها
وصيفتها . وينهض الحاضرون لاستقبالها ويهتفون بحياتها . بحياة ملكتهم
المحوبة الليدى ماكبث . فتقول الملكة فى تودة : صمتاً .. محبوبة أو غير
محبوبة ، أنا لا أزال ملكتكم . ولكنى لست الليدى ماكبث كما تتوهمون

بل أنا اللىدى دنكان أرملة ملككم الشرعى القتيل .

* * *

ويظن ماكبث والحضور أن بالمرأة مساً من الجنون : لأنهم حضروا حفل زفافها إلى ماكبث ، ولكنها تفسر لهم كل شىء ، لقد جاءت بها الساحرتان وسجنتها في قبو القصر الملكى مع وصيفتها ورمتها في الأغلال ، وأخذتا من كل هيئتها وصوتها ، وإن من رآه الناس في الكنيسة يزف إلى ماكبث لم يكن الملكة بل كان الساحرة تتبعها صاحبها الشمطاء ، إنها تعلم كل شىء عن مقتل زوجها ومقتل بانكو وكل ما كان من اغتصاب عرش البلاد .

ويضطرب الحاضرون فينفون أنا بحياة ماكبث ويهتفون أنا بحياة ملكتهم الحزينة ، ويشند هياج ماكبث فيطردهم من قصره ليبقى وحده في مواجهة اللىدى دنكان التى تقول له هازئة : « لن تخرج من هنا . لن تحكم البلاد . لأن الفتى مالكولم ولى العهد الشرعى قد جاء من قرطاجة على رأس جيش عظيم ليسترد عرش أبيه . إن البلاد كلها قد تألبت عليك وتخلى عنك أصدقاؤك » .

ويدخل الفتى مالكولم شاهراً حسامه ، ويكون نزال بينه وبين ماكبث يسفر عن مصرع ماكبث وانطواء صفحته ، هذا الذى تنبأت له الأقدار بأنه لن يهزمه رجل ولدته امرأة . وقد كان الفتى مالكولم حقاً هذا الرجل الذى لم تلده امرأة ، فحين يروى علينا قصته نعلم أنه ليس ولد دنكان من صلبه بل ولده بالتبني ، لأن اللىدى دنكان كانت

عقيماً لا تنجب . إنه ولد بانكو من غزالة مسحورة في صورة امرأة ، وقد ارتدت أمه غزالة قبل ولادته . وحملته الليدى دنكان إلى القصر الملكي وزعمت أنه وليدها ليرث العرش . إنه قد جاء ليثأر لأبيه الحقيقي (بانكو) ولأبيه بالتبني (دنكان) وليجلس على عرش البلاد . إنه بانكو الثاني ، وسوف يكون هناك بانكو الثالث وبانكو الرابع وبانكو الخامس وبانكو السادس وعشرات غيرهم . وهكذا تحققت النبوءة .

وعندما يجلس بانكو الثاني على العرش تحسب الرعية أن عهد الطغاة قد انتهى ، ولكن الملك الجديد يبذل أحلامهم . إنه لم يأت ليحقق أوهامهم في العدالة والرخاء ، في الفضيلة والسلام . إنه جاء ليحكم رعاياه الحمقى الأوغاد الجبناء بالنار والحديد . لسوف يصادر كل أملاكهم . لسوف يضاجع كل نسائهم . لسوف يسترق كل رقابهم . لسوف يبذل ماكبث الأسود اللعين ملاكاً نورانياً بالقياس إليه . لسوف يجعلهم يترحمون على أيام ماكبث !



الفصل الثانى عشر

فى النساء والرجال

بعد أن شاهدت فى باريس تجربة يونسكو الجديدة ، حول موضوع « ماكبث » ، شاهدت مسرحية جديدة للكاتب الأمريكى إدوارد ألبي أسمها : « كل ما فى الحديقة » ، وهى مقتبسة عن مسرحية لكاتب مسرحى توفى حديثاً ، اسمه جايلز كوبر ، وقد أعاد ألبي صياغتها . والعنوان نفسه مقتبس من عبارة معروفة هى : « كل ما فى الحديقة ورود » . والذى شاهدته طبعاً فى مسرح ماتوران - هو الترجمة الفرنسية لمسرحية ألبي الجديدة ، وليس نصها الإنجليزى .

وقد وصلت إلى مسرح ماتوران . وهو مسرح تديره أرملة هارى بور الممثل العظيم ، قبل ارتفاع الستار بنصف ساعة ، فذهبت أنسكع أمام واجهته ، وفى هو مدخله أقرأ الإعلانات الجسيمة المعلقة على جدرانه ، وهى تعلن عما سبق لهذا المسرح أن قدمه من مسرحيات وما سوف يقدمه فى المستقبل القريب ، فوجدتها قوائم ممتازة من مسرحيات الطليعة كأعمال أداموف وأرابال ومرجريت دورا إلى الكلاسيكيات اليونانية مثل « أليكترا » سوفوكليس إلى الروائع التقليدية مثل بعض أعمال شكسبير وجوجول وتشيكوف وبيرانديلو وكونجريرف إلخ .. ولكنى وجدت بينها مسرحية أسمها « الرجل الذى فقد ظله » : « مسرحية من ثلاثة فصول تأليف

بول جيلسون ، مستوحاة من قصة شاميسو » ، فضحككت لأنى تذكرت الصديق فتحى غانم وروايته ، المعروفة . ولما كنت لا أعرف من شاميسو هذا ، رأيت أن أذكر هذه الواقعة لأنها قد تهم الصديق فتحى غانم أو تسرى عنه .

وقد وجدت مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » وردة سوداء من ورود الشر ، برغم أنها نموذج ممتاز من المسرح الواقعى الحديث ، بلا شعر ولا رمز ولا أسطورة ولا خيال . أو فلنقل على الأصح إنها نبات جميل مسموم من تلك النباتات الجميلة المسمومة الكثيرة التى أينعت فى الوجدان المعاصر لأنها تصور كل النساء وكأنهن بغايا وكل الرجال وكأنهم قوادون . . . والذى يخفف قليلا من ظلامها أنها لا تدعى أنها تتحدث عن الطبيعة البشرية وتنسب إليها هذه الخصاص ، وإنما تتحدث عن الناس فى المجتمع المدنى المعقد فى القرن العشرين ، أو بتحديد أدق فى الحضارة البورجوازية المعاصرة . متمثلة فى الحضارة الأمريكية . فالمسرحية إذن فى حقيقتها هجاء فظيع للحضارة الرأسمالية الغربية التى تنتج مثل هذه النباتات السامة المسمومة .

ومسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » تدور حول موضوع مألوف ، وهو تصوير حياة أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة الصغيرة فى بلدة أمريكية صغيرة . وأعضاء هذه الأسرة ثلاثة هم الأب (ريتشارد) ، وهو موظف دؤوب مستقيم تجاوز الأربعين مؤمن بكل الفضائل التقليدية ، وزوجته الجميلة الفاضلة المحبة له المتفانية فى الإخلاص له (جينى) ، وهى فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ثم ابنهما الغلام الذي يدرس في المدرسة الثانوية وقد اقترب في دراسته من إتمام شهادة البكالوريا .

غير أن هذه الأسرة الصغيرة النموذجية ، لأنها نموذجية ، وقعت في حبال النظام الاقتصادي الاجتماعي الأمريكي كغيرها من ملايين الأسر ، فهي قد أقامت عمادها على أساس الاقتناء بالتقسيط المريح الذي بغيره ينهار الاقتصاد الأمريكي والصناعة الأمريكية . فالزوج قد اشترى فيلا جميلة مريحة لها حديقة جميلة مريحة ، واشترى أثاثاً جميلاً مريحاً وسيارتين جميلتين مريحتين : إحداهما لشخصه ، والأخرى لزوجته ، كما اشترى كل الأدوات الكهربائية اللازمة من ثلاجة ، وغسالة ، وتكييف .. إلخ ، مما تقدمه الصناعة الحديثة . كل ذلك اشتراه الزوج بالاتفاق مع زوجته على أساس التقسيط المريح . وبالتالي فأكثر دخله ، وهو دخل متوسط ، ينفق شهرياً في سداد أقساط البيت والسيارة والثلاجة والغسالة .. إلخ ، في اليوم الأول من كل شهر ، ثم يعيش الزوجان في ضنك شديد بقية الشهر . وقد دامت هذه الحالة سنوات وسنوات لأن كل ما يسدد ثمنه يبلى ولا بد من تجديده ، والفلسفة التي تقود هذه الأسرة الأمريكية المتوسطة ، كما تقود ملايين الأسر الأمريكية المتوسطة ، هي المحافظة على ما يسمونه « المركز الاجتماعي » ، وعلى « المظهر المحترم » بين الأقران والجيران والمعارف ، ولذا فهي تحتل هذا الضنك في صمت نبيل سنوات طوالا يبدو أنها بلا نهاية في سبيل المظهر والمركز . ولكن الغلام الوحيد يكبر ويصبح فتى ويقرب من دخول الجامعة

وتكثر نفقات تعليمه ونفقاته الشخصية ، والأسرة حائرة في الأمر ، لأنها مهددة بسبب حياة الشظف التي تعيشها أن تقطع تعليمه وتدفع به إلى العمل في سن باكر ، وهو مصدر شقاء عظيم للأب والأم . ثم إن حشائش الحديقة الماثثة ، كان الأب يشذبها ويسويها بالمقص سنوات وسنوات وهو الآن يتقدم في العمر ويحلم بماكينة كهربائية تسوى له حشائش حديقته الجميلة وتوفر له عناء العمل اليدوى ، وهو لا يجد ثمن هذه الماكينة .

وفي لحظة من لحظات التشاكي المنزلى بين الزوج والزوجة من ضيق الحال والجزع على مستقبل ابنهما يتفقان على أنه لا حل لكل هذه المشاكل إلا أن تخرج الزوجة للعمل لتكسب بعض المال الذى يمكن الابن من الاستمرار في كليته ويأتيهما بقصافة الحشيش الكهربائي ويدخل بعض الراحة على حياتهما اليومية . غير أن هذا يثير مشكلة من نوع جديد ، فالزوجة الجميلة الفاضلة الأنيقة ، كأتى بنت من بنات الطبقة المتوسطة لا تتقن أى عمل من الأعمال لأن أسرتهما نشأتها على أن تكون « ست بيت » وأما للأطفال وكفى . وأخيراً يستقر رأيهما على أن العمل الوحيد الذى تستطيع الزوجة القيام به هو أن تعمل كمضيفة حيث لا تطلب من المرأة أية خبرات خاصة لإحسان المظهر وحسن الاستقبال وآداب الساوك ، وهذه كلها متوافرة في هذه الزوجة . ولا يحس بمتابعب هذه الأسرة الداخلية إلا شاب صديق للأسرة اسمه جاك ، وهو مليونير بالوراثة ، ولكنه سكير متلاف لا يفيق من

الشراب ، ويقضى حياته بين النوادى والنوادر الليلية ، وهو لكثرة ماله لا يعرف للحياة طعماً ولا معنى ، فحياته كلها يوم بلا غد ، يغلفها يأس يائس ، وهو يحاول أن يبدد هذا الصراع الكامل بالانغماس فى الملذات وكثرة الترحال والسير سيرة العاطلين بالوراثة ، وهو أعزب بلا عمل ولا أمل . وربما كانت فيه بعض ملامح من الشذوذ الجنسى . وهو يقتنى العشيقات ويهملهن كما يقتنى الكرافات ويهملها . ومع ذلك لم يحاول أبداً أن يغوى الزوجة جينى لأنه كان يحترمها ويحبها حباً بريئاً لا يريد أن يفسده ، فهى عنده كل ما بقى فى مجتمعه الصاخب من ملامح الفضيلة الفطرية والبساطة الطبيعية . وكان لا يخفى عنها عواطفه الحقيقية بدون مبالغة ، ويقول لها دائماً إنه عندما يموت سوف يترك لها فى وصيته ثلاثة ملايين دولار ، فتكون دعاية لطيفة تسر بها جينى ويسر بها الزوج ريتشارد لأنهما يصرفانها على أنها من مزاح الكلام . وما إن ينصرف حتى يعود ريتشارد وجينى إلى التشاكى حول ضنك الحياة وضرورة خروجها للعمل حتى تستقيم الأمور .

وفى هذا فى هذه الورطة تأتى زائرة غريبة فى نحو الخمسين لتزور جينى فى أثناء غياب زوجها فى عمله ، وتقدم نفسها لها على أنها مسز كريكييت . وتبدأ مسز كريكييت كلامها بقولها إنها عرفت أن جينى تبحث عن عمل ، وإنها قد جاءت لتساعدنا فى ذلك . وتدهل جينى لأنها لم ترفض لأحد بمتاعها أو نواياها . فتطمئنها مسز كريكييت بقولها إنها تعرف كل شئ عن كل الناس فهذه مهنتها . إنها تعرف أن جينى

لا تتقن عملاً بالذات ، ولذا فهي تستطيع أن ترتب لها أن تعمل كمضيفة وسوف تجد أنه عمل مجز . ومسز كريكييت امرأة عملية باردة الصوت حاسمة العبارات والنبرات ، ودائماً تدخل مباشرة في الموضوع . وتخرج من حقيبة يدها رزمة من البنكوت ، ألف دولار ، قائلة : خذى هذه دفعة أولى تحت الحساب . وتحار جيني فيما تسمع وما ترى . وتحملن في رزمة الدولارات . ما هذا ؟ ما كل هذا ؟ أى عمل هذا الذى يدر كل هذا المال ؟ إنها تشبهه في مقاصد هذه المرأة الغربية الصارمة الملامح والعبارات . وترفض طبعاً أن تأخذ الدولارات . لا بد أن هذه المرأة تنصب لها فخاً . ولكن المرأة تلح وتضع الدولارات في يد جيني المذهولة قائلة :

خذى هذا . سوف تحل كل مشاكلك . العمل بسيط . سوف تعملين كمضيفة عندي . أربع مرات في الأسبوع . كل مرة سيكون أجرك مائتى دولار . يعنى ثمانمائة دولار في الأسبوع ، يعنى أكثر من ثلاثة آلاف دولار في الشهر . وقد تصل بالبقشيش إلى خمسة آلاف دولار إذا سر الزبائن من خدمتك . ما هى مواعيد عمل زوجك ؟ وتجيّب جيني ذاهلة : كل يوم ويخرج في الثامنة صباحاً ويعود في السابعة مساء . فتقول مسز كريكييت : عظيم . عظيم . عمالك من الثالثة للسادسة أربعة أيام في الأسبوع . وتسأل جيني في حدة : برغم ذهولها أى عمل هذا ؟ فتجيبها مسز كريكييت : أنت لست وحدك . عندي مضيفات كثيرات . تأتين إلى بيتي في المواعيد المحددة . أنت جميلة

وشابة ومظهرك ممتاز . تستقبلين زبائن من الرجال . أنت تفهمين . رجال سئموا زوجاتهم . رجال أعمال على سفر . رجال يشكون من الوحدة . ولكنهم جميعاً ظرفاء .. مهذبون . أنا لا يدخل بيتي إلا صفوة الرجال ، وبعضهم كرماء للغاية ، إذا ارتاحوا إليك غمروك بالهدايا . يمكنك أن تبدئي العمل فوراً .

وتفهم جيني المطلوب منها : أن تعمل في بيت دعارة . وتثور ثورة عارمة وتقذف بالدولارات في وجه مسز كريكييت فتتبعثر على الأرض . وتطردها شر طردة : خذى دولاراتك القذرة واخرجى فوراً فوراً . وإلا استدعيت البوليس ولكن المرأة تنهض في هدوء وتقول في صوت بارد : سأضئ . على كل حال فكرى في الأمر . هذه بطاقتي تحمل عنواني . إذا قررت .. وتقذف جيني بالبطاقة في سلة المهملات وتصرخ في هيسيريا : اخرجى فوراً أيها القذرة . اخرجى . وتصرف مسز كريكييت . وترنح جيني حول ما سمعت . ثم تسرد هدوءها درجة درجة . ثم تنحني على الأرض وتجمع الدولارات المبعثرة في كل مكان وترتها ثم تضعها في درج كوهودينو مجاور . وهنا يدخل ابنها لحظة ثم ينصرف وهي تتأمله ساهمة ينتهبها الحب والجزع . ثم يدق جرس الباب فإذا به ساع يقدم كبيالة من الكمبيالات التقليدية التي تأكل دخل الأسرة في كل شهر . وبعد أن ينصرف نرى جيني تمشي جيئة وذهاباً وهي في حالة من الاضطراب الشديد . ثم تميل على سلة المهملات وتلتقط منها بطاقة مسز كريكييت وتخفيها في حقيبة يدها .

وتغر شهور ، وتبدو الأسرة أكثر رخاء وأقل توتراً ، بل تبدو أعظم سعادة : الزوج مقبل على زوجته يغمرها بالحب والحنان والزوجة مقبلة على زوجها تغمره بالحب والحنان . لقد اختفت متاعب الأسرة منذ أن بدأت جيني تعمل « كمضيفة » والابن (روجر) دخل الكلية في القسم الداخلي وهو الآن يقضى العطلة مع والديه . ويأتى ساعى البريد ليسلم للزوج ريتشارد ظرفاً مسجلاً ما إن يفتحه حتى يجد بداخله رزمة بخمسة آلاف دولار . ويدهش ريتشارد ، فليس هناك خطاب وليس هناك تفسير لهذه الرسالة ، بل ليس هناك عنوان من مرسل . وتقول جيني لاشك أنها هدية من صديق . إن ريتشارد لا يعرف صديقاً يمكن أن يهديه مثل هذا المبلغ الطائل . إذن لاشك أنها مكافأة من رجل أسدى إليه ريتشارد صنيعاً كبيراً ولكن ريتشارد لا يذكر أنه سدى لأحد صنيعاً كبيراً . لاشك أن هناك خطأ ما . لا ليس هناك خطأ ما فالطرف يحمل اسمه ومع اسمه عنوانه ، وهو ليس عنوان شخص آخر يحمل الاسم نفسه . إنه حائر ، إنه يكاد يحن من الحيرة ، لسوف يعيد المبلغ إلى مصلحة البريد أو يسلمه إلى البوليس ، وتقول جيني : هذه تكون حماقة . فالمال في يده ، وكل شيء يدل على أنه موجه له . أياً كان التفسير فالمال ملك له . لكم كانا يثنيان أن يقيما حفلة كوكتيل يدعوان إليها جيرانهما الوجهاء مستر فلان وزوجته ، ومستر فلان وزوجته ومستر فلان وزوجته . ألم يكن يتمنى أن يرى أقرانه حديقته الجميلة والحازون الجميل الذى يتعب في تصفيفه كل يوم أحد بعد أن اشترى

قصافته الكهربائية؟ ها هي ذى الفرصة قد سنحت وهو يريد إضاعتها .
 ودرجة درجة يقتنع ريتشارد وتغمره الفرحة . إن زوجته على حق .
 ماذا يهم من أين جاءت النقود أو لماذا؟ إنها الآن في يده وهي ملك له .
 لسوف يقيم حفلة الكوكيتيل التي طالما تمنى أن يقيمها ويدعو لها الحيران
 والأصدقاء^{١٠} . وهو اليوم يدعوهم بالفعل ، فيلبون دعوته ، ويأمر
 بانويسكى والجن والفرموت وكل أنواع الشراب ، فتجيئه ، استعداداً
 لحفله المساء . ومع ذلك تعود إليه الحيرة القاتلة ، فيذهب يرهق زوجته
 بالأسئلة الحائرة^{١١} ، وهي لا تعرف بماذا تجيب إلا أن تحاول صرف
 تفكيره عن الموضوع ، ويفتح ريتشارد درج^{١٢} الكوندينو مصادفة بحثاً
 عن شيء فيقع بصره على أكداش من آلاف الدولارات مرتبة ومخبأة فيه؛
 ويخرج من الحيرة إلى الاضطراب . ما هذا؟ من أين جاءت كل هذه
 الدولارات؟ لاشك أن في الأمر سرّاً خطيراً تعرفه جيني وتخفيه عنه .
 وتقول "جيني إنها مكاسبها من عملها . غير معقول . أى عمل يمكن أن
 يعود عليها بكل هذه الآلاف . وتقول جيني في احتجاج وبراءة : ولكنى
 اشتغلت ستة أشهر ! ستة أشهر أو ستة أو ثلاثة . محال محال أن تكسب
 مضييفة كل هذا المال؟ لا بد أن تكشف جيني له عن سر كل هذه
 الأموال . وأخيراً تعرف له جيني بالحقيقة . إن مسر كريكيت هي
 السبب . ولكنها تحبه . تعبه . لقد فعلت كل ذلك من أجله . ومن أجل
 ولد هماروجر ليم تعليمه الجامعى .

ويصاب ريتشارد بهياج كهياج المجانين . ويصفع جيني ثم يصفعها

ثم يركلها ، ويسبها بأفحش السباب : مومس . قدرة . يا للعار ! وهى تتقبل كل ما ينزل بها صاغرة ، ولا تجد ما تقوله إلا أنها تحبه ، وأنها ظنت أنها بذلك تحل مشاكل الأسرة . وبعد أن يفرغ ريتشارد شحنة الغضب العارم ينهار على مقعد ويتنحب كالأطفال . ووسط نشيجه يتحدث عن الطلاق . نعم . لابد من الطلاق . وفيما هما كذلك يدخل ابنيهما روجر لحظة ويشهد هذه العاصفة التى لا يفهم سببها . فينسحب . أو تأمره أمه بالانسحاب . ثم تستجمع جينى قواها وتقول : فليكن . ولكن ليتم كل شئ فى هدوء . غداً صباحاً نبدأ إجراءات الطلاق . أما هذا المساء فتمالك نفسك . إن الضيوف قد أوشكوا أن يصلوا . تمالك نفسك أمام روجر وإلا حطمتها نهائياً .

ويهب ريتشارد من جديد عند ذكر الضيوف ويود إليه هياجه ، ولكنه لا يلبث أن يقتنع برأيها . سوف يتمالك نفسه جملة ساعات حتى يتصرف الضيوف . يا للعار ! بأى وجه يقابل الناس . بعد ذلك . ولكن غداً صباحاً سوف ينتهى كل شئ .

وسرعان ما يقبل الضيوف : ثلاثة رجال من وجهاء الجيرة ومعهم زوجاتهم الثلاث كلهن جميلات ورشقات وأنيقات فى أغلى ثياب . ويكون استقبال غريب اختلط فيه المرح المصطنع والعصبية الواضحة ويخرج بهم ريتشارد ليريهن حديقتة الجميلة .

وفى أثناء غيابهم يرق جرس الباب ، وتكون مفاجأة ، إنها مسز كريكييت . وتضطرب جينى وتضرع إليها أن تنصرف لأن بالبيت

زواراً . ثم إن زوجها موجود . ولكن مسز كريكيث لا تحفل بتوسلاتها بل تأخذ طريقها إلى مقعد وتجلس في استقرار . إنها جاءت في أمر هام : لقد اكتشف البوليس أنها تدير منزلها للدعارة ، وقد يكبسونه بين يوم وآخر ، ولا بد لها من أن تغير مقر عملياتها . وأنسب بيت وجدته لذلك بيت مجاور لمخطة السكة الحديد ، وزوجها بحكم عمله هو الذى يملك أن يؤجره لها . فيجب إقناعه بذلك .

ويدخل ريتشارد وضيوفه بعد أن تفقدوا الحديقة ليجدوا مسز كريكيث . وتحاول جيني أن تسيطر على اضطرابها فتبدأ في تعريف الضيوف بمسز كريكيث ، ثم تكون المفاجأة الحديدية . إذا بمسز كريكيث تقول في لهجة متهمكة : « كيف حالك يا بريل ؟ وأنت يا اويز ، أرجو أن يكون الصفاء فد عاد بينك وبين زوجك ؟ أما أنت يا سنثيا ، فسأخضم منك مائتي دولار لأنك تغيبت عن عملك يوم الأربعاء . وهكذا ندرك أن العقيلات الثلاث يعملن مثل جيني في مشغل مسز كريكيث . ويحلق ريتشارد ذاهلاً ، فقد كان يتوقع أن تثور في بيته العواصف الزوجية حين يكتشف الأزواج المخدوعون حقيقة زوجاتهم ، ولكنه يدرك أن الأزواج الثلاثة على علم بكل ما يدرى . وتعود إليه نحوه الرجال ويعود إلى هياجه فيسب كل النساء العاهرات والأزواج القوادين ، ويتهجم على مسز كريكيث ، ولكن رفاقه يهدئون من روعه ، وأخيراً يقول له أحدهم : اهدأ يا ريتشارد . لا تحسب أننا نختلف عنك في شيء . لقد ثرنا مثلك حين اكتشفنا الحقيقة ، وكدنا

أن تقتل زوجاتنا ، ولكننا هدأنا بعد وقت ، وقبلنا الأمر الواقع ، ثم ألقناه . إن الحياة صعبة كما تعلم ، والغلاء يشتد . كان علينا أن نختار بين السعادة والشرف فاخترنا السعادة . غداً تألف هذا الموضوع وتتعايش معه كما ألقناه وتعايشنا . أما الآن فلنفكر في حل مشكلة مسز كريكييت لا بد أن نساعدنا على تأجير المنزل الجديد ، وإلا تعرضنا جميعاً للفضيحة .

ويسمع ريتشارد هذا الكلام في ذهول ، ولكنه يجد نفسه درجة درجة ينساق مع ضيوفه الثلاثة والنسوة الخمس إلى بحث هذا الموقف الجديد في هدوء وإلى تدبير الحاول لمواجهته !

وفيا هم كذلك يدخل عليهم صديقهم الشاب المليونير السكير جاك ، وهو في حالة سكر بين لا يكاد يحفظ توازنه . وما إن يقع بصره على مسز كريكييت ، حتى يوسعها تهكماً وهو ينظر نظرات العتاب إلى جيني . إنه لم يكن يتصور أن مسز كريكييت يمكن أن تمد تخوم إمبراطوريتها بحيث تجعل امرأة فاضلة مثل جيني بين رعاياها . أما الأخريات فقد عرفهن في المراه وهن يثرن تقززه . لقد كانت صدمة لجاك أن يرى مسز كريكييت ملكة الماخير في لندن سابقاً ثم في عديد من مدن أمريكا ، في دار جيني . وينهض جاك . إنه عائد إلى ناديه حيث العاطلون بالوراثة سيئون للغاية ولكنهم أقل سوءاً من هذ العفن البورجوازي ، حيث المتطلعات والمتطلعون يضمحون بأبسط معاني الشرف من أجل « المركز الاجتماعي » .

ويصاب الجميع بذعر عظيم ، إن الشاب السكير جاك شاب طيب ،
ولكنه مخمور ، ولا يؤمن إن هو عاد إلى النادي أن يترثر عما رآه :
حفلة عائلية تجتمع فيها ملكة القوادة بالزوجات والأزواج
وتقول النسوة : امنعوه . ويتألب الرجال الأربعة على جاك المترنح
ويمددونه على الكنبه ويجلسون عليه ليمنعوه من الحركة دقيقتين أو ثلاثا ،
ثم يتركونه ، فإذا ذراعاه تسقط في استرخاء م م . متقدم مسد كريكيت
وتجس نبضه برهة ثم تعلن : لقد مات .

وفي خليط من الفزع والوجوم والحزن العميق على سوب جاك يهف
الجميع كالبه لا يعرفون ماذا يفعلون . في البيت جثة رجل ميت ،
ولا شك أن البوليس سيطرق الباب إذا لم يجدوا حلا لهذا الإشكال .
ويقول ريتشارد رب البيت : إذا نحن ألقينا جثة جاك في الشارع
فسيظنون أنه مخمور مات من فرط السكر ويتكفأون به . لقد كانت
حاته تادل على ذلك . ولا شك أن عشرات من الناس رأوه في النادي
يترنح قبل محيئه . وتقول مسز كريكييت : هذه فكرة نيرة ستدفع بنا
جميعاً إلى السجن . ألا تعلم أنهم سيشرحون الجثة لتحديد سبب الوفاة
ويكشفون انفجاراً في أوعية الرئة نتيجة الاسفيكسيا ، فيعرفون أنه مات
خنوفاً ، ولم يمت من التسمم الكحول ؟ وتعود الحيرة والفزع وتردد عبارة
واحدة : ما العمل ؟ ما العمل ؟ وهنا تقول مسز كريكييت بلهجة الآمر :
نناك حفرة عميقة في الحديقة : احماوه إليها في الفلام وأدفنوه فيها ،
ثم انسوا الموضوع وتعالوا نتدبر مسألة تأجير البيت الجديد . ويحمل

الأربعة جنة جاك المسكين ويخرجون إليها إلى الحديقة، ثم يرجعون بعد دقائق ويأخذ كل مكانه على المقعد . وبعد تصمت وجيز يقول ريتشارد : أليس هناك بيت آخر غير البيت المجاور للمحطة ؟ هناك صوبات . في تأجيره وهي كذا وكذا وكذا ، وينغمس الجميع في مناقشة حول البيوت المناسبة والبيوت غير المناسبة

ويظهر بينهم شبح جاك وقد عاد من العالم الآخر، ويقول مخاطباً الجمهور : مسكينة جيني . لقد كنت شديد الإعجاب بها . وقد تركت لها في وصيتي ثلاثة ملايين دولار ، ولكنها للأسف لن تستطيع أن تحصل عليها قبل سبع سنوات . فالقانون ينص على أنه لا بد من انقضاء سبع سنوات على اختفاء الجثة قبل أن يدرج صاحبها رسمياً في عداد الأموات ، أما ريتشارد المسكين فقد كنت دائماً أعطف عليه لطيبته الشديدة وسط هذا العالم القاسي ، أما الآن فأنا لم أعد أخاف عليه من شيء . لقد تعلم كيف يعتنى بنفسه .

وهكذا يعود كل شيء إلى مجراه في هذا البيت النموذجي في هذه البلدة النموذجية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تؤدي مسر كريكيت وظيفتها الاجتماعية الخطيرة ، وهي حل مشاكل التطلع الطبقي في مجتمع البورجوازية الصغيرة . وقد أثبتت مسر كريكيت حقاً أنها جديرة باسمها المضحك لأن لعبتها في الحياة هي أن تدفع بكل الكرات لتستقر في كل الحفر !

الفصل الثالث عشر

الزهرة السوداء

قرأت وأنا في باريس. أن مسرح دى تيرتر . في أعلى مونمارتر . يقدم عرضاً من « أغاني المالدورور » .. للشاعر الفرنسى الرحيم لوتريامون ، ودفعنى الفضول أن أرى كيف يقدم لوتريامون على المسرح . وهو شاعر غير مسرحى ولم يكتب قط للمسرح . وعادت بي ذاكرتى إلى سنة ١٩٤١ . حين كنت أجلس مع المرحومين : روميس يونان ، وكامل التلمسانى . في أحد استديوهات الفنانين في درب اللبانة بالقاعة ونقرأ « أغاني المالدورور » لوتريامون ، وننتحدث عنها وعنه .. وكان لوتريامون قبلها ويومها وإلى يومنا هذا ، من شعراء الخاصة . لا يقرؤ إلا المثقفون . ليس فقط في مصر وحدها ، ولكن في فرنسا نفسها . وكان أكبر ازدهار لشهرته بين حلقات الشعراء الرمزيين ، مثل ألفريد جارى ، وليون بول فارغ - وفاليرى لاربو ، ثم بين حلقات السيراليين . وكنا يومئذ نقرأ لوتريامون في الطبعة المشهورة التي صدرت عام ١٩٣٨ ، وقدم لنا رسول السيرالية أندريه بريتون ، والمثال العظيم ماكس إرنست وغيرهما من قادة المثقفين في العالم .

وكان اليوم عصر يوم أحد ، وذهبت إلى مسرح تيرتر ، فوجدته

مسرحاً صغيراً ، كمسرح الحبيب ، بجوار كاتدرائية الساكركير ولم يكن في القاعة إلا ثلاثة غيرى .. وكان العرض « سولو » . أى عرضاً منفرداً ، قدمه ممثل شاب في نحو الثلاثين ، اسمه كازالاس ، ذو موهبة فريدة في الإلقاء شغل خشبة المسرح بمفرده ساعة ونصف ساعة متصلة يؤدي أداء درامياً ترتيبه الخاص واختياراته الخاصة من أغاني مالدورور ، لا يساعده في ذلك إلا فقرات مسجلة من موسيقى غربية وبعض الفقرات المسجلة بصوت آخر يرتفع كالهمس أو كالوحي أو كالفحيح في الخلفية ، ولا يساعده في ذلك إلا ماكياج لقناع الموت على وجه شاحب البياض شاحب الخضرة تحت ضوء البروجكتور وسط ظلام المسرح . ساعة ونصف من الشعر المنشور تعلقت فيها أنفاسنا لهذا الفيض من عذاب الشعراء الذين رأوا الشيطان رؤية العين فنسجوا من همسه ردة سدا كفنوا بها آلاء الرحمن .

وقد كان بودلير ، صاحب « أزهار الشر » ، أحدهم . كذلك كان ايزيدور دوكاس ، ذلك الفنى الغامض الغريب الأطوار الذى اختار أن يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو الكونت لوتريامون ، استعاره من اسم شخصية في إحدى روايات أوجين سو (الكونت لاتريرمون) . وفي حياته القصيرة التى لم تتجاوز ٢٤ عاماً ، (فقد ولد ايزيدور دوكاس بمونتيفيديو عاصمة أورجواى في ٤ أبريل ١٨٤٦ وتوفى في باريس في ٢٤ نوفمبر ١٨٧٠) لحق بركب الخالدين . وقد كتب لوتريامون عن نفسه في النشيد الأول من « أغاني مالدورور » : « سوف تشهد نهاية القرن التاسع عشر ظهور شاعرها »

(ومع ذلك فهذا الشاعر لن يبدأ بنظم رائعة ولكنه سيتبع قانون الطبيعة) .
وقد ولد هذا الشاعر على شاطئان أمريكيا في مصب نهر لابلاتا ، هناك
حيث يقيم شعبان ، كانا فيما مضى متنافسين ، وهما يجاهدان الآن ليز
كل منهما الآخر في التقدم المادى والمعنوى . فيونس أيريس ، ملكة
الجنوب ، وونتفيديو اللعوب تتصافحان عبر المياه الأرجنتينية على
مصب نهر لابلاتا » .

* * *

وواضح من هذا الكلام أن لوتريامون حين تنبأ لنفسه أنه سيصبح
شاعر « نهاية القرن » إنما كان يتصور أن الأجل سيمتد به على الأقل
إلى منتصف العمر ، ولكن المنية عاجلته في شرح الشباب في ظروف
غامضة . فكل شيء كان غامضاً في حياة هذا الفتى الذى أتعبت سيرته
مؤرخى الأدب خلوها من المعالم الواضحة ومن الدروب الواضحة
ومن الصداقات أو الزمالات الواضحة التى تعين عادة على تتبع سير
الشعراء . فكل ما نعرفه عن سيرة لوتريامون أنه كان ابن فرانسوا دوكاس
قنصل فرنسا بالنيابة في مونتفيديو من زوجته الفرنسية جاكيت دافزاك ،
وكلاهما من بلدة تارب جنوب مدينة بوردو بالقرب من البرانس
الفرنسية . وقد كان الأب من قبل يعمل مدرساً في فرنسا ثم انتقل إلى
لسلك السياسى في ظروف غير واضحة ، ولكن عقد الزواج يدل على
أن الزواج تم قبل ولادة الطفل إيزيدور (لوتريامون) بشهرين ، مما يشير
إلى خطأ تورط فيه الأب فرانسوا دوكاس مع الأنسة جاكيت وهما

بعد في تارب ، خطأ جعل الزواج قهرياً . وربما كان هذا هو سبب لجوء الأب إلى تغيير مجرى حياته جملة والتحاقه بالسلوك السياسي ورحيله عن فرنسا إلى أمريكا اللاتينية عسى أن يتعد من مكان الفضيحة . وقد كان الأب يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، أما الأم فكانت في الخامسة والعشرين .

أما سجل الأب في مونتفيدو فليس فيه كثير معروف إلا أن رؤسائه شهدوا له بالكفاية وحسن معاشرته الناس ، وقيل عنه إنه كان ينتقى خليلاته من بين الممثلات ، وإنه كان ذواقاً للنساء وللأدب ، فقد كانت له مكتبة عامرة . وقد ماتت أم إيزيدور قبل أن يتم سنتين من عمره ، وهكذا نشأ شبه يتيم في كفالة بعض قريباته ، وشب في مونتفيدو حتى سن الثالثة عشرة . ويبدو أن أسرة لوتريامون كانت أسرة من الشواذ لأن أحد الأطباء النفسيين كتب بحثاً في « مجلة التحليل النفسي » التي تصدر في بيونس آيريس عاصمة الأرجنتين يقول فيه إنه استطاع أن يستقصي في أسرة لوتريامون (دو كاس) أربع حالات من الاحتجاز في مستشفى المجانين وحالتين من الانتحار وحالة واحدة من القتل .

وأول ما نسمع عنه بعد ذلك هو عودة الغلام إيزيدور إلى فرنسا ليتم تعليمه والتحاقه بمدرسة تيوفيل جوتييه في تارب وهو في سن الثالثة عشرة ، ثم بمدرسة بو بالقرب من بوردو وبياريتز . وليس هناك ما يدل على أنه حصل منها على البكالوريا في ١٨٦٤ أو ١٨٦٥ شأن أقرانه (وقد كان منهم الماريشال فوش) . كذلك تعب الباحثون دون جدوى

في أن يجدوا لاسمه أثراً في جامعة باريس مما يوحي بأنه لم يبدأ تعليمه الجامعي . وكل ما عرف عنه في أثناء دراسته الثانوية أنه كان معتزلاً أخذانم منظوياً على نفسه غريب الأطوار شديد التعالي كثير الكتابة مستسلماً لأحلام اليقظة دائم الشكوى من الصداع الفظيع ، وكان يتحدث عن نفسه أحياناً على أنه « مريض بعقله » . ولم تبد عليه أية مواهب خاصة في الدراسة ، بل على العكس من ذلك كان من أوساط التلاميذ ، وإن بدا عليه اهتمام خاص بأدب سوفوكليس وراسين وكورناي وإدجار بووتيفيل جوتييه . وآخر ما نسمع به عن إقامته في مدرسة بوكان عام ١٨٦٥ تم تنقطع أخباره ثلاث سنوات حتى ١٨٦٨ حين نراه يظهر في باريس . ويبدو أنه قضى هذه السنوات الثلاث في وتنفيديو .



ظهر لوتر يامون (إيزيدور دو كاس) عام ١٨٦٧ أو ١٨٦٨ في باريس أديباً ولم يظهر طالباً ، وكان عمره وقتئذ اثنتي عشرة سنة . وفي هذا العام نشر النشيد الأول من « أغاني المالدورور » . ويبدو أن لوتر يامون حين هبط باريس كان قد اتفق مع والده على أن يخبر الشاعر الأدب ، ربما وهو يتم دراسته في باريس . فمعروف أن أباه كان يجري عليه معاشاً شهرياً عن طريق رجل يدعى داراس كان مديراً لأحد البنوك ، ومعروف أن لوتر يامون كان يطلب من داراس هذا أموالاً علاوة على معاشه لكي ينفقها على طبع النشيد الأول من « أغاني المالدورور » . وفي أواخر عام ١٨٦٨ اتفق لوتر يامون مع ناشر مشهور اسمه لاكروا مدير

« المكتبة الدولية » على نشر النشيد الثاني من « الأغاني » وهي دار نشر ذات فروع في باريس وبروكسل ولايزيغ وليفورنو ، عرفت بنشر الكتب الثورية والمنبوذة والمصادرة ومن بينها بعض أعمال فكتور هييجو وأوجين سووبرودون وزولا . ثم أمد لوتريامون الناشر لاكروا في أوائل ١٨٦٩ بمخطوط الأنشيد الستة مجمعة ، وهي كل « أغاني مالدورور » ، على أن تطبع في أثناء الصيف في بروكسل على نفقة المؤلف الذي قدم ٤٠٠ فرنك بصفة عربون . ونعرف من أوصاف الناشر لاكروا صورة لوتريامون عنده ، فهو قد « كان شاباً طويلاً فاحم الشعر أجرد الذقن شديد العصبية دؤوباً على العمل » ، لا يكتب إلا في أثناء الليل جالساً إلى البانوا بلقي عباراته بصوت عال ، ويصوغ جملة صياغة الصائغ ، ويزن إيقاعها على إيقاع التواليف الموسيقية . وهكذا طبعت الطبعة الأولى من « أغاني مالدورور » في بروكسل ، ولكن الناشر حجبتها بعد طبعها فلم يوزعها على المكاتب لتعرض على الجمهور « لأن الحياة مصورة فيها بألوان مريرة ولأنه كان يخشى النائب العام » . وقد كان لهذه الصلابة أثر عميق في نفس لوتريامون حتى إنه بدأ يعد بالألغى في أشعاره القادمة إلا عن « الأمل » و « الصفاء » و « السعادة » و « الواجب » . ولكنه لم يعيش ليحقق شيئاً مما وعد به .

« أيها القارئ ! لعلك تريد مني أن أبدأ فواتيح هذا الكتاب بالكلام عن الحقد وليس سواه ؛ ومن أدراك أنك لا تشمشم أثر الكراهية ، وأنت سابح في شهوات بلا عدد وبغير حدود إلا ما يقر به فؤادك ،

تشمشم بخياشيمك المتغطرة ، وهى واسعة ورقيقة ، وأنت تنقلب على بطنك فى الهواء الأسود الجميل شأن سمكة القرش ، كأنما أنت تدرك أهمية هذا الفعل ، بل أهمية شهوتك المشروعة ، تشمشم بعظمة وهادوء روائح الشر الحمراء ! أيها الوحش ! إن هذه الروائح لتطرب لاشك خياشيمك الممسوخة فى خشمك البشع لو أنك بادرت قبل ذلك وتنسجت ثلاثة آلاف مرة متعاقبة ضمير الكون الأزلى الرجيم . . . » .

وهكذا منذ البداية تعرف رأى اوتريامون فى الكون والإنسان . فضمير الكون ملعون رجيم . الحية فى قلب الشيطان والشيطان فى قلب الكون ، والبغض يحكم الوجود . أهو نوع من تنازع البقاء وبقاء الأفسد؟ إنه أكثر من ذلك . إنه شهوة للشر وتلذذ من القسوة يذكرنا بفلسفة المركيز دى ساد .

من أجل هذا يتحدث اوتريامون عن صفحات كتابه قائلا : « هذه الصفحات المظلمة التى تقطر سمًّا » . قال بانجاوس : « لم يعد للديانة المازنوية أتباع » ، فأجاب مارتان : « أنا موجود » ! « إن اوتريامون مثل بودلير وفلوبير ، يعتقد أن التعبير الفنى عن الشر يتضمن أرقى درجة من درجات الإحساس الأخلاقى » . هذا رأى ، ولعله رأى صائب ، لأن اكتشاف قوانين الكراهية التى تحكم الكون وعالم الأحياء ، وحياة الإنسان بدلا من أن تحكمها قوانين الحب ، هو مصدر عذاب للشاعر . وهو يجد لذة فى هذا العذاب كما يجد العاشق لذة فى سعي الحب .

وبهذا نقرب من بعض ألوان الصوفية التي تجد أن الطريق إلى الفضيلة هو التطهر بالرديلة ، وتجد أن الشك طريق الإيمان والتجديف طريق العشق الإلهي . وفي الديانة المانوية الله لا يحكم الكون وحده وإنما يحكمه معه الشيطان ، والظلمة تلازم النور والليل النهار طالما الكون كائن في صورته المادية . ولن يكون الكون نوراً على نور إلا في نهاية الزمن أو في الآخرة كما نقول نحن المؤمنين .

« سوف أبين في سطور كيف كان مالدورور خيراً في طفولته حين كان نحيماً سعيداً ، وقد بينت . ومن بعد ذلك أدرك أنه ولد شريراً وياله من قدر عجيب ! فأخفى طبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً لسنوات وسنوات ، ولكنه في النهاية بسبب هذا الجهد المضني المضاد لطبيعته الذي بذله لإخفاء حقيقته ، وجد أن الدم يصعد إلى رأسه ، حتى تجاوز ذلك قدرته على الاحتمال . فانغمس في إصرار في حياة الشر .. فوجد الراحة في جوه الناعم اللذيذ ! ومن ذا الذي يعقل هذا ! حين قبل مالدورور طفلاً صغيراً وردى الوجه . أحب لو أنه سلب منه خديه بحد الموصى ، ولقد كان خليقاً بأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ، لولا أن العدالة وما في ركابها العظيم من رسل القصاص ، أوقفته في كل مرة . ولم يكن مالدورور بالكذاب ، لذا كان يعترف بالحقيقة ويعلم أنه قاسى الفؤاد . أيها البشر ! هل سمعتم ؟ إنه يخسر على قولها المرة بعد المرة ، أن يسطرها بريشته الراحشة هذه ! فهي إذن قوة أقوى من الإرادة .. إنها لعنة ! وهل يستطيع الحجر أن يتحرر من قانون الجاذبية ! محال . محال أن

يحاول الشر الزواج من الخير . وهذا ما قلته لكم آنفاً .

» « «

« الإنسان خير بالطبع » . هذه هي القضية التي يناقشها الناس والأنبياء والفلاسفة منذ الأزل . ومع ذلك فالرأيان فيها متعارضان حتى اليوم وفيما بينهما ظلال ، ولوثر يامون يقول إن براءة الأطفال الملائكية تخفي تحتها جوهر الشر الملازم للوجود الإنساني . إن سقوط الإنسان قانون طبيعي كقانون سقوط الأجسام بفعل الجاذبية . ومقاومة السقوط هي مصدر شقاء الإنسان وجنونه . بل إن مجرد إخفاء السقوط هو مصدر شقاء الإنسان وجنونه . أليس هذا هو الكبت وآثاره التي نقرأ عنها كثيراً في علم النفس ؟ والحل إذن ؟ أن يطلق الإنسان العنان لغرائزه الشريرة ؟ هذا جحيم ، لأن رسل القصاص تقف دائماً بالمرصاد . أن يكبت الإنسان غرائزه الشريرة ، هذا جحيم ، لأنه بمثابة تحد لقانون الأجسام الساقطة . أن يسقط في الرذيلة وأن يلبس قناع الفضيلة ! هذا ما يفعله الناس . وزواج الشر من الخير رياء . ظاهره الطهارة وباطنه خداع الزناة .

« عقدت مع الدعارة حلفاً بقصد نشر الفوضى داخل الأسر . وإني-لأذكر الليلة السالفة على ليلة هذا الحلف الخطر . رأيت أمامي قبراً وسمعت فراشة النور ، طائر النار ، جسيمة كما الدار ، تقول لي : (سوف أضيء لك الطريق' . اقرأ النقش . هذا الأمر السامي لم يصدر عني) وانتشر في الهواء إلى مدار الأفق ضوء عظيم باون الدم ، ما إن رأيته

حتى اصططكت أسناني وسقطت ذراعاى هامدتين . فاعتمدت على سور
متهدم حتى لا أنهات وقرأت : (هنا يرقد فى مراهق مات بذات الرثة
أنتم تعرفون لماذا . لا تصاوا من أجله) . ربما غيرى كثيرون ما كانوا
ليجدوا شجاعة مثل شجاعتي . فى هذه الأثناء جاءت امرأة جميلة عارية
ونامت عند قدمي . قلت لها بوجه حزين : (يمكنك أن تنهضى) .
ومددت لها يدي ، يد الأخ ذابح أخته . وقالت لى فراشة النور :
« خذ حجراً واقتلها » . قلت لها ، (ولم أقتلها ؟) قالت ، خذ حذرك
أنت الأضعف لأنى أنا الأقوى . هذه المرأة العارية يسمونها الدعارة .
واغرورقت عيناى بالدموع واتقد فى قلبى الغضب ، وأحسست بقوة
مجهولة تولد فى نفسى . وتناولت حجراً كبيراً ، وبعد جهد جهيد رفعتـه
إلى مستوى صدرى ثم وضعته بساعدى على كتفى وصعدت جبلاً حتى
قمته ، ومن هناك سحقـت فراشة النور ، فغاص فى الأرض رأسها
جسيماً بحجم رجل ، وارتد إلى الحجر على ارتفاع ست كنائس ، ثم هوى
من جديد فى بحيرة غارت مياهها لحظة ودارت فى دوامة حفرت مخروطاً
عظيماً مقابواً . ثم عاد الهدوء إلى سطح المياه . ولم يعد الضوء الدامى
يلمع بعد ذلك . وصاحت المرأة الجميلة العارية : (ويحك ! ماذا فعلت ؟)
قلت لها : (أنت خير عندى من فراشة النور ، لأن بى رحمة بالتعساء .
الذنب ليس ذنبك إذا كانت العدالة الأزلية قد خلقتك) . قالت لى :
(فى يوم من الأيام سوف ينصفنى الناس . لن أبوح لك بالمزيد ، والآر
دعنى أمضى ، لأنخفى فى قاع البحر أحزانى السرمدية . ليس فى العالم

سواك والوحوش الشائبة التي تن في قاع هذه الهاوية الظالماء ، ليس
سواكم من لا يحتقرني ، أنت طيب القلب . وداعاً يا من أحببتني) .
قلت لها : (الوداع ثم الوداع ! الوداع ! لسوف أحبك ما حييت ! منذ
اليوم سوف أهرج الفضيلة) . من أجل هذا أيتها الأم ، حين تسمعين
ريح الشتاء تن على سطح البحر أو قرب شطآنه ، أو فوق المدن الآهلة
التي لبست منذ زمان على الحداد ، أو عبر فلوات القطب ذات الزمهرير ،
قولي أيتها الأم : هذا الذي يمشي ليس روح الله . إنه ليس إلا زفرات
الفضيلة الذبيحة اختلطت بزفرات هذا القادم من مونتيديو ، (وهي
عميقة) . فيا أطفالي : أنا القاتل لكم . هيا إذن ، اركعوا والرحمة تملأ
قلوبكم ، وليتهل الناس وهم أكثر من القمل لإحصاء ، بمد يد الصلوات » .
نحن هنا وفي كل مكان في عالم الشاعر بليك ، في عالم الفيلسوف
نيتشه ، في عالم النبي زارادشت ، فلنقل إن فراشة النور طائر النار ،
هي الروح .. أو الروح القدس ، والشاعر حائر بين فراشة النور والחסد
العارى ، الذي يسمونه في بعض الآداب الدينية بالمرأة القرمزية ،
تجسيد الخطيئة . هو حائر بينهما لا يعرف أيهما يقتل . وأخيراً يتناول
حجراً ويحاول أن يقتل فراشة النور . ولماذا هذا الاختيار ؟ لأن البغي
الأبدية تعترف بذلتها فهي ترقد عند قدميه وتخفي وجهها من العار ،
أما الروح ، فراشة النور ، فتجبره تريد أن تسحق . وطوبى للضعفاء
كما قيل في القديم ، فلنقل إنها المجذلية ، ومن كان منكم بلا خطيئة
فليرجمها بحجر . ولكن حين أراد الشاعر أن يقتل الروح ، الفراشة

المنيرة ، غاصت في الأرض كالأساس المتين وشمخت وتعالحت حتى بلغت مقام الكاتدرائيات الباذخة ، أما الحجر فقد سقط في المياه التي ابتلعت دوامتها المرأة القرمزية ، وهكذا قتلت الروح الجسد . فوداعاً أيها الجسد الذبيح . صاوا عليه واستمطروا الرحمت .. ولكن السؤال الذى يطرحه اوتريامون في هذه المقطوعة : هل الله حقاً هو الذى أمر بذبح الجسد ؟

« أى أوقيانوس القديم ! أيها الأعزب العظيم ! عندما تجتاز وحدتك الحليمة ، وحدة مملكتك المترفة ، تزدهى بالحق كبرياء لروعتك الأصلية ، ولدائحي التي أنظمتها في بهائك .. ليت أن جلال البشر لم يكن إلا تجسيدا لظل جلالك .. إني لا أطلب شيئاً عزيزاً ، وهذه الأمنية الصادقة تمجيد لك . فجلالك المعنوى ، وهو صورة الأبدية ، عظيم كتأمل الفيلسوف ، عظيم كغرام المرأة ، عظيم كالبهاء الإلهي في صورة الطير ، عظيم كخواطير الشعراء ، أنت أجمل من الليل ! أيها المحيط ، أجبني ، أتريد أن تكون شقيقي ؟ إذن فتحرك في جموح .. في جموح أعظم وأعظم أو أردت أن أقارنك بالانتقام الإلهي ، امدد مخاليك الزرقاء واحفر بها على صدرك طريقاً . هذا جميل أبسط أمواجك الفظيعة أيها المحيط الفظيع الذى لا يفهمه أحد سوى . هأنذا أتهافت أمامك أركع على ركبتي .. « أى أوقيانوس القديم ذا الأمواج الباورية .. عيناي ابتلتنا بالدمع المردار ، منك أنا — ولم أعد أحتمل أن أتعقب خطاك ، فأنا أحس بأن أوان عودتي إلى البشر الأفظاظ قد جاء . ولكن

فلنتجمل بالشجاعة . فلنتحمل على أنفسنا ولنحقق قدرنا على الأرض يلهمنا الإحساس بالواجب ، وسلاماً أيها المحيط القديم .

كانوا في قمة الحركة الرومانسية يسمون هذا مذهب الحلول ، ورثه الشعراء الأوربيون عن الفيلسوف سبينوزا الهولندي وعن سنانكبور في فرنسا ، أو ما يسمى بوحدة الوجود . الله حال في الكون ، وما في الحبة غير الله كما كان الحلاج يقول : اقرأ مقطوعة : « سألت العباب » في صوفيات النفرى ، ونظائرها في السهروردي المقتول ، وفي ابن عربي . تجد بذور الفكر الرومانسى قد أينعت من قبل في تراثنا العظيم ، وكان لها شهادتها . إنه ليس زواج الجنة والجحيم ، كما كان بليك يقول ، لأن الزواج يتضمن ازدواج السابق أو الانشطار السابق ، أما هذا الذى نواجهه فهو معادلة جديدة قديمة فيها الله مساو للكون وروح الله مساوية لروح الكون ، حيث لا جوامد ولا أشياء صماء ، حيث روح الجبل وروح المحيط وروح الغابة وكل هذه الأشياء أجزاء من الروح الأعظم . وفي مثل هذا الوجدان (أو لعله الوجد !) يناجى الإنسان الجبل والمحيط بقوله : يا أشقائى ويناجى الإنسان الغابة بقوله : يا أختاه ! هنا الروحانية والجسدانية شىء واحد . أو كما كان سبينوزا يقول في كتابه : « الأخلاق » « الله هو مجموع الذكاء الموزع في أرجاء الكون » أو كما كان يقول : الله بالنسبة للكون هو مجموع زوايا المثلث بالنسبة للمثلث : لا مثل موجود إلا ولازمه قانون ٢ ق . ولكن سبينوزا كان فيلسوفاً وليس شاعراً فهو يتكلم عن العقل الإلهى المبثوث في أرجاء الكون ،

أما لوتريامون فهو شاعر ولذا يحدثنا عن الروح الإلهية المباشرة في أركان الكون . ترى أى الماردين أعظم ؟ الإنسان أم المحيط ؟

وعلى كل فها هذه إلا شذرات من إيمان لوتريامون ومن تجديفه كلها جاءت من النشيد الأول من « أغاني مالدورور » ، وبقيت خمسة أناشيد . جلست ساعة ونصف ساعة أستمع لمختارات الممثل أندريه كازالاس معلق الأنفاس وكأنه ينشد لى وحدى . وبعد العرض زرتة فى الكواليس لأهنته . وبعد أن أزال أصباغه ومساحيقه خرجنا معاً وعدنا إلى الحى اللاتينى . قلت : « يخيّل لى أنى سبق أن رأيتك على المسرح » فأجاب : « ربما . أنا مثلت من قبل فى (تيمون الأثينى) لشكسبير ، وفى (ميديا) لسنيكا على مسرح الأوديون ، وفى (انتصار العاطفة) لجوته فى أفينيون وفى الأوديون ، وفى (مجمع الحب) لأوسكو بانيتزا فى مسرح باريس ، وفى (لعبة المذبحة) ليونسكو وفى (إسكوريال) لجيلدرود ، وفى (مالك الحزين) لسترنديرج وغيرها وغيرها . وعرفت أين رأيته من قبل . قالها فى تواضع شديد ، بل فى خجل شديد ، فبدأ كذلك الشاعر الجزويتى جيرارد مانلى هو بكنز الذى كان وجهه يحمر خجلاً كلما رأى فى الحديقة الخوخة تحمر فى الربيع ، وكأنه يرى رمز الخطيئة . فلنقل إن الفن — كالحب — خطيئة ، وكلما عظم الفن عظمت الخطيئة . وأهدانى نسخته من « أغاني مالدورور » . قلت : « وداعا ! ليتنا نلتقى فى القاهرة ، فنحن أيضاً مثلكم ، بيننا نفر يرتكبون معصية الفن العظيم » .

الفصل الرابع عشر

٥ أيام فى روما

فى عودتى من باريس إلى القاهرة نزلت بروما حيث قضيت خمسة أيام ، قضيتها بين الآثار وفى المسارح وفى الأكاديمية المصرية مع صلاح كامل مدير الأكاديمية ومستشارنا الثقافى بروما ومع أسرة أمريكية تحمل لى ودًا كبيرًا .

وكانت هذه زيارتى الثانية لروما . وفى الأولى زرت الفاتيكان وفى الثانية كانت لى جولة كل صباح بين الخرائب المرمرية المبتوثة فى كل مكان حيث يعيش الأحياء . باحثًا عن الموقع الذى قتل فيه يوليوس قيصر - أشهر اغتيال فى التاريخ - يشيرون إلى الفورم - سوق روما القديمة - حيث تجاوزت آثار الإدارات الحكومية والمجالس النيابية والمحاكم ومعابد الآلهة والدكاكين وساحات الاجتماعات الشعبية الشهيرة وأقواس النصر ، هناك تحت الكابيتول حيث السناتو مجلس الشيوخ أو (البرلمان الرومانى) وحيث جرت أقلام المؤرخين وكتاب المسرح أن مارك أنطونىوس هيج رعاى روما وهو يخطب على جثة قيصر ويشعل شرارة الحرب الأهلية . فأذهب إلى الفورم فيقال لى : لا ، ليس هنا . اذهب إلى كامبو دولبو . فأذهب إلى كامبو دولبو فلا أجد لوحة أو أثرًا أو شاهدًا أو أى شئ يدل على مقتل قيصر . ويؤكد لك الناس أن المكان القديم مطمور تحت البيوت والكنائس القائمة . ثم تفاجأ بمرشد ثالث يقول : بل اذهب إلى

الحفائر في لارجو أرجنتينا . فهناك كان موقع السناتو القديم الذى قتل على درجه يوليوس قيصر . أما السناتو الذى رأيته فى الهرم فقد بناه يوليوس قيصر ولم يعمر حتى يتم بناؤه وتأملت الأطلال المرمرية طويلا ، ثم انصرفت أسفا لنقص اليقين . قلت : ربما فى زيارة قادمة أكون أكثر توفيقا فى مناجاة أحجار روما القديمة .

وفى الأكاديمية المصرية شاهدت عرضاً للفيلم التسجيلى « ينابيع الشمس » الذى أخرجه المخرج فىنى (تصوير حسن التلمسانى) لحساب وزارة الثقافة المصرية ، وعرضاً آخر للفيلم التسجيلى « العجيبة الثامنة » الذى أخرجه حسين بيكار أيضاً لحساب وزارة الثقافة المصرية عن موضوع معبد « أبوسمبل » ، باعتبار أن « أبوسمبل » أضاف إلى عجائب الدنيا السبع عجيبة ثامنة . ومع العرضين فاصل تمثيلى قصير كان عبارة عن مجموعة مونولوجات ألقاها الفنان الإيطالى إيفانو ستاتشولى إلقاء منفرداً ، مونولوج أن نكون أو لا نكون ، من « هاملت شكسبير » ومونولوج آخر من بيراندياو . ولو أننى انتظرت يومين آخرين اشاهدت عرضاً لفيلم « المومياء » الذى أخرجه شادى عبد السلام لحساب وزارة الثقافة المصرية . كذلك كان هناك معرض لاثنتين من الفنانين المصريين . وقد كان كل ما رأيته شرفاً لمصر فى بلاد الفرنجة . الأكاديمية ومن فيها وما فيها .

وتصورت كيف أن هذه الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى واجهة مشرفة ومركز ثقافى لفنون مصر وآدابها فى العاصمة الإيطالية ، لو أن

صلاح كامل قدم كل مساء نشاطاً ثقافياً مصرياً من نفس المستوى في باب المسرح أو السينما أو الموسيقى والغناء أو المحاضرات العامة أو فيما يدخل في باب التبادل الثقافي . أما في النهار فقاعات العرض تنسع للوحدات أربع فنانين تشكيليّين في وقت واحد يمكن تغييرهم على مدار السنة مرة كل شهر . ولكنى وجدته حزيناً يفيض بالإحساس بالإحباط لأن يده مغولة عن كل شيء . وبدأت لى الأكاديمية كدكان مجوهرات عظيم من أرقى طراز وقد صفت في واجهته العلب الأنيقة على خلفيات من أبواب القطيفة الفاخرة ، ولكن العلب للأسف خالية من المجوهرات . وجدت مدير الأكاديمية حزيناً لأن همومه كانت من نوع آخر غير ثقافي . فقد عرفت منه أنه اضطر لعقد السلف شهرياً ولادة أربعة أشهر من بنك إيطاليا لدفع مرتبات الموظفين المحليين الذين لم ترد اعتماداتهم في « الباب الأول » من الميزانية بلغة المستخدمين والحسابات في الحكومة المصرية السعيدة . فند انتقلت الولاية على الأكاديمية من وزارة التعليم العالى إلى وزارة الثقافة خفضت ميزانية الأكاديمية السنوية خارج الباب الأول دون سبب معروف من نحو عشرة آلاف جنيه إلى نحو خمسة آلاف جنيه ، وهي ميزانية المشروعات والمطبوعات وأجور الخدم ومصاريف الإنارة والمياه والتليفون إلخ . وأولاً ما يتمتع به صلاح كامل في روما من هبة شخصية ومن صلات ممتازة لقطعت الكهرباء والمياه والتليفون عن الأكاديمية ولانصرف البواب وخدم النظافة والطبخ والغسيل الذين ينجدون أبناءنا الفنانين العشرة المقيمين في الأكاديمية لعدم صرف أجورهم ولأغلقت

الأكاديمية أبوابها وجلس موظفوها المعينون على الباب الأول في القهوة انتظاراً لأول السنة المالية القادمة . وقد استصرخ صلاح كامل واستنفر المسؤولين بالرسائل وبالبرقيات وبالمكالمات التليفونية ، ولكن دون جدوى وكان آخر استصراخ أعرفه رسالة حملني إليها إلى الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام ، وقد حملت إليه الرسالة عند عودتي إلى مصر فأمر بحل جميع مشاكل الأكاديمية . فأرجو أن يكون الناس إلى فوق والناس إلى تحت ممن يمسون كيس الدولة قد صدعوا بأوامره أو وجدوا طريقاً لحل مشاكل الأكاديمية .

وجدت مدير الأكاديمية تد حدد لمهرجان افتتاحها شهر أبريل أو مايو ١٩٧٢ ، فنصحته بأن يؤجل الافتتاح إلى أكتوبر أو نوفمبر حتى يرتب أموره ، .. واقترحت عليه وعلى وزارة الثقافة أن يستغرق مهرجان الافتتاح أسبوعاً كاملاً بحيث تعرض في النهار صفوف لوحات فنائنا التشكيليين وتمثيلهم ، ويخصص المساء الأول لتقديم مسرحية لسنينكا أو لولدوني أو لبيرانديلاو على مسرح الأكاديمية تحية من مصر للفن الإيطالي ، والمساء الثاني لتقديم عمل من أعمال توفيق الحكيم بالإيطالية ، تحية من إيطاليا للفن المصري ، والمساء الثالث لتقديم نماذج مصرية من أوبرا « عابدة » لفيردي وغيرها وريستال على البيانو لرورى يسى وعلى الفيولونسيل لنانجى الحبشى وغيرها . والمساء الرابع لتقديم الفيلم المصري . والمساء الخامس لندوة ثقافية عن العلاقات الحضارية بين مصر وإيطاليا . والمساء السادس لندوة عن العلاقات

السياسية والاقتصادية بين مصر وإيطاليا . ولما عرفت من مدير الأكاديمية أن من الممكن دعوة رئيس الجمهورية الإيطالية في حفل الافتتاح اقترحت أن يرأس وفد مصر الرسمي الدكتور محمود فوزي الذي يعرف الإيطالية فيما سمعت ، وأن يرأس وفدتها الثقافي توفيق الحكيم . وحين عرضت مقترحاتي على الدكتور حاتم أبدى اهتماماً شديداً بها ، ولم يبق إلا أن نأمل أن تترجم هذه الأفكار إلى واقع . أليست هذه طريقة لتغيير صورة مصر في الخارج ؟

وبرغم الآثار وبرغم الأكاديمية وجدت الوقت لمشاهدة مسرحيتين بالإيطالية ، وأجريت لقاءين مع المخرجين دى سيكا ومونتالدو . وسعيت للقاء أنطونيو وفيليني وفيسكونتي وباسوليني وروساليني لأنقل لقراء « الأهرام » صورة عن مدارس الفن السينمائي ، ولكنني وجدتهم إما خارج إيطاليا وإما خارج روما . وكانت تجربتي مع دى سيكا غريبة فقد التقيت به في الاستوديو في أثناء التصوير بين لقطتين ، وعبرت معه البلاتو تحت الكاميرات والبروجيكتورات التي تعشى البصر وهرج الاستوديو إلى غرفته الحادثة ، فوجدته يسير في اختيال كأحد القياصرة وقد تجمهرت من حوله نسوة جميلات في حالة من الهستيريا ، هذه تقبله على خده وهذه تتعلق برقبة والثالثة تقول « مبروك » والرابعة تقول « رائع » .. ثم رأيت سيدة بارعة الجمال ملامحها أنجاء سكسونية تجر طفلة في نحو الخامسة تقطع الطريق على دى سيكا وتقول إنها من أستراليا وإن ابنتها موهوبة وإنها مستعدة للامتحان في التمثيل . وقد حدثها دى سيكا

صباح اليوم التالي للنظر في هذه الموهبة الجديدة .
 وكان دى سيكا مرهقاً في أثناء لقائى معه فلم أجالسه إلا نصف ساعة
 وعرفت منه أنه عديم الخبرة الشخصية بالفيلم المصرى ، ولكنه سمع
 ببعض ما يجرى عندنا من زميله روسيلينى . وحين ناقشته في تجارب
 زملائه الجدد أنطونيونى وفلينى والباقيين من أتباع ما يسمى بالموجة الجديدة
 كان شديد الأدب شديد الإطراء على الطريقة الإيطالية ففهمت أنه
 لا يقر منهمجهم في الإخراج . فهذا ممتاز في كذا وذلك ممتاز في
 كذا . . أما الجوهر فقد كان يتجنب الإشارة إليه في حرص شديد . قلت :
 باختصار أنت لاتزال مطمئناً إلى مدرستك الواقعية ؟ فضحك لأنه أدرك أنى
 أدركت ، وأخذ يدافع عن المدرسة الواقعية دفاعاً حاراً . وكنت دائماً أشكو
 من البطء وتفتيت الزمن في أفلام الموجة الجديدة دون تعويض تشكيلي
 فشكا دى سيكا مما يسميه « الغموض » في عمل زملائه ، وهو ما يسميه
 زملاؤه المبرر النفسى .

أما مونتالدو صاحب الفيلم العظيم « ساكو وفنزيتى » ، فقد بهرنى
 ببساطته وثقافته وبإيمانه بأن الحياة قضايا تستحق أن يدافع عنها
 الفنان من خلال الفن . وقد عرفت منه أنه يعد فيلماً عن حياة «جوردانو
 برونو» ، الفيلسوف والعالم الإيطالى (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذى أحرقتة
 محاكم التفتيش لقلوله بأن الأرض ليست في مركز الكون ولكنها في ركن
 مهمل من الفضاء . تأسيساً على نظرية كوبرنيك في الفلك ، ولأنه قال
 بضرورة الانسجام بين الروح والجسد وهاجم نظرية سحق الروح للجسد

التي تنادى بها بعض التفسيرات الدينية المحافظة ، كما قال بلا نهائية الكون وهو ما يشكك في أنه شاق ، وقد عاش حياته مطارداً بين جامعات إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى استلجج أخيراً إلى روما ، وهناك حوكم بتهمة الزندقة وأحرق على الخازوق في كامبودي فيوري (ميدان الأزهار) بعد سبع سنوات من السجن .

أما فيلم « ساكو وفنزيتي » فموضوعه القضية الفظيعة التي هزت ضمير العالم في العشرينات من هذا القرن كما هزت قضية دريفوس ضمير العالم في القرن التاسع عشر . ففي ١٩٢٠ ارتكبت في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة بوسطون في أمريكا جريمة سرقة بالإكراه قتل فيها رجلان . وبعدها بأسابيع قبض البوليس على رجلين أحدهما اسمه ساكو وهو صانع أحذية والآخر اسمه فنزيتي وهو بائع سمك ، وكلاهما من المهاجرين الإيطاليين ، وكان الاشتباه مؤسساً على أن سيارتهما تطابق أوصاف السيارة التي ارتكبت بها الجريمة وقد وجدوا معها مسدساً من نفس العيار . وبرغم اضطراب شهادة شهود الإثبات وعدم كفاية أدلة الطب الشرعي تمت المحاكمة في جو من التوتر والإرهاب زادها أن محامي المتهمين كان معروفاً بميوله الاشتراكية ، وربما كانت على ساكو وفنزيتي أيضاً شبهة يسار ، وأن سكان ولاية ماساشوستس بصفة خاصة عرفوا بعدائهم المتعصب ضد «الأجانب» ، وكان القاضي ، واسمه تاير ، من غلاة المحافظين . ولهذا كانت محاكمة ساكو وفنزيتي محاكمة سياسية قبل أن تكون أي شيء آخر . وانتهت بإدانتهمما والحكم عليهما بالإعدام . وقد جرت محاولة

لإعادة النظر في القضية استغرقت سنوات ، وثار الرأي العام في كل مكان في أمريكا وخارج أمريكا ضد هذا الحكم بإعدام الأبرياء وعمت المظاهرات في كل عواصم العالم تندد بالعدالة الأمريكية العرجاء وبالتعصب العنصرى والعقائدى ولكن بدون جدوى . بل إن أحد الشركاء في الجريمة عذبه ونز الضمير فسلم نفسه للبوليس معلناً أنه كان أحد من شاركوا في عملية السطو ، ومع ذلك لم يعتد باعترافه لأنه رفض أن يبوّح باسم شركائه الحقيقيين . وقد قدم ساكو وفنزيتى التماساً إلى محافظ ولاية ماساشوسيتس واسمه فولر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد . وزارهما المحافظ في السجن وخرج من لقائه معهما في اضطراب شديد لأنه أحس باحتمال براءتهما ، ولكنه برغم ذلك لم يخفف الحكم خوفاً على مستقبله السياسى . وفي ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ عند منتصف الليل تم إعدام ساكو وفنزيتى ، على الكرسي الكهربائى . ويروى أنهما قابلا المنية إلى آخر لحظة بكرامة الرجال . قال فرانكاين روزفات معقباً : « إن هذه أكبر جريمة وحشية ارتكبتها العدالة الإنسانية في القرن الذى نعيش فيه » وكتب الروائى الكبير جون دوس باسوس « نعم ، لقد انتصرتتم ، ولكنكم شطرتتم أمريكا إلى معسكرين » .

وكانت حكاية ساكو وفنزيتى محفورة في ذاكرتى منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمرى . ومازلت أذكر والدى جالساً ونحن بعد في مدينة المنيّا يقرأ في الجرائد المصرية وصف تنفيذ حكم الإعدام في ساكو وفنزيتى الذى طيرته وكالات الأنباء ودموعه تنهر على خديه . ولم تكن

نفهم سر انفعاله الشديد ونحن صبية ، فكان يشرح لنا كل ما قد جرى .
ولعل هذه كانت أول صورة رسخت في ذهني عن « أمريكا » .
وفي لقاءى مع مونتالدو لم يكن لنا حديث إلا عن الالتزام فى الفن
وكيف يمكن للفن أن يلتزم بقضايا الإنسان بدون أن يتنازل عن مقاييس
الفن أو يجعل من فنه دعوة مباشرة صلاء لأية عقيدة من العقائد السياسية
أو الاجتماعية . وكان واضحاً أن مونتالدو اشتراكى النزعة ومشرب بروح
الهومانزم فى وقت واحد . وكان يتمنى أن يزور مصر . قلت : ولماذا
لا تجرب الإنتاج المشترك مع وزارة الثقافة المصرية ؟ هناك أرض مشتركة
عريضة بيننا وبينك ، فأنت معاد للاستعمار ونحن معادون للاستعمار .
قال : أى موضوع تقترح ؟ قلت : خذ مثلاً ملحمة قنال السويس منذ
حفرها حتى تأميمها ، فقد كانت نقطة احتكاك مباشر بين مصر
والاستعمار . قال : هذا موضوع ممتاز للسينما ، وذهب يتحدث عما لقيه
المصريون على يد أجنبى مصر من الاستغلال الشيئى ، يتحدث وكأنه
مصرى يعرف كل شئ ويحس بكل شئ مما كان . وتحدث عن ثورة
١٩٥٢ حديث المفهم لأسبابها ونتائجها . قال فى عمق : لقد بالغتم
فى عداؤكم لنا لأننا بالغنا فى إذلالنا إياكم . كل هذا كان منطقياً .
قلت : « فى هذه الحالة تستطيع أن تتناول قصة قناة السويس من خلال
أسرة أجنبية عاشت فى مصر ثلاثة أجيال : جيل عاصر لإسماعيل وجيل
عاصر ثورة ١٩١٩ وجيل عاصر عبد الناصر » . قال : « غريب . إن هذا
بالنص ما نصحنى به باباوى نيرودا عندما كنا نبحث موضوع فيلم عن

تاريخ شيلي وقناة بنما مع الاستعمار الأجنبي .

وكنت أسمع عن مسرح إدواردو دى فيليبو فقررت أن أشاهد عرضاً من عروضه برغم أن معرفتي بالإيطالية طشاش بعد مضي ثلاثين سنة على تعلمي إياها من دون استخدامها بأى معنى حقيقى . (ونفس الأمر بالنسبة للألمانية) . وكان الغرض الأول من هذه التجربة امتحان ذاكرتى لأعرف إن كان فى استطاعتى متابعة نص مسرحى يلقى أمامى بسرعة الكلام فى الحياة ، وإلى أى مدى تكون المتابعة . أما الغرض الثانى فكان امتحان المسرح نفسه : إلى أى مدى يستطيع الأداء التمثيل والحركة المسرحية والإخراج . إلخ أن يحمل معنى النص إلى المشاهد الذى لا يعرف لغته . وقد كانت تجربة فريدة لأن ذاكرتى نجحت بنسبة ٢٥ فى المائة أما المسرح فنجح بنسبة ٥٠ فى المائة ومعنى هذا أنى لو تابعت اللغة بنسبة نصفها لأمكننى متابعة النص كله بنسبة ١٠٠ فى المائة اعتماداً على دلالات التمثيل والحركة والإخراج .

وسمعتهم ية واون فى روما لا تقل إدوارد ودى فيليبو . قل إدواردو فقط فليس فى إيطاليا غير إدواردو واحد . هكذا كان إدواردو عظيماً فى نظر الناس ، عظيماً فى نظر النقاد ، وهو الآن واستمرت مضت سيد المسرح الإيطالى بغير منازع منذ بيرانديلاو . وهو مؤلف وممثل معاً ، وقد أتهم فى مرحلة من مراحل إنتاجه بالنسج على نول بيرانديلاو ولكنه فى الحقيقة مؤلف تقليدى ينتمى إلى مدرسة الكوميديا ديلارتي .

ومن أشهر مسرحياته « السحر الكبير » و « الرعب رقم واحد » و « هذه

الأشباح» و «الأصوات الداخلية» و «نابولي صاحبة الملايين» و «عيد الميلاد مع آل كوبيلاو»، و «فيلومينا مارتورانو». (وهي أساس «الزواج على الطريقة الإيطالية»)، و «الكذب ذو الأرجل الطويلة» (وهي المسرحية التي شاهدتها).

انظر إلى مسرحيته «السحر الكبير» موضوعها حاجة الإنسان إلى الوهم: كاليجيرو دى سبلتا رجل شديد الغيرة على زوجته مارتا، فهو لا يتركها تغيب عن بصره لحظة واحدة. لهذا فإن ماريانو، عشيق زوجته ياجأ إلى الحيلة لينفرد بمارتا. فهو يتفق مع الساحر أوتو أن يجعل مارتا تختفي من بيت الزوجية بالسحر أو بالجلال، ويقودها إلى ماريانو على أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة ولكنها بدلا من أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة نجلدها ترحل مع ماريانو إلى فينيسيا حيث يقيمان معاً أربع سنوات. ويخرج الساحر مع الزوج كاليجيرو لاختفاء الزوجة، ويؤكد له أن في استطاعته أن يستردها أو تخلى عن غيرته العدياء ووثق منها ثقة مطلقة. عندئذ سوف يرى زوجته تخرج أمامه من صندوق صغير. وتكون مشكلة الساحر الحقيقية هي إقناع الزوج بأن الوقت ثابت لا يمر، وأن السنوات الأربع لم تنقض على اختفاء زوجته. وينجح الساحر في إقناع كاليجيرو بأن الزمن توقف عن الحركة، ويكاد ينجح أيضاً في إقناعه بأن مارتا لا تخونه. وفي اقناع كاليجيرو بتوقف الزمن يحاول أن يتوقف أيضاً عن الأكل والشرب فيرثي الساحر أوتو لحاله ويقرر أن يعترف له بالحقيقة، ويأمره أن يفتح الصندوق إذا كان قد تخلص تماماً من شكوكه.

وهنا تحدث المعجزة : تعود مارتا وتظهر أمامه في الوقت الذي يتأهب فيه كاليبجيو لفتح الصندوق ، ولكن كاليبجيو يعدل عن فتح الصندوق لأنه يعلم أنه لم يتخلص من شكوكه تماماً . ولهذا يرفض قبول زوجته مارتا لأنها ظهرت أمامه قبل أن يفتح الصندوق ، بمعنى أنها ظهرت أمامه قبل أن يتخلص من شكوكه نهائياً . إنه يؤثر أن يحتفظ بالصندوق وهو مغلق .

وقد لاحظ الناقد الكبير أريك بنتلي في كتابه عن « المسرح الإيطالي » ، أن ما يقال عن تأثير إدوارد وبيرانديلو في تصوير تداخل الوهم بالحقيقة قول غير صحيح . وعنده أن موضوع « السحر الكبير » ليس طبيعة الحقيقة ، على غرار ما نجد في بيرانديلو ، ولكن مجرد ثقة الأزواج في زوجاتهم .

أما « الرعب رقم واحد » الذي يعيش فيه الناس فهو الحرب العالمية الثالثة . وهذه حالة أسرة من أب هو ماتيو وابنته ، والأب يعيش في رعب من نشوب الحرب العالمية الثالثة إلى حد أنه لا يفتأ يؤجل كل عمل وكل مشروع وكل قرار في حياته ، بما في ذلك زواج ابنته . وحين تأس البنت ونخطبها من الأب وأحواله يتفقان على افتعال إذاعة كاذبة تعلن في الراديو أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت فعلاً . وهنا نجد أم العريس تتدخل لتؤجل الزواج . لقد فقدت في الحرب العالمية الثانية زوجها وابنها الآخر وهي لا تريد أن تفقد ابنها الأخير في الحرب العالمية الثالثة ، ولذا فهي تحبس ابنها في غرفة صغيرة تطعمه فيها ما لذ وطاب

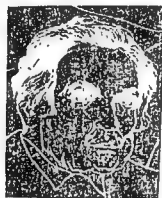
ولكنها طبعاً تحول دون خروجه لإتمام الزواج خشية أن ينتهى خروجه أيضاً بدخوله الجيش . ولكن هذه الكوميديا تنتهى نهاية سعيدة بظهور الحقيقة وهى أن الحرب العالمية الثالثة لم تنشب ويتم زفاف الخطيبين بعد ثلاثة فصول من الأوهام التى يعيش فيها الأب والأم . فكل منهما يعانى من عاهة نفسية أو من جرح عميق يجعاه يختبئ فى الأوهام ويتمسك بأسخف الآراء . وفى « الأصوات الداخلية » هناك رجل يستمع دائماً إلى إلهامه الباطنى فقلبه دليله ، وكل شىء يدرك عنده بالحدس . هذا الرجل يتهم أسرة من الأسر بأنها اشتركت فى قتل أحد أصدقائه . ولكنه يكتشف فيما بعد أن هذا كان حلماً أو وهماً ، لأن صديقه مازال على قيد الحياة . أما الأسرة فلا تنفى التهمة لأن كل فرد فيها يعتقد أن أى فرد آخر فى الأسرة كان يمكن أن يقتل ذلك الرجل .

وأوسع مسرحيات إدواردو شعبية هى مسرحية « فيلومينا مارتورانو » (١٩٤٦) وهى تدور حول موضوع رجل يهدى بغياً إلى طريق الفضيلة . والبعثى فيلومينا جاءت من حثالة نابولى ، وقد أنقذها من الفقر المدقع سرىً من سراة نابولى يدعى دومينيكو سوريانو ، فقد عاشت معه سنوات عديدة . وعندما تجاوز دومينيكو الخمسين رأى أن يؤسس أسرة حقيقية ، وأن يتزوج بنتاً جميلة ، محترمة تصغره سنّاً . وحين عرفت فيلومينا ذلك ادعت المرض وتمازت وطلبت أن تزف إلى صاحبها دومينيكو وهى على فراش الموت ، فلم ير دومينيكو بأساً من ذلك . ولكن ما إن تمت مراسم الزفاف حتى نهضت فيلومينا من فراشها وهى فى سعادة

غامرة ، وهنا أدرك دومينيكو أنه خدع . ولكننا نعلم أن فياومينا لم ترتكب هذه الخديعة بدافع أناني وإنما لتعطى وضعاً شرعياً لأولادها الثلاثة الشبان . ويبدأ دومينيكو الغاضب باتخاذ الإجراءات القانونية لإبطال هذا الزواج الذى تم بالتحايل ، ولكن فيلومينا تخبره أن أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة ابن منه ، دون أن تحدد أيهم ، لأنها ترفض التمييز فى المعاملة بين أولادها . وهنا يقتنع دومينيكو بأن زواجه من فيلومينا هو الأمر الطبيعى ، وينبذ فكرة البحث عن زوجة جديدة . ويكون قد نجح فى إبطال الزواج بالتدليس ، ولكنه يعقد قرانه على فيلومينا من جديد بإرادته ويتبنى أولادها الثلاثة .

هذه نبذة عن إدواردو دى فيليبو الممثل الكاتب صاحب فرقة إدواردو الشهيرة، وهو الآن فى الثانية والسبعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٠٠ ومع ذلك تراه على المسرح وتلقاه فى الحياة فتجده فى حيوية ابن الثلاثين . رأيت إدواردو على المسرح ، فرأيت معجزة . وأنا لا أعرف من اللغة الإيطالية ما يمكننى من الحكم على قيمة أعماله من الناحية الأدبية ، ولكن إذا أردت أن تعرف ماذا يفعل إدواردو على المسرح ، فتذكر الريحاني بوجهه الخشن الملاحج وجسمه الخشن البنيان ، لا تعرف أتسخر منه أم ترقى له ، لأنه حتى فى وسط التهريج يهز وترأ فى قلب الإنسان لأنه يمثل الإنسان الطيب المسحوق . ولكن إدواردو هو الريحاني مضروباً فى ثلاثة ، الريحاني بغير جمهور ، الريحاني الغليظ الذى يفرض غلظته على النص والأداء . وأنا شخصياً لا أميل كثيراً لهذا النوع من الفن

المسرحى ، من كوميدىا المواقف ، بل لا أميل إلى الكوميديا ديلارنى التى يقال بمبالغة شديدة إنها تؤلف فى أثناء التمثيل ، أى أن الممثل فيها مؤلف يكسو هيكلها العظمى بنسيج الحوار تبعاً للموقف ، لأنى أفضل المسرح الأدبى دائماً القيمة على المسرح الفنى ، حيث المؤلف الممثل بمثابة أسطى أو صنايعى ماهر فى فن المسرح ، ولاسيا فى الحركة والحوار اللاذع . وحين جلست نحو ساعة مع إدواردو العظيم أناقشه فى أصول فنه ، وجدته دائماً الرجوع إلى اسم موليير ، كأنما موليير كان قبسه وهدهد . وحررت ماذا أقول له : أى موليير يقصد ؟ موليير « سكانبان » أم موليير « البخيل » و « النساء العالمات » و « البورجوازي النبيل » ؟



سلسلة (اقرأ)

الكتب التي نشرت فيها منذ
صدورها في يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

- ١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين) ٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
- ٦ شاعر ملك (على الجارم) ٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
- ١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد) ٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
- ١٤ من يوميات فتاة عصرية ٦٣ رقيق الأرض (نظمى أوقا)
- (حسين شوقي) ٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحي)
- ١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقي) ٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
- ١٩ سيدة القصور (على الجارم) ٩٢ الجاحظة (أمينة السعيد)
- ٢٢ جحا في جانبولاد ١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
- (محمد فريد أبو حديد) ١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحاني)
- ٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان) ١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
- ٣٢ الشيخ قرير العين ١١٦ اللحن الشرود (كرم مكرم كرم)
- (كرم مكرم كرم) ١٢١ عذراء الأندلس
- ٣٤ فارس بنى حمدان: أبو فراس (أحمد الصاوي محمد)
- الحمداني (على الجارم) ١٢٢ أخطر من إبليس (محمد تيمور)
- ٤٣ عنزة بن شداد ١٢٩ زامر الحى (محمد تيمور)
- (محمد فريد أبو حديد) ١٣٠ في بطون الليالى (رشاد داغوث)
- ٥١ الشاعر الطموح: المتنبي ١٣٥ ليلي العفيفة (عادل الغضبان)
- (على الجارم) ١٣٦ أبو علي الفنان (محمد تيمور)

- ١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون في الوطن (إبراهيم المصري)
 ١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
 ١٥٢ قلوب معذبة (قدري قلعجي) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفي عبدالله)
 ١٥٣ دماء وطين (يحيى حقي) ٢٨٧ قصص من جوته
 ١٥٥ بنت يزيد (سامي الكيالي) (عبد الغفار مكاوي)
 ١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
 ١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
 ١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
 (عبد الله القرشي) ٢٩٢ شئ من الخوف (ثروت أباطة)
 ١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوي)
 ١٨٣ الثريا (كمال بسيوني) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
 ١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
 ١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمرسي)
 ١٩٩ عرس وماتم (البدوي المثلث) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
 ٢٠٠ واطن أمام القضاء ٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً وقصص
 (فاضل السباعي) أخرى (فتحى رضوان)
 ٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إني صاعدة (حلمى سلام)
 ٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
 ٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
 ٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصري) ٣٥٠ دموع في عيون ضاحكة
 ٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكيني) (يوسف جوهر)
 ٢٧٣ مذكرات طيبة (نوال السعداوى) ٣٥١ من أخطاء القضاء
 ٢٧٦ صنيعه الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوى)
 ٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

الأدب

- ٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة ٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
(عباس محمود العقاد) ١٠٢ من نافذة العقل
- ٤ عود على بدء (د. نقولا فياض)
- ٨ مذكرات دجاجة الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
(د. إسحق موسى الحسيني) ١١٨ المعذبون في الأرض
- ١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد) (د. طه حسين)
- ٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس) ١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
- ٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين) (د. محمد سامي الدهان)
- ٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل ١٢٦ من ذكريات الذن والقضاء
وابن الأحنف (د. زكي مبارك) (توفيق الحكيم)
- ٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد) ١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
- ٤٧ أبو زيد الحلالى ١٣١ أمين الريحاني (فاروق عبود)
- (محمد فهمي عبد اللطيف) ١٤٧ مارس يحرق معداته
- ٤٩ بين البحر والصحراء (عيسى الناعوري)
- (شفيق جبري) ١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
- ٥٩ الجوارى (د. جاور عبد الزور) وتيه وروايات وأبو حديد والعريان
- ٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري) والشناوي (عباس خضر)
- ٧٦ ثم غربت الشمس ١٨٢ لمحات من الأدب الروسي
- (د. سهير القلماوى) (ماهر نسيم)
- ٨٣ من النافذة ١٩٣ دون جوان (لطفي عبد البديع)
- (إبراهيم عبد القادر المازني)

٢٣١

- ٢٠٣ القومية العربية في الأدب ٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
الحديث (د. محمد زغول سلام) ٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (محمد بدر الدين خليل)
(د. يوسف خليف) ٣٣١ البطولة في الشعر العربي
٢٢٦ النفس الإنسانية في أدب (د. شوقي ضيف)
الجاحظ (سامي الكيالي) ٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٢٣٣ المرأة في شعر البحري ٣٣٧ في اللغة والأدب
(د. نعمات أحمد فؤاد) (د. إبراهيم بيومي مدكور)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش) ٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر
٢٤٨ من الأدب الإفريقي (غالي شكري)
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقي ضيف) ٣٤٦ ذكريات عارية
٢٦٠ دعاء (علي أمين) (د. السيد أبو النجاة)

السير والتراجم

- ٥ ديستوفسكي (حسن محمود) ٣١ الغزالي (طلح عبد الباقي سرور)
٧ الشاعر الرجيم بودلير ٣٥ جوته (صديق شيبوب)
(عبد الرحمن صدقي) ٤٢ قصة عبقري: التحليل بن أحمد
١٥ بايرون (أمينة السعيد) (يوسف العشي)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد) ٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا
(ز. ن. محمود، أ. خاكي) (عباس محمود العقاد)
٢٤ لا فوازيه (عبد الحميد يونس) ٥٠ تشيخوف (نجاتي صدقي)
(عبد الغزي أمين) ٥٤ تولستوي (حسن محمود)
٢٨ بوشكين (نجاتي صدقي)

- ٦٥ عمر بن عبد العزيز ١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
 (أحمد زكى صفوت) ١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
 ٦٨ جمال الدين الأفغانى ١٤٠ عائشة بنت طلحة
 (عبد القادر المغربى) (كمال بسيونى)
 ٧٠ الجبرئى (خليل شيبوب) ١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم
 ٧٢ فولتير (سليم سعدى) (محمد عبد الغنى حسن)
 ٧٧ المغنى المجنون : كاروزو ١٤٣ ابن عمار (ثروت أباطة)
 (أحمد الصاوى محمد) ١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
 ٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى) العدوية (وداد السكاكيتى)
 ٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة) ١٦٢ مكسيم غوركى (نجاحى صدقى)
 ٨٢ فرانز ليست (خليل هنداوى) ١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
 ٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر) ١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسى)
 وهادى حبيشة (١٨٧ طاهر (د. جميل جبر)
 ٨٩ برنارد شو (عباس محمود العقاد) ١٩٢ أدباء من الجزائر
 ٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (د. إبراهيم الكيلانى)
 (محمد محمد فياض) ١٩٧ جان جاك روسو
 ٩٩ نساء محاربات (صوفى عبدالله) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٢ مع طه حسين (سامى الكيلانى) ٢٠٤ فيكتور هوغو (د. جورج زايد)
 ١١٣ عبقرية الإمام ٢٠٧ الناصر صلاح الدين
 (عباس محمود العقاد) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى) ٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
 ١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم) (محمد كامل حته)
 ١٢٥ الصديقة بنت الصديق ٢٣٢ أبو القاسم الشابى
 (عباس محمود العقاد) (رجاء النقاش)

- ٢٥٠ ابن حمد يس الصقلى (على مصطفى المصراقى) ٣٠١ مع طه حسين . الجزء الثانى (سامى الكيالى)
- ٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى ٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة الحديث (أنور الجندى) (د . حسين فوزى)
- ٢٥٦ عشرة من الخالدين ٣٢٤ هوثى منه (جورج عزيز) (إبراهيم المصرى) ٣٣٦ م. أيام خالدة فى حياة عبدالناصر
- ٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى) (د . جمال الدين العطينى)
- ٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول ٣٤٠ محمد عبدالوهاب (محمود عوض) (د . على حسنى الخربوطلى) ٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلم سياسة

- ٩ المذاهب السياسية المعاصرة ٢٦١ عروبتنا (محمود كامل) (على أدهم) ٢٧٤ المزايم الصهيونية فى فلسطين
- ٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت) (فتحى فوزى عبد المعطى)
- ١٠٧ تحرير وادى النيل ٢٧٥ الوحدة الإفريقية (محمد أبو الفتوح الخياط) (محمود كامل المتامى)
- ١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان) ٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
- ١٧ هذا الشرق العربى (محمد فيصل عبد المنعم) (فتحى رضوان) ٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
- ٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د . محمود أمين) (د . على حسنى الخربوطلى) ٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر
- ٢١٦ وحدة العرب (لطفى الخولى) (إبراهيم الدسوقي البساطى)

- ٣١١ حرب الأفريون (د . محمد مظهر سعيد)
 (محمد العزب . موسى) ٣١٩ في مواجهة إسرائيل
 ٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩ (إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

- ١٠ شفاء النفس (د. يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبى (نظمى خليل)
 ٨٠ الحب والكراهية ٢١٧ لكى تكون سعيداً
 (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
 ٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
 ١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
 ١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عالم نفسك (د. كمال دسوقي)
 (د . يوسف مراد) ٢٥٧ أراض نفسية (د. كمال دسوقي)
 ١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقائص والنجاح
 (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (ضياء الدين أبو الحب)
 ١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى) ٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
 ١٦٦ الأحلام والرؤى (د. عبد الكريم دهينة)
 (عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
 ١٧٠ القلق (د . أبو مدين الشافعى) (محمد زكى عبد القادر)

علوم

- ١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحيات
 (قدرى حافظ طوقان) (د. حسين فرج زين الدين)
 ٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٨	العلم والحياة	١٣٢	البساط السحري
	(د . علي مصطفى مشرفة)		(عبد السلام فهمي)
٤٨	غرائز الحيوانات	١٤٩	بين البقاء والفناء
	(محمد محمد فياض)		(قدرى حافظ طوقان)
٥٢	النار الخالدة (فؤاد صروف)	١٥٤	أينشتين والعالم
٥٥	مع الأسماك		(محمد عاطف البرقوقي)
	(د . حسين فرج زين الدين)	١٧١	حرب الخمامات
	و. و. ب. باسيلوس)		(د . عبد الحليم منتصر)
٦١	الموج الساحر	١٧٨	الصدود إلى المريخ
	(محمد عاطف البرقوقي)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
٦٦	ملكة العذارى	١٨١	هجرة الحيوان
	(د . أحمد زكي أبو شادي)		(د . أحمد حماد الحسيني)
٧٣	أسرار الحياة	١٨٥	الغبار الذرى
	(د . مصطفى عبد العزيز)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
	و د . عبد العزيز أمين)	١٨٩	عصر الالكترونيات
٧٥	العيون في العلم		(د . جورج وهبه العني)
	(قدرى حافظ طوقان)	١٩١	الهزات الزلزالية
٨٤	الوراثة والجنس		(محمد علي المغربي)
	(د . عبد الحليم منتصر)	١٩٦	قوى الطبيعة في خدمتنا
٩٠	قصة البترول		(محمد جمال الدين الفندى)
	(يوسف مصطفى الحاروني)	١٩٨	الكلف الشمسي
٩٣	العالم سنة ٢٠٠٠		(محمد علي المغربي)
	(علي عبد الجليل راضي)	٢١٤	عصر التليفزيون
١٠٠	قصة العناصر (امبابي أحمد)		(د . جورج وهبه العني)

- ٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية
(د . جورج وهبه العني)
٢٥٥ العالم الأخرى
(د . محمد جمال الدين الفندى)
٢٦٣ عجائب الأرض والسماء
(د . محمد جمال الدين الفندى)
٣٠٣ من عجائب الحياة
(فوزى الشوى)
- ٣٠٨ البحر والناس
(د . سيد حسن شرف الدين)
٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول
(د . جورج وهبه العني)
٣٤٥ مذكرات ذرة
(عبد المحسن صالح)

جغرافيا ورحلات

- ١٦ دمشق مدينة السحر والشعر
(محمد كرد على)
١٧٣ الجزر الخضراء : أندونيسيا
(حبيب جاماني)
- ٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
١٧٧ صور من إفريقيا
(د . محمد محمود الصبياد)
- ٤٠ مهند العرب (د . عبد الوهاب عزام)
٤٥ مشاهدات في الهند (أمينة السعيد)
٢٠٦ جولة في الإقليم الشمالى :
سوريا (د . يوسف سمارة)
- ٦٩ رحلة الربيع (د . طه حسين)
٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربي)
٨١ في بلاد النجاشى
٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
٢٣٠ الجغرافيون العرب
(مصطفى الشهابى)
- ١٠٤ أرض المعجزات (د . بنت الشاطى)
٣١٧ صور باريسية
(يوسف فرنسيس)
- ١٦٣ غرائب من الرحلات
(محمد عبد الغنى حسن)
١٦٨ القارة العذراء
(محمود العزب موسى)
- ٣٢١ الإنسان الأوروبى فى الحدود واللعب
(عبد الستار الطويلة)

طب وصحة

- ٢٥ قصة البنسليين ٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
- (د. مصطفى عبد العزيز) ٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
- ٤١ الفيتامينات ٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهري)
- (د. مصطفى عبد العزيز) ٢٧٢ الجسد والميكروب
- و (د. محمد رشاد الطوبى) (د. مصطفى عبد العزيز)
- ٤٤ قصة العدوى ٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
- (د. محمد عبد الحميد جوهر) (د. جورج وهبه العنق)
- ٦٤ الأغذية الشعبية ٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
- (حسن عبد السلام) (د. محمد صدق عبده)
- ٧١ الحمى ونات (د. فؤاد خليل) (د. محسن الدناصورى)
- و (د. محمد رشاد الطوبى) (د. نجيب الأبراشى)
- ١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام) ٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
- ١٢٤ قصة العقاقير (د. محمود محمد سلامة) ٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة
- ١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق) (د. أسامة أمين العطار)
- ١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين) ٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
- ٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمى) (د. فاروق مرشد)
- ٢٢٤ الأسنان : أمراضها وعلاجها ٣٣٦ النفس والبدن (د. إبراهيم فهم)
- (د. حليم الكدوانى)

تاريخ

- ٣٧ العناصر النفسية في سياسة العرب ١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(شفيق جبرى) (د. السيد محمود عبد العزيز)
٥٣ قصة الكتابة العربية ٢١١ الفروسية العربية في العصر
الجاهلي (د. إبراهيم جمعة)
٨٦ الوعد الحق (د. طه حسين) (سيد حنفي)
٩٤ طرائف من التاريخ ٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابي) (مصطفى الشهابي)
٩٥ من أضواء الماضي (سامي الكيالي) ٢١٥ قصة ملكة سبأ
١٠٣ المهدي والمهدوية (د. أحمد أمين) (زاهر رياض)
١١١ المملكة والفتوة في الإسلام ٢٣١ صور من كفاح الشعب العربي
(د. أحمد أمين) (د. جمال الدين الرمادي)
١١٧ تيجان نهاوت ٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية
(محمد عبد الغني حسن) (د. علي حسني الخربوطلي)
١٣٤ أساطير مصرية ٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ
(د. عبد المنعم أبو بكر) (محمد محمود زيتون)
١٣٨ الجمعيات السرية (علي أدهم) ٢٩١ الكعبة على مر العصور
١٤٤ ابن بطوطة (د. علي حسني الخربوطلي)
(د. إبراهيم أحمد العدوي) ٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)
١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوربا ٣٢٢ قناة السويس في مائة عام
في العصور الوسطى (د. محمد عبد الرحمن برج)
(د. إبراهيم أحمد العدوي) ٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)
١٨٨ الثورة العراقية ٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعي)
(محمد عصام المرشدي)

اجتماع

- ٨٨ الهنود الحمر (د . علي عبد الواحد وافي) ٢٤٢ تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية (د. محمود سلام زناني) ١٠١ ملامح من المجتمع العربي ٢٦٢ بقايا كل شيء (أنيس منصور) (محمد عبد الغني حسن) ٢٦٤ ٥٥ مشكلة حب ١٥٠ وعي الشباب (واصف البارودي) (د . مصطفى محمود) ١٦٠ حبات المسبحة (يحيى حتى) ٢٧١ نماذج من النساء ١٦٩ عادات الزواج وشعائره (محمد زكي عبد القادر) (أحمد الشنتناوي) ٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور) ٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة ٢٩٤ كوكب الإنسانية (أحمد حسين) ٢٢٢ الحياة المثالية وكيف نحققها ٣٢٠ مذكرات زوج (أحمد بهجت) (م . أحمد حماد) ٣٢٩ رسائل إلى ولدي خالد (البدوي المثلث) ٢٢٨ التعمية الروحية في بناء المجتمع (د . حسن الأشموني) ٢٤٨ نحو النور (محمد زكي عبد القادر) ٢٤١ نحو حياة مشرقة (عبد العزيز جادو)

محتويات الكتاب

الباب الأول : رحلتى الروسية

٥	
٧	الفصل الأول : ١٠ أيام فى يوجسلافيا . . .
٢٣	الفصل الثانى : التجربة اليوجسلافية . . .
٣٩	الفصل الثالث : مأساة يوجسلافية ، وملهارة روسية .
٥٤	الفصل الرابع : موسكو ، مدينة القباب والأخلاق الفاضلة
٦٩	الفصل الخامس : رحلة فى عقل « ساشاسخاروف » .

الباب الثانى : رحلتى الأمريكية

٨٥	
٨٧	الفصل السادس : أمريكا : كيف تراها ولا تراها . .
١٠٧	الفصل السابع : إمكانيات الحوار فى المجتمع المصرى .
١٢٢	الفصل الثامن : مصر وما وراء البحار . . .
١٣٩	الفصل التاسع : المسألة المصرية . . .

الباب الثالث : رحلتى الأوروبية

١٥١	
١٥٣	الفصل العاشر : مداولات ثقافية . . .
١٦٦	الفصل الحادى عشر : ما كبث الحديد . . .
١٨٥	الفصل الثانى عشر : فى النساء والرجال . . .
١٩٩	الفصل الثالث عشر : الزهرة السوداء . . .
٢١٣	الفصل الرابع عشر : ٥ أيام فى روما . . .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٢٧٨١ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

